محاضرات في الأدب الجزائري القديم

الفئة المستهدفة: ثانية ماستر

التخصص: أدب عربي قديم

المادة: أدب جزائري قديم

الأهداف:

_ تسعى هذه المحاضرات لإحاطة الطالب بتاريخ الجزائر الثقافي والسياسي والأدبي خلال الفترة الممتدة من الفتح الإسلامي إلى نهاية العهد العثماني.

_ معرفة شعراء وأدباء العصور الأدبية التي مرت بها الجزائر

_ تمكين الطالب من معرفة المدونات المختلفة المحققة والضائعة والمخطوطات.

_ تحفيز الطالب على دراسة المدونات الجزائرية القديمة وفق المناهج الحديثة في مذكراتهم المستقبلية.

مقدمة:

هناك غموض يحيط بنشأة الأدب الجزائري القديم كإشكالية تعريب السكان والفتوحات الإسلامية، لأسباب مشتركة بينها، ولهذا نص أغلب من تناول هذا الموضوع على أن الجهود التي تحاول اليوم الحصول على مادة أدبية جزائرية، إنما تذهب هدرا – ولاشك– وهنا تثار قضية على جانب كبير من الأهمية وتتمثل في السؤال الآتي: أي أدب جزائري نقصد

في هذه المرحلة، أنقصد الأدب الذي عبر به عنه باللسان العربي، سواء كان مبدعا من قبل الفاتحين، أم نقصد الأدب الذي أعطته العربية على ألسنة أبناء المنطقة بعد تعريبهم؟.

وللإجابة عن السؤال بشقيه نحتاج إلى القول بأن الأدب له خصائص معينة، ومنها تلك التي تعطيه الأرض، والعادات، والتقاليد .... وهذه بالنسبة للفاتحين لا يدركون منها القليل، أو الكثير، كما أنهم نشأوا وتربوا في بيئة غير البيئة المشرقية، فهم يحملون خصائص بيئتهم بإيجابيتهم وسلبياتهم ويحملون أغراضا ناضجة، كاملة عاشوها في بيئاتهم هذه.

ومن ثم لا نجاري من عد شعر الفاتحين الذي قيل شعرا جزائريا، لأنه – وإلى جانب ما تقدم– لا نجده يحمل من الخصوصية ال جزائرية ما يشفع له بالانتماء إلى المنطقة على الإطلاق.

وفي اعتقادنا أن عدم الاتفاق بشأن هذه القضية من طرف الباحثين هو الذي أدى في الآن نفسه إلى عدم الوصول إلى تحقيق أول نص قيل هنا في منطقة المغرب خلال الفتوحات نفسها، الأمر الذي جعل العض ينطلق من عينية أبي ذؤيب الهذلي على أساس أنها قيلت هنا في المنطقة، أو من وصية عقبة لأبنائه، أو خطبة موسى بن نصير بالنسبة للنثر، بينما ينطلق البعض الآخر من المساجلات الشعرية التي دارت بين بعض ولاة، وقواد الفتح خلال خصوماتهم، ونزاعهم على السلطة، والتي تلحق بالغرض السياسي، وبالفخر، والحماسة.

وحتى هذا الشعر الذي ينسب إلى المشارقة، والذي عده البعض شعرا جزائريا لا نجده في الحقيقة كثيرا رائجا، شاملا مستوعبا لكل الأحداث، والقضايا التي تعيشها المنطقة، وعن هذه النقطة يستأنس بآراء القائلين ومنهم عبد العزيز نبوي في كتابه محاضرات في الشعر المغربي القديم "... فإذا ذهبنا ننقب عن الشعر المغربي منذ أقدم المراحل التي يفترض فيها وجوده وهي مرحلة الفتوح الإسلامية، لا نعثر على شيء منه الأمر الذي يعلله بعض

الباحثين بأن جل الفاتحين كانوا من عرب اليمن الذين لم يرزقوا ما رزق العدنانيون من أقدار على التعبير الشعري". بينما يرى طرف آخر خلاف ذلك ، إذ ينقص هذا القول بالاعتماد على تشكيلة الجيش الفاتح الذي تكونه مجموعة القبائل العربية كما تقدم في موضوع الفتح – و يلخص– مجمل الأسباب في:

1– ضياع المصادر المغربية المبكرة – تاريخية وغير تاريخية– وهي خير مظان الشعر المقول هناك.

2– بعد الشقة بين المغرب و المراكز الأدبية القوية في العراق و الشام وهي المراكز التي احتفت بالأدب درسا ونقدا وتدوينا.

3– أولوية شعر البلاط لدى كثير من المهتمين بدرس الأدب آنذاك .

4– الضعف النسي لكثير من شعر الفتوح بسبب ملابساته التي تبعث على العجلة وعدم التنقيح، فإن كان المشرق قد أحتفظ بقدر من شعر فتوحه فذلك راجع إلى وفرة المصادر المشرقية التي وصلتنا.

ونضيف إلى هذه الأسباب ما نعتقده مؤثرا في ضياع، أو اختفاء، أو عدم وجود النص الشعري في هذا العهد أسبابا أخرى هي:

1– طبيعة السكان التي لا تسمح لهم بتلقف الشعر باللسان العربي، وتناوله، تداوله، وحفظه، والاهتمام به، لأنهم لا يعرفون العربية، فلا يقدرون على تدوينه، أو روايته، أو حتى حفظه، ولذلك يظل عنصر الضياع المحتمل مبررا تبريرا منطقيا، و معقولا.

2– إن الفاتحين أنفسهم لم يستقروا في المنطقة طوال القرن الأول الهجري، إذ تأكد لنا تاريخيا أن حملات هؤلاء كانت تتسم بالمد والجزر، وأن مكوثهم في المنطقة أول الأمر كان محدودا جدا. وأن فتح المنطقة نفسها لم يتم إلا سنة 84هـ، ثم أعقب الفتح الاتجاه إلى

المغرب الأقصى لتدعيم الدولة الإسلامية هناك تلاها الاتجاه إلى الأندلس سنة 91هـ، وهذا يعني التنقل المتواصل للفاتحين والذي يجعل النص الشعري متنقلا كتنقلهم لأنهم وحدهم من يحفظه، ويرعاه. على اعتبار سكان المنطقة لم يتعلموا العربية بعد. ولم يهضموا الشعر أو غير الشعر بعد.

3- ما يلاحظ – إلى اليوم- على سكان المغرب العربي من عدم احتفائهم بالثقافة الأدبية، ومنها الشعرية خلافا لمواطني المشرق الذين يسري الشعر في عروقهم في مختلف العصور، والأجيال. ولعل ما يرى من الهجرات التي يقوم بها شعراء المنطقة، وأدباؤها- حتى اليوم – إلى بلدان أخرى مشرقية. أو في الأندلس بحثا عن الجو الذي يعطي للقصيدة مكانتها خير دليل على ذلك، إن السمك لا يعيش بدون ماء، وكذلك الشعر و الشعراء لا يمكن أن يعيشا في محيط يرفضها ولهذا لا نستغرب أو لا نندهش إذا وجدناه هذه المنطقة في هذه الفترة فقيرة من الشعر، كما نجدها فقيرة منه إلى اليوم و لعل موقف الشركة الوطنية للنشر والتوزيع التي ترفض في سنة 1985 طبع الدواويين الشعرية خير دليل على ذلك.

هذا هو جواب الشق الأول من السؤال الذي قدمناه، والذي يخص قضية أي شعر، أو أدب نعتبره منطقا للأدب العربي في المغرب، وقد تجلى لنا أن القرن الأول الهجري بالنسبة للمغرب العربي لم يعط أدبا سواء كان للفاتحين أو من أبنائه وأن ما اعتبر من أدب الفاتحين نفسه لا يشفي الغليل، وأنه في ذات الوقت لا يمكن أن نعده أدبا ما

ولكل ذلك نحتاج إلى التفتيش على الأدب المغربي الذي ينجبه أبناء المغرب الذين تعربوا وأسلموا متجاوزين الرأي الذي يعد الأدب المغربي جزءا من الأدب العربي والذي لا نرفضه وإنما نخالف أصحابه فيه لأن ما قاله الفاتحون من شعر، أونثر، يظل مشرقيا كما قدمنا، وأن الأدب المغربي الذي يعد مغربيا مكملا للأدب المشرقي، هو ذاك الذي قاله المغاربة أنفسهم بعد تعريبهم.

وهنا نصل إلى الشق الثاني من السؤال المتقدم معنا فنجد أن هذه القضية من جهتها مختلف في شأنها، فهي وإن تأكد للعموم أن الأدب المغربي بلسان أبناء المغرب لم يظهر إلا في القرن الثاني الهجري، ولم يعم المنطقة بالتحديد أكثر إلا في أوائل منتصف القرن نفسه " الثاني" فإنهم يختلفون كذلك في الشخصية الشعرية الأولى التي كان لها فضل السبق في إبداع القصيدة الشعرية العربية بهذه الديار خلافا للنص النثري الذي يعتقد أن خطبة " طارق بن زياد" كانت منطلقا للتعبير النثري الفني من طرف أبناء المنطقة على الرغم من رد بعض الباحثين نسبتها إلى هذا القائد الجزائري الفذ.

وهكذا نجد مدار الخلاف بالنسبة للشعر قائما حول شخصيتين: شخصية " سابق المطماطي" و شخصية " عبد الرحمن بن زياد القيرواني" حيث ذهب " بونار" إلى اعتبار عبد الرحمن بن زياد الشخصية الشعرية العالمة الأولى التي أعطتها الثقافة العربية للمجتمع المغربي، وأخرجتها مدرسة القيروان وعد أول مولود في الإسلام بالمنطقة. وتوفي سنة 161هـ أما ولادته فقيل أنها كانت سنة 74هـ، أو 75 هـ، ثم تلاه أبو كريب جميل بن كريب في تونس أيضا واشتغل في القضاء وتوفي سنة 139هـ. أما محمد النادي عبد النافع فيرى أن الشخصية التي نبغت في الشعر قبل غيرها بعد الفتح الإسلامي من البربر، إنما هي شخصية سابق البربري التي استطاع صاحبها أن يوجه قصيدة رائعة إلى الخليفة الأموي العادل عمر بن عبد العزيز يعظه فيها والتي منها:

إن الأمور إذا استقبلتها اشتبهت وفي تدبرها التبيان والعبر

والمرء ما عاش في الدنيا له أمل إذا انقضى سفر منها أتى سفر

لها حلاوة عيش غير دائمة وفي العواقب منها المد و الصبر

وليس يزجركم ما توعظون به والبهائم يزجرها الراعي فتنزجر

أصبحتم جزرا للموت يقبضكم كما البهائم في الدنيا لكم جزر

فإذا نظرنا إلى التاريخ الذي عاش فيه " عمر بن عبد العزيز" كخليفة، وكان هذا النص فعلا لهذا الشاعر البربري الأول الذي نطق بالشعر العربي الفصيح، وعددناه من كبار الشعراء كذلك، بيد أن "بونار" نفسه الذي عد "عبد الرحمن بن زياد" كأول شاعر ظهر في المنطقة متمكنا من التعبير الشعري باللغة العربية يستدرك ما ذهب إليه – في هامش ص51– من كتابه ويؤكد ما ذهب إليه محمد النادي عبد النافع، وهذا يعني حصول إجماع لينا بالنسبة لهذه النقطة، وما دمنا لا نملك غير هذه المراجع ليس إلا من البديهي أن نسير في الاتجاه نفسه ونطمئن إلى هذه الحقائق على أنه ينبغي لنا القول بأن الشخصيتين معا،عبد الرحمن وسابق إنما تقيمان في تونس على ما يبدو، وأن تونس على هذا الأساس أو القيروان هي التي كان لها فضل الزيادة في تخريج مثقفين مبدعين باللغة العربية، وإن كان هذا التقسيم في هذا العهد لا يقره العقل ولا تقبله خصائص المجتمع المغربي آنذاك بحكم عدم وجود الحدود بين الأقطار الثلاثة، وبحكم تنقل أهلها تنقلا حرا، مما يعسر بكل تأكيد نسب أي كان إلى موطن مسقط رأسه، ما لم تحفظ لنا ذلك الكتب القديمة، وهذا ما لم يقتد به بعد عند العرب في الفترة التي نتحدث عنها.

وأيا كان الأمر فهذه البداية ستشكل النواة الأولى الحية لظهور أدب عربي مغربي يأتي الجزائر والمغرب الأقصى، كما عرفته تونس، إذ نجد الجزائر تلحق بهذه الحركة الثقافية الواسعة التي عرفتها تونس فتنطلق بها من جهتها الأصوات الأدبية وتتفجر عقول العلماء أو المفكرين في مجالات المعرفة المختلفة، وحقول العلم المتعددة، وعلى الأخص ما يتعلق بالجانب الرسمي الذي كان المحور الأول عندهم والركيزة الأساسية لمختلف الفنون والعلوم، والمعارف وقد بدأت هذه الحركة مسيرتها مع بداية أوائل منتصف القرن الثاني الهجري حيث شرعت طبنة " بريكة" التي حدد بناءها عمر بن قصية 151هـ–154هـ والتي اتخذها قاعدة للجزائر الشرقية في الحركة العلمية والثقافية فنافست بذلك "تيهرت" العاصمة الإباضية، ومدينة القيروان، وبواسطة هاتين الحاضرتين الجزائريتين طبنة و تيهرت أمكن الالتقاء بعلماء

أجلاء في الفقه والحديث والعقائد 168هـ-188 هـ. ووالده عبد الرحمن رستم 144هـ-168هـ والأمير إبراهيم بن علب الذي تولى إمارة القاعدة الشرقية الجزائرية طبنة ثم انتقل إلى افريقية تونس ليعلن استقلال المنطقة كلها عن الدولة العباسية بعد موافقة الخليفة هارون الرشيد على ذلك سنة 184هـ.([1])

[1]) ينظر العربي دحو: مدخل في الدراسة الأدب المغربي القديم، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، (د. ت)، ص 71_65

المحاضرة الأولى: الفتح الإسلامي

1 - مشكل المصادر:

يسود فترة الفتح الإسلامي للمغرب غموض كثير، يرجع إلى أسباب عديدة. وأغلبها يدورحول نوعية المصادر المتوفرة لدينا وطريقة عرض الحوادث. ثم أن تدوين التاريخ، وغيره العلوم، بدأ بعد هذه الفترة بحوالي قرن، مما جعل جامعي الأخبار التاريخية، في القرن الثاني والثالث للهجرة، يعتمدون على روايات شفاهية. ولا شك أن الرواية الشفاهية معرضة المبالغة في التقدير، ولوضع الأخبار لأغراض مذهبية، الأمر الذي سبب تضخم الحديث خصوصا، وقد أدى ذلك إلى قيام حركة نقد الحديث، ابتداء من القرن الثالث الهجري

والجدير بالملاحظة أن التاريخ، في بداية تدوينه، كان يندرج ضمن كتب الحديث يدعى باب المغازي والسير. ولذا فليس من الغريب أن يصيب التاريخ ما أصاب الحديث عامة من وضع وتضخم.

أضف إلى ذلك أن نظرة الناس للتاريخ في فترة نشأة هذا العلم، لم تكن علمية بأتم معنى الكلمة وذلك أن الناس كانوا يولعون بالأخبار العجيبة، التي تثير انتباههم وتسليهم، وتتجاوب مع عواطفهم وميولهم، ولا يتحرجون من خلط التاريخ بالقصص، ومن المبالغة في تقدير أعداد الجنود والأسرى والقتلى وغير ذلك .

نتج عن كل ذلك أن ما روي من الأخبار حول الفتوح يحمل طابعا أسطوريا ينبغي التفطن إلى ما فيه من غلو ومبالغة، واستبعاد كل ما وضع لأغراض مذهبية أو سياسية

2 - المرحلة الاستطلاعية:

لم يمر أكثر من عشر سنوات على وفاة الرسول صلى الله عليه و سلم حتى فتح المسلمون بلاد الشام والعراق ومصر و برقة، وأصبحت الدولة العربية الإسلامية الفتية من أعظم دول العالم آنذاك.

ولم يجد المسلمون أمامهم عدوا أخطر من الإمبراطورية البيزنطية، التي كانت ولا تزال تسيطر على مناطق واسعة من حوض البحر الأبيض المتوسط، من بينها بلاد اسبانيا والمغرب وصقلية وآسيا الصغرى واليونان وغيرها.

وكانت الفتوح الكبرى، التي حققها المسلمون في خلافتي أبي بكر وعمر، تتطلب الالتفات إلى تنظيم شؤون البلاد المفتوحة، وحل المشاكل الناجمة عن الوضع الجديد. فكان من الطبيعي أن يدخل نشاط الفتوح في مرحلة جديدة، تتمثل في الانتقال من عملية التوسع إلى عملية تدعيم السلطة الإسلامية وإرسائها على أسس قوية، واستيعاب حضارات الشعوب المفتوحة، ونشر الإسلام بينها.

وعندئذ اقتصر نشاط المسلمين في مجال الفتوحات، على إرسال غارات استطلاعية في اتجاه الناحية الجنوبية من بلاد افريقية، قصد التعرف على تلك المناطق وعلى سكانها، والإطلاع على قوة الروم فيها.

أ -عبد الله بن سعد:([2])

فكانت أولى هذه الغارات، سنة 27هـ- 647 م، تحت قيادة عبد الله بن سعد بن أبي سرح، أخي الخليفة عثمان بن عفان من الرضاعة، فتصدى لها جيش الروم يقوده البطريق جرجير، وكان اللقاء بين الجيشين قرب سبيطلة، فانتصر المسلمون في هذه المعركة وأصابوا كثيرا من الغنائم، ثم عادوا إلى مراكزهم بمصر، وقد اتضح لهم أن غزو بلاد افريقية أمر

[2]) ينظر ابن أبي دينار، **المؤنس في أخبار إفريقيا و المغرب**، تونس ، 1967، ص231

هين، لضعف جيش الروم بها، نتيجة الأزمات السياسية والمذهبية المستمرة . كما اتضح أن الروم كانوا يعتمدون في مواجهة الجيش الإسلامي على عناصر أجنبية من المرتزقة، وأن البربر لم يساهموا مساهمة فعالة في ذلك.

ب – معاوية بن حديج:([3])

وفي أواخر خلافة عثمان، نظمت عملية أخرى بقيادة معاوية بن حديج الذي غزا افريقية سنة ه34هـ_655م.

ثم كانت الفتنة الكبرى، بعد مقتل عثمان ونشبت الحرب بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان، فركدت حركة الفتوحات، إلى أن تمت البيعة لمعاوية بن أبي سفيان.

وعندئذ استأنف نشاط الفتح، وغزا معاوية بن حديج إفريقية سنة 41هـ– 662 م. ثم قاد غزوة ثالثة، سنة 54هـ–665 م، انتهت بفتح مدينة جلولا.

ثم عين معاوية بن حديج واليا على مصر، واسندت قيادة الجند في جنوب افريقية إلى عقبة بن نافع، وهو ابن خالة عمرو بن العاص.

ج– عقبة بن نافع:

[3]) ا ينظر بن الأثير، **الكامل في التاريخ**، دار الكتاب العربي، 1387هـ، ص122

واصل عقبة بن نافع نفس النشاط بنفس الأسلوب، وأهم عمل قام به هو تأسيس مدينة القيروان، حوالي سنة 50هـ- 670م. وكان من شأن هذا الإنجاز المعماري أن يدعم بالفتح ليزيده فعالية، وأن يسمح للجند بالاستقرار في قاعدة عسكرية تنطلق منها العمليات.

والجدير بالملاحظة أن دولة بنى أمية كانت في تلك الأثناء، تخوض حربا كبرى في جهة أخرى من جهات القتال. وذلك أن الجيش الإسلامي كان يضرب، آنذاك الحصار على القسطنطينية عاصمة البيزنطيين (50هـ-51هـ-670هـ-671 م) . ويبدو أن معظم الجهود كانت موجهة لتدعيم ذلك الحصار، وأن معاوية بن أبي سفيان لم يتمكن من إرسال بعثة هامة إلى افريقية لمساعدة حركة الفتح بها.

وفي سنة 51هـ- 671م، عزل معاوية حديج من ولاية مصر، وعوض هبمسلمة وعزل عقبة بن نافع وعوض هبأبي المهاجر دينار. وقد يكون لذلك علاقة بفشل بحصار القسطنطينية وما تلاه من عقد هدنة بين المسلمين والروم، الأمر الذي اقتضى تعيين قادة جدد لتطبيق سياسة جديدة.

د- أبو الهاجر دينار([4])

كانت السياسة المنتهجة في افريقية، قبل ذلك، من طرف القادة العرب، سياسة الشدة تجاه الروم والبربر على السواء. ولم يكن عقبة أقلهم حماسا وإقبالا على الغزو. بعد أن فشل حصار القسطنطينية وإحراق عدد كبير من قطع أسطول بني أمية أضعف شأن المسلمين في البحر، وجعل الروم يعودون إلى الهجوم في مناطق عديدة. فأصبح معاوية يميل إلى سياسة اللين والمداراة في معاملته للروم. ويبدو إذن أن تعيين أبي المهاجر يقع في إطار هذا الاتجاه الجديد في العلاقات مع الروم.

[4]) ينظر ابن خلكان، **وفيات الاعيان وأبناء الزمان**، القاهرة، 1948، ص 103

والأرجح أن المسلمين التزموا احترام الهدنة مع الروم في آخر عهد معاوية، ثم بعد ذلك إلى عهد يزيد ومروان بن الحكم وقسم من عهد عبد الملك بن مروان فلم يهاجموا.

وعلى كل فإن سياسة أبي المهاجر انتهجت لأول مرة أسلوب المسالمة والتحالف تجاه البربر وخصوصا بربر افريقية، الذين كانوا قد تأثروا منذ قرون عديدة بما جاء به مختلف الغزاة الأجانب من تأثيرات في مجال اللغة والديانات والاقتصاد وغير ذلك، وكانت تربط بينهم وبين الثلاث وثيقة تختلف حسب الظروف، من علاقات سلمية إلى حروب دامية. ولا شك أن الروم في تلك الأثناء كانوا بعدما أصيبوا من هزائم خلال حركة الفتح الإسلامي يحاولون التقرب من أولئك البربر وتحريضهم على محاربة المسلمين ويعدونهم بالرجال والأسلحة والمال.

والظاهر أن معظم قبائل البربر لم تنخدع لهذه الإغراءات والوعود، وأنها لم تنس ما تعرضت له من اضطهاد وتعسف في فترات عديدة من تاريخها. فلم تقاوم الفتح الإسلامي، ولم تتحالف مع الروم لشن الحرب ضد المسلمين إلا في ظروف خاصة ونادرة.

وكان على المسلمين أن يبذلوا كل جهودهم لاستمالة البربر إلى جانبهم، وذلك بأن يضمنوا المساواة في الحقوق والواجبات لمن اعتنق الإسلام، والحماية لمن بقي على دين النصرانية واليهودية والعدل للجميع، حتى يتضح للجميع أن الفتح الإسلامي ليس مجرد غزو لاستبعاد الشعوب وسلب خيراتها، وإنما هو تحرير لها ومساعدتها على استرجاع كرامتها.

وقد أدرك أبو المهاجر ضرورة انتهاج هذه السياسة لتجنب كثير من المتاعب والشدائد، فسلك هذا المسلك، وعامل البربر معاملة حسنة، فاستمال بعضهم، من بينهم كسيلة، رئيس قبيلة أوربة من البرانس، الذي اعتنق الإسلام، ومنح أبا المهاجر ثقته وصداقته.

وقد ذكرت معظم المصادر أن الفتح الإسلامي تقدم تقدما كبيرا على يد أبي المهاجر وأن هذا الأخير وصل بجيشه إلى ناحية تلمسان. وقد سبقت الإشارة إلى ما في أخبار هذه الفترة

من المبالغة وإسراف وهذا الخبر من جملة ما يستبعد صحته، لأن مثل هذه العملية تتطلب إخضاع عدد كبير من القبائل أو اعتناقها للإسلام، ولم ترد تفاصيل في كتب التاريخ، تثبت حصول ذلك فعلا ويبدو أن منطقة نفوذ المسلمين في آخر ولاية أبي المهاجر لم تتجاوز ناحية أوراس.

هذا ولم يهدأ لعقبة بال حتى أقنع يزيد بن معاوية بإعادته إلى افريقية وعزل أبي المهاجر وذلك في سنة 62هـ-681م.

هـ- عقبة بن نافع (ثانيا):

فعاد عقبة إلى افريقية، وهو أشد ما يكون حنقا على أبي المهاجر، وعزم على الانتقام منه. وكان عقبة شديد الرغبة في منصب قيادة الجند، فلما عزل وعوض بأبي المهاجر وهو من الموالي اعتبر ذلك مذلة له، بعدما حققه من انجازات وبذل من مجهودات.

وسرعان ما أمر بتقييد أبي المهاجر وكسيلة بالحديد، وإبقائهما في القيود يصحبهما معه أينما انتقل، كما أنه لم يرتض السياسة التي سلكها أبو المهاجر تجاه البربر، وعاد إلى عمليات الغزو، وإلى أخذ البربر بالشدة والعنف، ونبذ كل ما أقامه أبو المهاجر معهم من علاقات طيبة، مرتكزة على أساس الاحترام المتبادل، والمساواة بين سائر المسلمين في الحقوق والواجبات.

قام عقبة بحركته الشهيرة، قاصدا فتح المناطق الجنوبية من بلاد المغرب، غير مكترث بقلة جنوده وكثرة البربر أهل تلك المناطق، وغير آبه بخطر محاولات الروم المنتظرة لإثارة عداء البربر للعرب، وإشعال نار الحرب بين العنصرين.

هذا وقد تحدث المؤرخون والقصاص عن هذه الحركة الكبرى، فذكروا تفاصيل عديدة وتفننوا في تزيينها بالأخبار العجيبة والحكايات البطولية، التي تدعو إلى دراسة جدية تؤدي إلى

التفرقة بين ما هو تاريخي من الأخبار، وما هو أدبي وأسطوري، لا قيمة له من ناحية التاريخ ولا يعتد به في هذا المجال.

تشير معظم المصادر إلى أن عقبة بدأ حركته بفتح بعض مناطق افريقية، فأذل الروم إلى باغايا والمنستير وغيرهما من المدن والحصون، ثم توجه إلى المغرب الأوسط، ففتح تاهرت ثم توغل في بلاد المغرب الأقصى، فاستولى على طنجة وفتح بلاد السوس الأدنى، بعد أن دوخ مختلف أقطار المغرب، وقاتل من تعرض له من الأهالي وأباد كثيرا عليهم.

وقد أجمع الباحثون على الاعتقاد أن هذه الروايات مبالغ فيها، وأن عقبة لم يحل في هذه المناطق، فشك الكثير منهم اعتماد على رواية ابن عبد الحكم، في وصول عقبة في منطقة طنجة، وكذلك السوس الأقصى، بل ذهب البعض إلى أنه من الصعب الجزم حركة عقبة إلى ما وراء حدود المغرب الأوسط. وعلى كل فالذي لا مجال للشك هو أن عقبة غزا بعض المناطق في الأوراس، والحضنة والزاب، وأنه عند عودته من حركته هذه مر بناحية بسكرة، حيث اصطدام بجموع من البربر والروم، فلقيهم بشجاعة ورغم ق لة من مع هـمن الجند وكثرة المهاجمين له وقتل بموضع يدعى تاهودة، مع كل من كان معه من الجنود (64هـ-683م).

يروى أن كسيلة كان قد فرّ من أسره قبل المعركة، وحشد الجموع من قومه، واستعان بالروم وقاد العملية التي أسفرت عن استشهاد عقبة و رفاقه.

وقد ترتب عن هذه الكارثة نتائج خطيرة، حيث أن كسيلة استولى على القيروان، وامتد نفوذه إلى كل المناطق التي فتحها العرب قبل ذلك بافريقية، وأصبح يترأس دولة محالفة تقوم مقام حاجز بين هؤلاء وبين المسلمين. كما أن الجند الإسلامي تقهقر إلى حدود ، حيث أخذ يجمع قواه من جديد و ينتظر المدد من دمشق.

هكذا، كانت سياسة عقبة، المرتكزة على نظرية إخضاع الأهالي بالقوة والعنف، سياسة فاشلة، أدت إلى ضياع كل ما اكتسبه الفتح الإسلامي منذ ما يقرب من أربعين سنة، كما

أنها كانت تجربة قاسية، أفادت الحكام الأمويين بضرورة تغيير أسلوبهم في الفتح والعودة إلى طريقة أكثر لينا ومرونة.

و- زهير بن قيس البلويّ:([5])

لما حدثت كارثة تاهودة، كان يزيد بن معاوية مشغولا بإخماد ثورة الحجاز، التي قامت عقب مقتل الحسين بكربلاء (61هـ- 680م)، وتوفي وجيشه لا يزال يحاصر مكة المكرمة (64هـ- 683م). ثم كانت الفتنة الصغرى، وثورة عبد الله بن الزبير، فانشغل مروان بن الحكم بالعمل على مواجهة خطرها، واسترجاع المناطق المؤيدة لابن الزبير، وبدأ بمصر لأهمية موقعها في إستراتيجية الصراع بين الخلافة الأموية والإمبراطورية البيزنطية، وكذلك في الصراع الداخلي بين الأمويين والزبيريين وحاول والي مصر الجديد، عبد العزيز بن مروان أن يعالج مشاكل افريقية بما توفر لديه من إمكانيات، فأمر زهير بن قيس بضبط الأمور في برقة وأمدهبما أمكن من الرجال والعتاد للتوجه إلى افريقية.

ثم زحف زهير بن قيس، بما اجتمع لديه من جنود، إلى افريقية، فلقي كسيلة وقومه بقرية ممس قرب القيروان، فقتل كسيلة أثناء المعركة، و انهزم أتباعه (67هـ- 686م)

والظاهر أن زهير بن قيس لم يكن لديه قوات كافية للتصدي لما كان يتوقع حدوثه من هجمات الروم وأحلافهم من الأفارقة والبربر، فرأى من الحكمة بعد أن حقق الانتقام لمقتل عقبة ورفاقه، أن يغادر القيروان ويعود إلى برقة أو مصر. وكانت ثورة عبد الله بن الزبير آنذاك لا تزال قائمة بالحجاز والعراق، فكانت الأوضاع تقتضي التعجيل بالتصدي لها، وإرجاء شؤون افريقية إلى أجل لاحق .

[5]) ينظر البكرى، **كتاب المغرب في ذكر بلاد افريقية و المغرب**، باريس 1965، ص114

وكان خطر الروم لا يزال مخيما على ما بقي تحت سلطة المسلمين من بلاد المغرب. ففي تلك الأثناء قدم أسطول بيزنطي من صقلية، وشن غارة بحرية على برقة فنهب الروم وسبوا.

وحملوا الغنائم والسبي إلى مراكبهم. ويبدو أن خبر هذه الغارة وصل إلى زهير بن قيس وهو على أهبة العودة إلى المشرق، فسلك طريق البحر آملا في إدراك سبي المسلمين، ولحق بالروم قرب دونة، ومعه حوالي سبعين فارسا، فلم يراع كثرة الأعداء، ودفعه حماسه إلى مهاجمتهم، فقتل وكل من كان معه.

وهكذا يتضح أن البيزنطيين كانوا على علم بصعوبة موقف الأمويين بعد وفاة يزيد واغتنموا الفرصة، فأخذوا يغيرون على سواحل مصر وبرقة وغيرها من البلاد التي فتحها المسلمون، قصد استرجاع ما أمكن من ممتلكاتهم السابقة. وقد لعبوا دورا حاسما في حوادث افريقية، وقدموا للبربر المساعدة الفعالة في حادثة ت اهودة، ثم عملوا على حماية افريقية بمهاجمة برقة وصد المسلمين عنها راجين تثبيط عزائم هؤلاء وإبعادهم نهائيا عن المغرب.

ولم يتمكن بنو أمية آنذاك من التصدي لهذا العداء لانشغالهم بثورة ابن الزبير فركنوا إلى مهادنة البيزنطيين ومسالمتهم. ولم يتحقق ذلك إلا سنة 73هـ/ 692م، حيث قتل عبد الله بن الزبير بمكة، وانتهت حركته.

وعندئذ، قرر عبد الملك بن مروان التفرغ لشؤون افريقية والعمل على فتحها وطرد منها، فعين حسان بن النعمان الغسانّي قائدا على الجند الإسلامي الذي عزم على إرساله إليها

3 - فتح المغرب: ([6])

تمتاز المرحلة الاستطلاعية، التي سبق عرضها، بكون نشاط المسلمين فيها عبارة عن عمليات محدودة، سواء من حيث الزمان، أو من حيث المكان، وكذلك فيما يخص أعداد

[6]) ينظر ابن أبي زرع الفاسي، **كتاب الأنيس المغرب بروض القرطاس**، فاس، 1973، ص177.

الجنود المشاركة في كل منها. وكل ما ورد في شأن ذلك مما يوهم مزيدا من الأهمية في هذه الحالات المبالغ فيه وينبغي إعادة النظر في تقديره ا.

وذلك أن الغرض من تلك العمليات لم يكن خلال هذه الفترة كلها، تنظيم حركة قائمة تستهدف فتح بلاد افريقية كلها أو المغرب بأسره وإنما كان ينحصر في إرسال سرايا استكشافية يعهد إليها بالتسرب في المناطق المجاورة للحدود، ومحاولة التمركز فيها لتوسيع رقعة البلاد الإسلامية، والدليل على ذلك أن الجيوش الإسلامية لم تستغل انتصاراتها في سبيطلة وغيرهما بمواصلة الزحف وطرد الروم من افريقية، ولم توجه نشاطا مكثفا ضد الروم أيام ولاية أبي المهاجر وعقبة وزهير بن قيس، لما سبق شرحه من خلال دراسة الأوضاع السياسية العامة للعالم الإسلامي، وتطور صراعه مع الإمبراطورية البيزنطية.

فكان نشاط المسلمين في هذه الفترة كلها عبارة عن حركة مد وجزر، لم تتجاوز بلاد الأوراس والزاب غربا، ولم تتوغل في المناطق الشمالية بافريقية وكل ما أورده المؤرخون القدماء بين امتداد إلى قرطاجة شمالا أو إلى المغرب الأقصى غربا لا يمكن الأخذ به، لما يترتب عنهمن تناقضات وغموض في عرض تاريخ المغرب، ولما تكتسيه تلك الروايات من طابع قصصي وأسطوري يتنافى مع المنهجية العلمية في معالجة التاريخ.

ويتضح أيضا مما سبق ذكره أن المسلمين واجهوا أثناء الفترة الاستطلاعية هذه مقاومة من طرف الروم والأفارقة وحلفائهم من البربر زادت عنفا كلما قويت الفتن الداخلية في الدولة الإسلامية، فلم يتمكن المسلمون من القضاء على تلك المقاومة لضعف إمكانيات جنودهم. وبعد مراكز تموينهم في مصر أو برقة، ولترددهم في انتهاج سياسة واضحة المعالم مع البربر.

هذا وتذكر بعض الروايات أن عناصر من البتر قد اعتنقت الإسلام، وانضمت إلى الجيش الإسلامي، وخصوصا أثناء حركة زهير بن قيس إلى افريقية، مما يسمح بالتفكير في

وجود صراع قديم بين البتر والبرانس واستعداد أحد العنصرين على مساعدة المسلمين لمواجهة العنصر الآخر.

وعلى كل فيبدو أن أنجع سياسة في فتح المغرب كانت تقتضي القضاء على مقاومة الروم وحلفائهم، واستمالة معظم الأهالي من البربر إلى الإسلام، بانتهاج سياسة مرنة تجاههم. وهذه السياسة هي التي سلكها أبو المهاجر قبل ذلك ، وسيسلكها حسان بن النعمان، فيما بعد.

أ -حسان بن النعمان:([7])

لقد عني عبد الملك بن مروان بشؤون افريقية، فعين قائدا ماهرا من أهل الشام هو حسان بن النعمان الغساني، وأرسله على رأس جيش وافر العدد، وطلب من أخيه عبد العزيز بن مروان والي مصر أن يزوده بكل ما يحتاج إليه من عتاد و مؤن ومال.

فقدم حسان إلى افريقية سنة 73هـ-692م، ونزل طرابلس حيث اجتمع إليه كل من غادر بلاد افريقية من المسلمين ومن انضم إليهم من البربر. وواصل سيره نحو الشمال، فاسترجع المناطق التي فتحها المسلمون من قبل. ثم توجه نحو قرطاجة، فحاول الروم أن يصدوه عنها ولكنهم فشلوا في محاولتهم، واضطروا إلى تسليم المدينة صلحا (سنة 75هـ- 694م) . ثم أرسل حسان السرايا لفتح الحصون والمدن الواقعة على الساحل، وتابع إخضاع مناطق افريقية التي كان يوجد فيها الروم والأفارقة والبرانس.

وبعد أن أخضع الكثير من نواحي افريقية، واصل سير هفي اتجاه منطقة الأوراس، وكان اندحار كسيلة وجماعته من البرانس، أثناء حركة زهير بن القيس قد فسح المجال لقبيلة من البتر، تدعى جراوة، فبسطت نفوذها في المنطقة تحت قيادة امرأة تعرف باسم الكاهنة.

[7]) ينظر ابن خلدون ، **كتاب العبر**، دار الكتاب اللبناني، 1939، ص321

إننا نجهل الكثير عن الكاهنة، وقد ذكر البعض أنها كانت على الديانة اليهودية، غير أن ما روي من أن أحد ابنيها كان من أب نصراني يرجح الاعتقاد أنها كانت نصرانية، مع تعلقها برواصب الديانات المحلية القديمة المتمثلة في أعمال السحر والتكهن.

وعلى كل، فإن ذلك يشهد على وجود علاقات وثيقة بين قوم الكاهنة وبعض العناصر التي قاومت الفتح الإسلامي من افرنجة وأفارقة.

ربما كان عجز الروم عن صد المسلمين قد أدى بهذه العناصر إلى تعليق آمالهم على الكاهنة وقومها، وتحريضها على الوقوف في وجه المسلمين والتصدي لهم، مثلما أدى بهم فشل الروم إلى تحريض كسيلة ومساعدته، والاستنجاد بروم القسطنطينية وصقلية.

علمت الكاهنة بتوجه جيش حسان إلى منطقتها، لم تنتظر قدومه، بل بادرت باقتحام مدينة باغايا، وطردت أهلها من الروم ومن لم تثق بهم من الأفارقة وخربت المدينة لئلا يعتصم بها حسان.

ثم واصلت طريقها تجاه الشرق، ولما قربت من وادي مسكيانة التقى جيشها بجيش حسان وكان اللقاء شديدا فانهزم المسلمون، وتراجع حسان ومن معه إلى ما وراء طرابلس من بلاد برقة.

وكان البيزنطيون قد تأثروا كثيرا بسقوط قرطاجة بين أيدي المسلمين فأرسلوا في تلك الأثناء أسطولا قويا تحت رئاسة البطريق يوحنا، فلم يلق أية صعوبة في استرجاع المدينة إذ أن حسان كان قد تراجع بجيشه إلى برقة بعد هزيمته على وادي مسكيانة، فلم يجد الروم قرطاجة حامية لا طاقة لها بمدافعتهم، فاحتلوا المدينة، وعاملوا من كان بها من المسلمين معاملة قاسية (76هـ-695م) ، وهكذا كانت مقاومة الكاهنة لحسان قد أفادت

الروم. إذ مكنتهم من العودة إلى قرطاجة واسترجاع سلطتهم على معظم مناطق افريقية الشمالية.

وعندئذ، أدرك المسلمون أن فتح افريقية كان مرتبطا ارتباطا وثيقا بالصراع الكبير القائم بينها وبين الإمبراطورية البيزنطية، وأن لا راحة لهم، سواء في برقة أم في افريقية أو غيرها من الأقطار المفتوحة، إلا بالتغلب على الروم في البحر، مثلما تغلبوا عليهم في البر، فأمر عبد الملك بن مروان بتدعيم الأسطول الإسلامي، وعهد إليه بالتصدي للأسطول البيزنطي، ثم الحركة الحاسمة بين الأسطولين، وكان النصر للمسلمين، فبسطوا نفوذهم على البحر الأبيض المتوسط.

وكذلك أمر عبد الملك بإرسال المساعدات إلى حسان، الذي كان مستقرا ببرقة استكمل هذا الأخير عدته، أعاد الكرة نحو افريقية، وكانت الأوضاع قد لقيت تغيير ا كبيرا لصالح المسلمين.

بذلك أن الكاهنة كانت قد أمرت أتباعها بإحراق الغابات وإفساد المزارع وتخريب القرى في نواحي افريقية الجنوبية الخاضعة لسلطتها، ظنا منها أن ذلك من شأنه أن يثبط المسلمين ويجعل حدا لرغبتهم في الاستيلاء على افريقية. وكانت تلك الأراضي كثيرة الغابات غنية بحبوبها وأشجار الزيتون وغير ذلك. ولا شك أن سياسة تخريب الزراعة هذه بعثت الرعب والهلع في نفوس الأهالي من البرانس والأفارقة وغيرهم. وجعلتهم ينظرون إلى المسلمين نظرة جديدة ويرغبون في قدومهم لإنقاذ البلاد من الدمار والخراب.

وهكذا، كان استقبال أهالي افريقية الجنوبية لحسان وجنده يختلف تماما عن ذي قبل فأطاعه أهل قابس من الأفارقة وكانوا قبل ذلك يتحصنون من الجند الإسلامي . كما أطاعته قفصة وبلاد الجريد، ودخلت في حمايته. ثم قصد إلى قرطاجة وحاصرها حصارا شديدا، وعندما أراد المسلمون اقتحامها، فاوضهم الروم في تسليم المدينة، ووافقوا على

ذلك، ولكنهم غادروها ليلا، حاملين أموالهم ونفائسهم. ولما دخلها المسلمون لم يجدوا فيها إلا قليلا من سكانها الفقراء والعجزة (سنة 78هـ- 697م) . فأمر حسان بتخريب المدينة لئلا يعود إليها الروم، ووجه عنايته إلى توسيع مدينة تونس وأنشأ بها دار صناعة لبناء السفن.

ثم تابع حسان نشاطه، فتوجه إلى المناطق التي عاث ت فيها أتباع الكاهنة فسادا، ففتحها وكانت الكاهنة قد ضعف شأنها وانفض الناس من حولها، فألحق بها هزائم كبرى، ولقيت حتفها أخيرا في جبال أوراس (أواخر سنة 81هـ/ 700- 82 هـ- 701م) . وكان لأعمالها التخريبية، التي دامت خمس سنوات نتائج وخيمة في المجال الاقتصادي، إذ أنها جعلت من تلك المناطق الخضراء أراضي جرداء لا ينبت فيها شجر ولا تنتج شيئا.

وبهذا تم فتح معظم مناطق افريقية، بصفة نهائية، وانتهت المقاومة التي تعرض لها الفتح الإسلامي في هذه البلاد.

واستقر حسان بعد ذلك بالقيروان، فبذل جهودا كبرى لتنظيم شؤون البلاد، وأقام الدواوين وضرب السكة، وفرض الخراج على أهل الذمة، فانتظمت الأمور وانتشر الأمن بعد أن كانت الفوضى ضاربة أطنابها في كل مكان.

وفي أواخر سنة 85هـ-704م، عزل حسان، فعاد إلى دمشق ونصب مكانه موسى بن نصير.

ب - موسى بن نصير:([8])

كان لحسان بن النعمان الفضل في تحقيق فتح افريقية، وإرساء قواعدها الإدارية والاقتصادية وبعث الطمأنينة بين السكان.

[8]) ينظر ابن عذارى، **البيان المغرب في أخبار المغرب**، مكتبة صادر، بيروت 1950، ص234.

وقد اقتنع الأهالي من مختلف الفئات الاجتماعية، بضرورة احترام النظام الجديد لما تعهد به من حماية أهل الذمة، وضمان كرامة الإنسان، وإقامة العدل، وإقرار المساواة في الحقوق والواجبات بين المسلمين من مختلف الأجناس. وكان حسان قد سوى بين العرب والبربر في الجند يساهمون أيضا في فتح المغرب.

وقد ترتب عن فتح افريقية نتائج هامة جدا في مختلف المجالات ففي المجال السياسي فقد الروم قاعدة هامة من قواعدهم في حوض البحر الأبيض المتوسط، ثم أن انهيار سلطة الروم بافريقية ترك فراغا سياسيا فتح الباب لكل ما كان ساكنا من عداوة وأحقاد قديمة بين مختلف الفئات وقد ذكرت المصادر التاريخية أن الخلاف انتشر بين أهالي افريقية آنذاك.

يبدو أن جانبا كبيرا من هذا الصراع كان يدور حول الأراضي الخصبة التي سكانها العجم منذ عهد الرومان، بعد أن طردوا منها الأهالي الأصليين. والظاهر أن حياة العجم أصبحت مهددة في بوادي افريقية، وأنهم اضطروا إلى الالتجاء في الحصون فقد أشار ابن خلدون أن موسى بن نصير أمر بنقل العجم من الأقاصي إلى الداني لكن هذا الإجراء نتيجة لما تعرض له كبار الملاك من هؤلاء العجم، من خطر هجوم قوات على مزارعهم ونهبهم امتلاكهم لها. كما تشير كثير من المصادر إلى اعتناق بعض قبائل البربر للإسلام، منذ أول الفتح وانضمامها إلى الجيش الإسلامي. والغالب على أن تلك القبائل نالت حظا وافرا من المزارع التي تركها العجم. أضف إلى ذلك أن قبائل أخرى نزعت إلى الغرب فرارا من المسلمين، مما جعل التوزيع السكاني يتغير بصورة المحسوسة في هذه الفترة، وهكذا فإن الفتح الإسلامي لافريقية أحدث تحولات هامة في التاريخ السكاني بالمغرب، وسبب تحركات مختلفة لدى العديد من الفئات، مما أنتج شيئا من الاضطراب في كثير من المناطق.

لما قدم موسى بن نصير إلى افريقية كانت المقاومة قد انتهت في هذه المنطقة. وكانت الأوضاع الاجتماعية قد عرفت تحولا كبيرا، إذ أن معظم قبائل البربر لم تتخذ موقفا عدائيا ضد المسلمين فصالحهم بعضها وأسلم البعض الآخر.

وواصل موسى بن نصير نشاط الفتح في اتجاه المغرب الأوسط، فلم يتعرض لأية مقاومة بل صالحه أهل المدن، راغبين في مسالمته وحمايته. كما أن قبائل البدو قدمت له طاعتها الكثير منهم وخاصة من كانوا على دين الوثنية، فأخذ منهم الرهائن وضمهم إلى الجند، ثم فتح موسى بن نصير المغرب الأقصى، بنفس الطريقة واستولى على عاصمة المنطقة، وترك فيها حامية قوية، تشمل ما اجتمع لديه من رهائن البربر، ثم ع اد إلى افريقية.

هذا وقد أفاضت المصادر التاريخية في ذكر السبي ووفرة الغنائم التي عاد بها موسى بن نصير، وبالغت في تقدير عددها. ولا شك أن ذلك الغلو في التقدير راجع إلى ما سبق من ميل الرواة إلى حشو أحاديثهم بالغرائب والأخبار المثيرة للإعجاب.

لم تأتي سنة 92هـ/ 711م، حتى تم فتح المغربين الأوسط والأقصى، شرع المسلمون في فتح الأندلس، فساهم البربر مساهمة كبرى في ذلك.

المحاضرة الثانية: الدولة الرستمية

توطئة:

تنسب الدولة الرستمية (160- 296 هـ- 776- 909 م) إلى عبد الرحمن بن رستم الفارسي الذي استخلفه أبو الخطاب المعافري على القيروان بعد أن قرر أن يذهب إلى طرابلس ليقف في وجه الحملات التي اعتزم الخليفة العباسي "أبو جعفر المنصور" إرسالها إلى بلاد المغرب لإخماد الثورات الخارجية، فنزل ابن رستم بجبل مقربة من تيارت الحالية لم يكد يسمع الإباضيون هذا الخبر حتى أموا عبد الرحمن فشدوا أزره. [1]

وبعد ذلك خرج ابن رستم إلى أصحابه يطلبون مكانا منيعا يتخذونه كمركز لبث دعوتهم ونشر مبادئهم بتلك النواحي، فكان ذلك بعمالة وهران عند سفح جبل جزول وهو "تيهرت" المعروفة اليوم بتقادمت وكان شروعهم في تشييدها سنة (148 هـ- 775 م) ثم كانت بيعة عبد الرحمن بن رستم بالإمامة فنية سنة (160 هـ - 776 م).[2]

وبذلك تعتبر الدولة الرستمية أول دولة إسلامية تأسست على التراث الجزائري وهي أيضا أول دولة ظهرت بالمغرب العربي مستقلة استقلالا تاما عن الخلافة العباسية .[3]

1- الحياة الثقافية:

ازدهرت هذه الدولة، وقد أصبحت "تيهرت" العاصمة العالمية للمذهب الخارجي يؤمها الخوارج من جميع الأرجاء فأصبحت بذلك مركزا ثقافيا يضاهي بغداد وقرطبة، فعرف إذا الجزائريون الثقافة ونبغوا في مناحيها وخصوصا الثقافة الدينية لأن الأئمة الإباضيين كانوا

---

[1] محمد الطمار، تاريخ الأدب الجزائري، ديوان المطبوعات الجامعية، ط2، 2010، ص 71.
[2] عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج1، دار الأمة، الجزائر، ط 2010 ، ص 224.
[3] عمار عمورة-نبيل دادوة، الجزائر بوابة ما قبل التاريخ 1962 الجزائر عامة، ج1، دار المعرفة، ص 77.

علماء دين ورؤساء مذهب يتطلب من أصحابه أن يكون لهم ثقافة متينة للدفاع عن آرائهم بالحجة الدامغة. [1]

وقد عنى الرستميون بنقل الكتب التي تظهر بالمشرق منبع الحركة الفكرية الإسلامية، وكما كانوا أئمة في السياسة يتدارسون التفسير والحديث والفقه والكلام والأخبار والأشعار والعلوم الرياضية واشتهروا بالتنجيم والرمل. [2]

ولم تكتف الدولة الرستمية بجهود أئمتها وعلمائها فقط بل واصلت الكفاح والجهاد للوصول إلى مكانة مرموقة وعلمية في وسط العالم العربي وذلك باعتنائها بالتربية والتعليم واللغة العربية، إنشاء المدارس والتركيز على الطور الابتدائي أكثر وهو الذي كان الناشئ الأول للتعليم وذلك بفضل وجود المعلمين.

" كان المعلمون في تلك المدارس الابتدائية مثالا للتقوى والورع وحب العلم والحرص على نشره لا يتولى التربية والتعليم في المدارس الابتدائية إلا من استوفى كل الشروط، ومن أول الشروط الإخلاص والصفاء والاستقامة في السلوك والعلم وحبه وقوة الشخصية التي تؤثر في التلميذ". [3]

"كانت العربية هي لسان الدولة الرسمي، يدل على ذلك رسائل الرستميين إلى الأمة البربرية في الحث على الطاعة والتمسك بالدين وعقود ولايتهم لعمالهم بطرابلس وقد أتى الباروني بنصوص ورسائل وعقود وكانت العربية لسان علومهم وآدابهم أيضا". [4]

نستنتج من هذين القولين أن حركة التعليم في الدولة الرستمية نشطت نشاطا لا مثيل له في الحياة الثقافية من جهة ومن جهة أخرى كانت للغة العربية حظا كبيرا في هذه الدولة بالرغم من الخطر الذي تشكله اللهجة البربرية، وهذا كله بفضل تمجيدها لعلمائها وأئمتها.

---

[1] محمد الطمار، تاريخ الأدب الجزائري، ص 73.
[2] مبارك بن محمد الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج2، دار الكتاب العربي،الجزائر، ط 2010 ، ص 550.
[3] محمد علي دبوز، تاريخ المغرب الكبير، ج3، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، ط1، الجزائر، 2013، ص 369.
[4] مبارك بن محمد الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج2، ص 551.

كان المجتمع الرستمي كله بمختلف طبقاته يجل هؤلاء العلماء ويقربهم ويراهم الذروة العالية، وأن العلم قوة دولتهم وحياة دينهم، وكانوا يعتقدون أن التربية والتعليم فرض عليهم من الله للأئمة وواجب حتما والحرص على تعلم الشعب كيف ينشؤون القصائد في الحث على العلم، وقد أنشأ الإمام أفلح بن عبد الوهاب قصيدة " تحرض الطلبة" وكان التلاميذ يحفظونها وينشدونها في المناسبات. [1]

2- الحياة الأدبية:

كان في الدولة الرستمية أدباء وبلغاء، وشعراء منهم بكر بن حماد التاهرتي، والإمام أفلح بن عبد الوهاب، وأحمد بن الفتح بن خراز، وسعد بن أشكل التاهرتي والأديب بن هرمة وغيرهم كثير تجدهم مبثوثين في كتاب (نفخ الطيب)، والكتب المغربية الأخرى التي حفظت لنا شيئا من الدولة الرستمية، ومن لا نعرف من أدباء الدولة الرستمية وشعرائها أكثر ممن نعرف لقضاء العبيدين على تراثها الأدبي ومطاردتها لعلماء الدولة الرستمية وأدبائها، فاضطر كثير منهم إلى تغيير أسماء الأشخاص والبلدان الرستمية في قصائدهم واستبدالها بغيرها من العبيدين. [2]

كما كانت الدولة الرستمية دولة العلم، بحيث نجد علماؤها أكثر من أدبائها لأن الأدب في هذا العصر كان ضعيفا ولم يكن في درجة الدول العربية الشرقية التي عاصرتها في الأدب. [3]

أما نجد جيل من الأدباء الجزائريين الحقيقين، عالجوا الشعر وأحسنوا معالجته، ولكن ظل يتسم بسمات المدرسة الشرقية المحافظة، وأساليب هذا الشعر متينة بحيث لا نجد فيه اختلافا من حيث الصناعة عما يعرف من شعر المشارقة على ذلك العهد، وأما الإنشاء فهو

---

[1] محمد على دبوز، تاريخ المغرب الكبير، ج3، ص 371 .
[2] المرجع نفسه، ص 393 .
[3] ينظر: محمد علي دبوز، تاريخ المغرب الكبير،ج3، ص394.

مرسل مطبوع لا يلتزم فيه سجع ولا يتكلف فيه توشية، ونلمس فيما ظهر من البوادر الأولى للأدب الجزائري شخصية تتمثل في رجال نقتصر على ذكر أشهرهم صيتا عند أهل العلم. (5)

أ) الشعر:

إن أول ما نلاحظه أن هذا الشعر حتما ضاع معظمه في الفتن، فاحترق حين أحرق الشيعة مكتبة تيهرت العظيمة، أو وقع تحت وطأة النسيان بفعل تغير إيديولوجيا ت الدولة الجزائرية، وخصوصا التحول الذي وقع من الإباضية إلى العبيدية. (6)

إن ما بقي من الشعر الجزائري القديم من وجهة وما استطعنا نحن في حدود ما وصل إليه من جهد بحثنا العثور عليه إلى يومنا هذا من وجهة أخرى يدل على شاعرية لا يمكن أن تنكر، ولكنها كانت تفتقر إلى جو مخصب يبلوها ويفتق مكامنها، وتفجر طواياها، وربما اتسم هذا الشعر بشيء من الإبداعية الغالبة التي كانت تتخذلها، المشرق العربي قدوة تقتدي بها، ومنوالا تنسج عليه. (7)

ومن هنا نجد بكر بن حماد التاهرتي الشاعر المحدث الذي ولد بمدينة تيهرت حوالي عام (200هـ – 815م) ونشأ بها شغوفا بحب العلم والمعرفة والفكر والأدب فجلس إلى علماء عصره وأدبائه للتزود بعلومهم ومعارفهم، وعاد إلى القيروان ولكنه تعرض لمضايقة أميرها زيادة الله الثالث، واضطر أن يعود إلى مسقط رأسه بتيهرت عام (295 هـ – 907م) صحبة إبنه عبد الرحمن، وفي الطريق إليها هاجمهما اللصوص وجرحوا بكرا وقتلوا ابنه فرثاه بالمقطوعة الشعرية التالية:

---

(1) محمد الطمار، تاريخ الأدب الجزائري، ص 74 .
(2) عبد المالك مرتاض، الأدب الجزائري القديم، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ط 2005، ص 58.
(3) المرجع نفسه، ص 59 .

بكيت على الأحبة إذا تولــوا ولو أني هلكت بكوا عليـــا
فيا نسلي بقاؤك كان ذخــرا وفقدك قد كوى الأكباد كيـــا
كفى حزنا بأني منك خلــوا وأنك ميت وبقيت حــيا
ولم أك آيسا فيئست لمـــا رميت الترب فوقك من يديـــا
فليت الخلق إذا خلقوا أطاعـوا وليتك لم تكن يا بكر شيـــا

تسر بأشهر تمضي سراعــا وتطوي في ليالهن طيـــا
فلا تفرح بدنيا ليس تبــقى ولا تأسف عليها يا بنيـــا
فقد قطع البقاءَ غُروب شمــس ومطلعها علي يا أخيـــا[8]

اشتهر بكر بن حماد بالزهديات والوعظيات وهي صفة مكملة لرواية الحديث وحفظه ومدارسته، فكان من النشاز في الشخصية أن يقول في باب الزهد شعرا وفي باب الغزل شعرا مثله، لكن ذلك لم يحظر عليه أن يقول بعض الشعر الغزلي الرقيق عرضا، فيبرع فيه، ولعل من أجمل وأرق ما وصلنا من ذلك قوله في مطلع مقطوعة إعتذارية:

ومؤنسة لي بالعراق تركتها وغصن شبابي في الغصون نضير

فقالت، كما قال النواسي قبلها عسير علينا أن نراك تسير

فقال مثل هذين البيتين لا ينبغي له أن يكون لو شاء إلا غزلا رقيقا ومشببا لطيفا.[9]

وكذلك قال شعرا في آخر عهد الدولة الرستمية يقول فيها:

زرنا منازل قوم لم يزرونا إن لفي غفلة مما يقاسونــا

لو ينطقون لقالوا لزاد ويحكم حل الرحيل فما يرجو المقيمونا

الموت أجحف بالدنيا فخربها وفعلنا فعل قوم يموتونــا. [10]

---

(1) عبد المالك مرتاض، الأدب الجزائري القديم، ص 66 .
(2) يحي بوعزيز، الموجز في تاريخ الجزائر، ج1، ديوان المطبوعات الجامعية، ط2، 2009، ص 122.
(3) عثمان سعدي، الجزائر في التاريخ، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع ،ط 1، الجزائر، 2011 ،ص 246 .

كان أحمد بن فتح التاهرتي أديبا وشاعرا، انتقل إلى المغرب الأقصى ومدح عم " ابراهيم" صاحب "البصرة المغربية"، أبا العيش عيسى بن إبراهيم بن القاسم بن إدريس، بقصيدة يقول في وصف نساء البصرة اللائي اختصصن بالجمال الفائق والحسن الرائق:

ما حاز كل الحسن إلا قينة بصرية في حمرة وبيـاض

الخمر في لحظاتها والورد في وجناتها والكشح غير مفاض

في شكل مرجي ونسك مهاجر وعفاف سني وسمت إباض[1]

ترك الإمام أفلح بن عبد الوهاب شعرا ونثرا يدل على علو كعبه في الأدب وأوردت لنا كتب التاريخ من أنباء علمه ما يدل على درجته الرفيعة في العلم ونظم ديوانا كبيرا في الشعر، وترك كذلك من خطبه ورسائله الشيء الكثير فقضى عليه العبيديون لما حرقوا مكتبة تيهرت. [2]

وإن الأئمة الرستميون كانوا مثالا في الغرام بالعلم والحرص على تعلم الشعب كله، بحيث يلقون الخطب والدروس، وينشئون القصائد في الحث على العلم وبيان فضله، وأحسن الطرق التي تضمن النبوغ فيه، ونيل المراد منه وقد أنشأ الإمام أفلح بن عبد الوهاب قصيدة والتي تكنى : (تحريض الطلبة):

العلم أبقى لأهل العلم آثاراً يريك أشخاصهم رَوحا وأبكـارا

حيٌ وإن مات ذو علم وذو وَرَعِ ما مات عبدٌ قضى من ذاك أطوارا

---

[1] محمد الطمار، تاريخ الأدب الجزائري، ص76.
[2] محمد علي دبوز، تاريخ المغرب الكبير، ج3، ص 375.

وذو حياة على جهل ومنقصةٍ كميت قد ثوى في الرمس أعصارا

لله عصبة أهل العلم إن لهم فضلاً على الناس غيابا وحضارا

العلم علمٌ كفى بالعلم مكرمةً والجهل جهلٌ كفى بالجهل إدبارا

العلم عند اسمه أكرم به شرفاً والجهل عند اسمه أعظم به عارا.[3]

إن هذه الأبيات التي ينشدها أفلح بن عبد الوهاب تحثنا على فضل العلم عند الدولة الرستمية، وبيان منزلة العلماء الرفيعة عندها .

ب) النثر الفني:

قد أطلق النقاد العرب القدامى بأن مصطلح النثر هو الكلام الذي يتفوه به الخطيب في المواقف المشهودة، والمترسل على كتابة الطوامير، دون أن يكون أي منهما خاضعا لقيود الوزن والقافية، ولعل ذلك أنهم يكونوا أخذوه من معنى الدر المنثور الذي لا يتم الارتقاء به، إلا إذا انتظمه عقد، ولا يقع إلا للتلذذ به والتمتع بجماله إلا إذا وضع في الموضع المهيأ له جسم المرأة وهو جيدها،ومن الواضح أن تعليل أفضلية الشعر على النثر كما يسوقه ابن رشيق غير مقنع، ذلك بأن قيمة الدّر تظل هي من حيث القيمة المادية والقيمة الجمالية وإنما استمدت من القيمة المادية أساسا.

وحين نجيء إلى الحديث عن النثر الأدبي على عهد الدولة الرستمية في الجزائر وهو العهد الذي يمتد تقريبا من منتصف القرن الثاني إلى نهاية القرن الثالث للهجرة (160 هـ – 296 هـ) ونلاحظ أن الدور الأدبي لهذا النثر لم يك في شيء ثانويا، بل إننا نرى أنه أسهم

[3] المرجع نفسه، ص 375.

بشيء من الفعالية والحركية في تأسيس الدولة الرستمية وتطور نظامها والتمكين لإتساعها وتخليد معالم حضارتها.[11]

إن تاريخ الأدب يظهر لنا أن ملحمة هوميروس قد ظهرت في فلسفة أفلاطون وإن النثر الفني أو العلمي يحتاج إلى فكر وثقافة وهما لا يتوافران إلى في الحضارة أو التقدم الإنساني، ومع تطور الحياة وارتقاء الأمم العقلي وتغير نظمها العقلية والسياسية والاجتماعية واتصالها بغيرها من الشعوب، نشأ عن ذلك أن وجدت فيها أفكار وآراء لم توجد من قبل، واحتاجت أن تنظم هذه الأفكار والآراء، وأن تطورها وتعلنها فعجز الشعر عن القيام بذلك فعبر عنها النثر.[12]

ولكن الذي يعنينا في هذا كله إنما هو الرسائل والخطب، فلنتوقف لدى هذه الأشكال الأدبية لإمكان إلقاء شيء من الضياء على الخصائص المميزة لكل منهم.[13]

ج) الخطابة:

إذا كان العرب قد برعوا في قول الشعر، وأبدعوا فيه بحيث صار عنوان أمتهم ودستور حياتهم، ودليل بلاغتهم فإنهم ارتفعوا منزلة عالية بما كان عندهم من خطابة، وقد كثرت فيهم وزاد من كثرتها ما كان بينهم من خصام وتشاجر وقتال في أغلب الأحيان، فهذا الصراع المر بينهم أدى إلى ازدهار الخطابة وعلو شأنها وبراعة بيانها، فقد كانوا يفزعون إلى خطبائهم في الملمات وخضم الغارات، يفدون على الملوك والأمراء بخطبائهم الذين ضربوا بسهم وافر في البلاغة وحسن البيان، فكانوا سفراء قومهم وألسنتهم المعبرة الفصيحة،

---

(1) عبد المالك مرتاض، الأدب الجزائري القديم، ص 81 .
(2) عمر عروة، النثر الفني القديم أبرز فنونه وأعلامه، دار القصبة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2012، ص 10.
(3) عبد المالك مرتاض، الأدب الجزائري القديم، ص 83.

فما من معركة دارت رحاها بين العرب وغيرهم أو بينهم وبين بعضهم إلا وظهر في غبارها كثير من الخطب التي تمجد الصلح، وترثي القتلى، أو تدعو إلى الأخذ بالثأر.[14]

ولكن الخطابة التي نتحدث عنها هنا ونتصورها بوضعها في إطارها الزماني والمكاني نفترض أنها ربما اصطنعت اللغة المبسطة، بل ربما استعملت بعض اللهجة البربرية في غير خطب الجمعة، كما نفترض للتبليغ أولا ثم آخرا، ومن خلال هذا نذكر بعض أسماء خطباء هذا العصر من أشهرهم أفلح بن عبد الوهاب وأحمد التيه. [15]

وظهرت أهمية الخطابة أيضا فيما كان يقع بينهم من مفاخرات ومنافرات استدعتها حالتهم الاجتماعية الصحراوية، حيث كان الافتخار بالأصول والتباهي بالأمجاد والأحساب والعدة والعتاد.

واتجه بعض الخطباء في هذا العصر إلى التحذير والتذكير والخوف من الله الجبار خالق السموات والأرض، والتفكر في ملكوت الله العظيم، والعمل للآخرة والنظر في أحوال الحياة وأنها فانية فناء الإنسان.

د) الترسل:

يندرج فن الترسل ضمن دائرة التعبير عن الذات، وتبليغ ما في النفس الباطنة إلى متلق غير حاضر إلا في الذهن، ولعل الرسالة التي جاء منها الترسل " أن تكون مأخوذة من إرسال الشيء بمعنى نشره أو بثه أو تبليغه أو اظهاره ضمن حيز معلوم"، فكانت الرسالة من هذه الوجهة اللغوية الخالصة إرسال لمخبآت النفس وهواجسها خارج مدى الصوت المرسل أو اللفظ المديح.[16]

---

(1) عبد الرحمن عبد الحميد علي، تاريخ الأدب في العصر الجاهلي، دار الكتاب الحديث، القاهرة، الكويت، الجزائر، 2008 ، ص 205 .

(2) عبد المالك مرتاض، الأدب الجزائري القديم، ص 85 .

(1) عبد المالك مرتاض، الأدب الجزائري القديم، ص 93 .

وقد برع في هذا الفن كتاب في الأدب العربي بفضلهم تم وضع الأصول الكبرى لهذا الجنس لعل من أشهرهم عبد الحميد الكاتب، وعبد الله بن المقفع ومحمد بن محرز الوهراني وابن الخطيب وابن شرف القيرواني وغيرهم...

فالرسالة التي نتحدث عنها ينهض الاعتبار فيها على تحديد المستوى الثقافي والطبيعة المذهبية للمرسل إليهم أو المتلقين، والمتلقون هنا تجسدهم الرغبة في عهد الرستميين طورا وولاة هذه الإمارة وقادتها طورا آخر، ولقد جمع لنا الباروني أطرافا صالحة من هذه النصوص الرسائلية التي تنتمي في معظمها إلى أميرين اثنين هما أفلح بن عبد الوهاب ويستأثر بأربع رسائل وابنه محمد بن أفلح الذي يستبد برسالة واحدة.

إذن خمسة نصوص تتوزع على زهاء ثلاث عشرة صفحة من القطع المتوسط كنا رأينا أن أربعا من هذه الرسائل يعدن إلى أفلح بن عبد الوهاب مما يجعلنا نقتنع بأن هذا الإمام كان عالما وأديبا على احترافه السياسة، فكان صاحب عقل وقلم ولسان.[17]

3- الحياة العلمية:

نشأت الدولة الرستمية في بداية تاريخ المسلمين العلمي بما كان من إقبال المنصور العباسي فمن بعده على تجهيز المسلمين بالعلوم والمعارف بعد ما قضوا لبانتهم من الآداب العربية، وقد عني الرستميون بنقل الكتب التي تظهر بالمشرق منبع الحركة الفكرية الإسلامية، ولكن عنايتهم بالعلوم الدينية أشد، فكانوا أئمة في العلم كما كانوا أئمة في السياسة، يتدارسون التفسير والحديث والفقه والكلام والأخبار والأشعار والعلوم الرياضية.[18]

---

[2] المرجع نفسه، ص 94 .

[3] مبارك بن محمد الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج2، ص 544 .

وزخرت مدنها وقراها بهم فمن علمائها الشيخ مهدي النفوسي، ومحمد بن يانس وأبو الحسن الأبدلاني، وعمروس بن فتح، وبنت الإمام عبد الوهاب العالمة النابغة، ونساء كثيرات أخر، ذكر الشماخي منهن الكثير ومن علمائها في جناحها الغربي محكم الهوارى، وابنه الشيخ هود بن محكم، وكان في جبال أوراس التابع للدولة الرستمية، وأبو عبد الله محمد ابن عبد الله قاضي الإمام أبي اليقظان، وعبد الله بن اللمطي، ومحمود بن بكر و زكريا بن بكر الغسالي، وإبراهيم بن عبد الرحمن التنسي وأبو سهل الفارسيّ، ومنهم أبو يعقوب يوسف بن سيلوس السدراتي وصى ابنه فأحسن في الوصية وأجمل في التعبير قال له: « لا يكن ندبك الناس إلى الخير أوكد من ندبك لنفسك، ولا يكن غيرك أسبق إلى الخير منك، وكن للناس كالميزان، وكالسيل الأدران، وكالسماء للماء ! »

وأي إنسان لا ينتفع بهذه الوصية التي تحثنا على الصدق في الحكم على الناس فنكون لهم الميزان الصحيح، ونكون لهم بالوعظ الذي ينتقيهم ويطهرهم كالسيل للأدران وفي الخير الذي يغمرهم كالسماء التي تنهمر بالماء.[19]

المحاضرة الثالثة: أعلام الدولة الرستمية:

ومن العلماء غير الإباضيين الذين أنجبتهم تاهرت أو عاشوا بها نذكر منهم:

1- زكريا بن بكر بن أحمد الغسالي الملقب بابن الأشج، ولد بتاهرت عام (310 هـ /922- 923 م) وتوفي عام (393 هـ /1002- 1003 م) وقيل بقرطبة.

2- عبد الله بن حمود بن هلوب بن داوود بن سليمان المكنى بأبي محمد طنجي التاهرتي.

3- أبو الطيب محمد بن أبي بردة الشافعي (ق 4هـ) هاجر مدة إلى الأندلس ثم عاد إلى تاهرت.

---

[1] محمد علي دبوز، تاريخ المغرب الكبير، ج3، ص 392.

4- محمد بن عيسى بن حنين التميمي التاهرتي نزيل فاس ثم سبتة ويدعى ابن الدقاق.

5- عبد الله بن محمد بن حسين التميمي التاهرتي نزيل سبتة كذلك.

6- الحسن بن علي بن طريف التاهرتي النحوي نزيل سبتة كذلك، ومن تلاميذه القاضي عياض السبتي صاحب كتاب الشفاء.

7- قاسم بن عبد الرحمن التاهرتي تلميذه بكر بن حماد التاهرتي.

8- ابنه أبو الفضل أحمد بن قاسم التاهرتي البزار.

9- سعد ابن أشكل التهارتي الذي هجا مدينة تنس شعرا.

10- أبو محمد عبد الله بن منصور التاهرتي.

11- أبو الربيع سليمان بن زرقون النفوسي.[20]

4- الأئمة الرستميون:

كان معظم أئمة الدولة الرستمية علماء وأدباء وشعراء يهتمون بالعلم وقضايا الفكر والثقافة ويجلون العلماء والفقهاء والشعراء، ويتخذون منهم مستشارين لهم، ويقربونهم ويسندون إليهم مناصب الوزراء والقضاة، وحكام الأقاليم ويعتقدون معهم مناظرات ومحاورات علمية فكرية وأخلاقية وتنظيرية، ويهتمون بجمع الكتب ونسخها واستجلادها من كل مكان حتى من أقصى المشرق[21]، نذكر أشهرهم:

- خلافة أفلح بن عبد الوهاب(188- 238 هـ/ 803- 852 م)

[1] يحي بوعزيز، الموجز في تاريخ الجزائر، ج1، ص 120 .
[2] المرجع نفسه ، ص 129 .

كان مرشح للإمامة حياة والده فبويع بها بعد وفاته وكان داهية استطاع أن يحافظ على هناء تيهرت مدة إمامته قال ابن الصغير:" وعمر في إمارته ما لم يعمره أحد ممن كان قبله، أقام خمسين عاما أميرا حتى نشأ له البنون وبنو البنين وشمخ في ملكه"[22]

- خلافة الإمام أبي بكر بن أفلح:

كان أبو بكر ضعيف الشخصية، وكان المؤهل للخلافة هو وأخوه الأكبر أبو اليقظان الذي سجنه العباسيون وهو متجه إلى الحج في سجن بغداد، وكانت الصدف الحسنة أن رافق في السجن المتوكل الذي سجنه أخوه الخليفة العباسي الواثق، وتكونت صداقة بين المتوكل أبو اليقظان، وعندما صار المتوكل خليفة للعباسيين أطلق سراح أبا اليقظان وساعده على الوصول إلى تاهرت وانغمس أبو بكر في اللهو ولم تدم خلافته سوى أشهر مرت كلها فتن وصراعات بين أبي بكر وأحد معاونيه اسمه ابن عرفة الذي دبر له أبو بكر عملية اغتيال فما إن عاد أبو يقظان حتى سلم له أبو بكر زمام الإمامة.[23]

- خلافة الإمام يعقوب بن أفلح:

بويع وهو بأرض زواغة غربي طرابلس، فأسرع من حينه إلى العاصمة تيهرت فقاتل بها أبا حاتم، ودامت الحال مدة أربع سنوات إلى أن سعى ذوو الوجاهة والفضل في الصلح بين الطرفين، فانتشر السلم بالمملكة مدة أربعة أشهر، وفي أثنائها عمل أبو حاتم على استمالة القلوب إليه واكتساب مودة القوم فمالت إليه الرعية، وانقلبت على عمه يعقوب فخلعته، فذهب حينئذ إلى حيث كان بجهات طرابلس، وطال به أجله إلى أن شاهد سقوط تيهرت بيد الشيعة العبيدين فارتحل أثرها إلى بني واجلان وارقلة، وهناك عرضت عليه البيعة فأبى لما علمه

---

[3] مبارك بن محمد الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج2، ص 545 .

[1] عثمان سعدي، الجزائر في التاريخ، ص 233 .

من ضعف الرستميين أمام الشيعة، وقال يومئذ كلمته المشهورة التي أرسلها مثلا:" لا يستتر الجمل بالغنم... ومات هناك".[24]

- خلافة أبو اليقظان محمد بن أفلح(241- 281 هـ / 855- 894 م)

حج أيام والده، وقبض عليه العباسيون، فسجنه الواثق مع أخيه المتوكل فلما توفي الواثق فخرج المتوكل إلى قصر الخلافة سرح أبا اليقظان وأحسن إليه، فعاد إلى تيهرت، وقد اكتسبت حيرة بشؤون الملك، فلما أخرج أبو بكر من المدينة خرج هو أيضا ونزل بحض لوته، وهناك بويع حوالي سنة 241 وزحف إلى تيهرت فامتنعت عليه سبع سنين، ثم دخلها، وعفا عن الثوار، واحيا رسوم الدولة، وكان يباشر التدريس بنفسه، وتوفي بإتفاق سنة (281).[25]

- خلافة الإمام اليقظان بن أبي اليقظان ونهاية الرستميين:

بويع اليقظان في جو مضطرب، فقد اتهمه شيوخ تاهرت بقتل أخيه الإمام أبي حاتم كما لاحت قوة الشيعة الإسماعيلية تقترب من حدود الدولة الرستمية، فقد استطاع أبو عبد الله الشيعي احتلال الزاب، والتغلب على دولة الأغالبة ودخل رقادة سنة 296 هـ، وفي نفس السنة دخل تاهرت دون مقاومة وقتل الإمام يقضان وكبار دولته، وأرسل رؤوسهم إلى أخيه أبي العباس برقادة وقصد مكتبة تاهرت فأمر بحرق كل الكتب المتعلقة بالمذهب الإباضي، ولجأ الكثير من أتباع الدولة الرستمية إلى جبل الأوراس هروبا بمذهبهم، كما هربوا إلى واحة ورجلان وأقاموا هناك حتى قيام الدولة المرابطية فقصدوا وادي ميزاب واستقروا به ولازالوا حتى الآن.[26]

---

(2) عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج1، ص 233 .
(3) مبارك بن محمد الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج2، ص 544 .

(1) عثمان سعدي، الجزائر في التاريخ، ص 235 .

5- نبذة عن حياة الإمام أفلح بن عبد الوهاب:

هو أبو سعيد ميمون الأفلح أطول أئمة هذه الدولة مدة في الملك، فإنه بويع أثر وفاة والده عبد الوهاب سنة (190- 805 م) إلى أن توفي سنة(240هـ- 854م) أي مدة خمسين سنة، وكان يسلم عليه بالخلافة كما ذكره ابن الفقيه الهمذاني وكانت أيامه كلها أيام رغد ويسر، وهو أحد أفذاذ أئمة الدولة البارزين والعلماء العارفين ذا أدب جم، وإطلاع واسع، وشعر رقيق ومتانة في الدين، كانت له مواقف حاسمة رد بها على ثوار جبل نفوسة و هو تارة يسلك معهم مسلك اللين واللطف، وتارة يأخذهم بالشدة والعنف وكان الانتصار حليفه دائما.[27]

كان الإمام عبد الوهاب كأبيه عبد الرحمن في قوة الشخصية، وفي العلم والذكاء والورع والتقوى، وفي الحزم والدهاء، وفي الطموح وحب الكمال، والغرام بالمعالي ولقد ورث الإمام عبد الوهاب كل خصائص أبيه الحسنة وورث من أمه أيضا، ما ضاعف تلك الخصائص وقواها في نفسه، فكان تلك الشخصية العظيمة التي تسنمت بها الدولة الرستمية ذروة الشباب، وكانت أمه بربرية من بني يفرن من زناتة وبنو يفرن قبيلة من شعب زناتة متصفون بالشجاعة الخارقة وبالعزة والإباء وبالاعتداد بالنفس، وكان أفلح جميل الصورة، قد اجتمع فيه جمال أبيه الفارسي والجمال البربري البارع، فكان بهما على صورة رائعة زادت في شخصيته ونباهته ولفتت إليه العيون.[28]

وكل هذه تفرض أن تكون أم عبد الوهاب جميلة، وشجرة ورد تجللها حلالها الفتانة من زهورها، وتتجب لنا الورود الرائعة، والسلالة البهية، وقد نشأ الإمام أفلح بن عبد الوهاب في حجر أبيه وأورثه النزاهة والاستقامة والتمسك بالدين وكل خصائصه الكريمة، وكان مغرما

---

(2) عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج1، ص 230 .
(3) محمد علي دبوز، تاريخ المغرب الكبير، ج3، ص 459 .

بالعلم كأبيه متلهفا إلى المعرفة مثله لا يسكن قومه إليها، ولا يفتر حبه للعلم والعرفان، وقد تلقى علومه الابتدائية والثانوية من أبيه ثم أقبل على خزانة كتب والده وعلى خزائن أهل عصره التي يصل إليها، وقد استطاع أن يحل المشاكل الكبرى، ويخمد الثورات التي أشعلها العباسيون والملكيون الآخرون بصنائعهم في تيهرت، فلولا براعة السياسة وذكاؤه الذي مكنه من القضاء على مؤامرات العباسيين وغيرهم وشجاعته وحزمه والتفات الدولة حوله.[29]

إن أفلح بن عبد الوهاب لما فقد ولده أبا اليقظان، وعلم أنه رفع إلى بغداد اشتد حزنه عليه وطال غمه به، فلم يزل مهموما محزونا إلى أن وافته منيته وابنه محبوس ببغداد، واجتمعت الإباضية فلم يصيبوا في أولاد أفلح إذ فقدوا أبا اليقظان أرجح عندهم من ولده أبي بكر.[30]

وقد ذكر لنا المؤرخون بجانب اسم الإمام أفلح اسم شاعرة وهي زيدبت الملوشية التي عاشت في نهاية القرن الثالث الهجري التاسع الميلادي. وقد ذكرها الشماخي.

أما **بكر بن حماد** فيعتبر أكبر شاعر في عصر الرستمين. ترجمة بكر بن حماد التاهرتي (200هـ-296هـ-815م- 908م) هو أبو عبد الرحمن بكر بن حماد بن سمك بن إسماعيل الزناتي ولد ونشأ في تاهرت وتعلم فيها. ثم رحل إلى القيروان لمواصلة تكوينه في الأدب والشعر والفقه والحديث وأصول الدين. سمع من سحنون بن سعيد القيرواني صاحب المدونة (160هـ- 240هـ-777م- 854م) ومن عون بن يوسف الخزاعي.

---

(1) المرجع السابق، ص 461 .

(2) ابن الصغير، أخبار الأئمة الرستميين، تح محمد ناصر-ابراهيم بحاز، دار الغرب الإسلامي، ط1 ، بيروت، لبنان، 1986، ص 69 .

روى المالكي قال: قال بكر بن حماد: " لما فرغت من قراءة كتبي علي عون– وهي كتب ابن وهب– قلت له: يا أبا محمد كيف كان سماعك من ابن وهب؟ قال: ما أخذت كتبه منه إلا قراءة. "

ثم رحل إلى البصرة سنة سبع عشرة ومائتين، فأخذ الحديث فيها عن مسدد بن مسرهد المحدث (228هـ–842م– 843م) وعن الحافظ عمر بن مرزوق (224هـ– 238هـ– 839م) وجماعة من العلماء وأخذ فنون الأدب و الشعر وعلوم العربية عن ابن الأعرابي (150هـ– 231هـ767م– 845م). وعن الرياشي العباس بن الفرج بن علي (177هـ– 257هـ–793م– 871م). وعن أبي حاتم السجستاني البصري المتوفي سنة 248هـ– 862م وغيرهم. ولقي من الشعراء في ذلك الوقت دعبل بن علي الخزاعي (148هـ– 246هـ– 765م– 860م) و حبيب بن أوس أبا تمام الطائي (188هـ– 231هـ– 804م– 846م) وعلي بن الجهم (ت 249 هـ–863م)، وشعراء آخرين .

وقد ذكر أكثر الدراسيين لترجمة بكر بن حماد أنه لقي في المشرق طائفة من الشعراء. منهم مسلم بن الوليد (ت 208هـ– 823م). والحقيقة أنه لم يلقه قط لأنه رحل إلى المشرق بعد وفاة صريع الغواني بتسع سنين يقول أحمد المقرى التلمساني في النفح أن قاسم بن أصبغ (247هـ– 340هـ– 862م– 851م) البياني القرطبي محدث الأندلس سمع بالقيروان من أحمد ابن يزيد المعلم ومن بكر بن حماد. وأن أبا عبد الله محمد بن صالح القحطاني المعافرى الأندلسي المالكي (ت 283هـ–993م) سمع بالمغرب من بكر بن حماد ومحمد بن وضاح وقاسم ابن أصبغ.

وقد ورد في كتاب المعالم أن بكر بن حماد كان ثقة عالما بالحديث ورجاله شاعرا فصيحا وورد فيه أيضا أنه كان فقيها فاضلا جليلا ثقة مأمونا ثبتا صدوقا إماما حافظا وشاعرا مفلقا. ترجم أبو بكر الملكي لبكر بن حماد وأورد له كثير من الشعر في رثاء ابنه وفي الزهد وقال: سعي به إلى إبراهيم بن أحمد الأمير. فخرج هاربا من القيروان يريد

تاهرت بلده. فلما صار ببساطة خرج عليه قطاع الطريق، فقتل ولده عبد الرحمن وجرح هو جرادات، فما زال في بطنه نتق منها إلى أن مات سنة (296هـ - 908م- 909م) وهو ابن ست وتسعين سنة.

رحل بكر بن حماد إلى بغداد ولقي المعتصم العباسي ومدحه، فوصله بصلات جزيلة، وله أبيات إلى المعتصم يحرضه فيها على دعبل الذي هجا الخليفة حيث قال:

أيهجو أمير المؤمنين ورهطه ويمشي على الأرض العريضة دعبل؟

أما والذي أرسى ثبيرا مكانه لقد كادت الدنيا لذاك تزلزل

ولكن أمير المؤمنين بفضله يهم فيعفو أو يقول فيفعل

وعاتب أبو تمام الشاعر بكرا على ذلك، وقال له: " **قتلته والله يا بكر**." فاستمر بكر في إنشاد قصيدته هذه إلى أن قال:

وعاتبني فيه حبيب وقال لي لسانك مخذور وسمك يقتل."

وأني وأن صرفت في الشعر منطقي لأنصف فيما قلت فيه واعدل.

ومن شعره الجيد الجميل هجاؤه في مدح الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهجو عمران بن حطان وعبد الرحمن بن ملجم:

قل لابن ملجم – والأقدار غالبة هدمت – ويلك – للإسلام أركانا

قتلت أفضل من يمشي على قدم وأول الناس إسلاما وإيمانا

وأعلم الناس للقرآن. ثم بما سن الرسول لنا شرعا وتبيانا

صهر النبي ومولاه وناصره أضحت مناقبه نورا وبرهانا

وكان في الحرب سيفا صارما ذكرا ليثا إذا لقي الأقران أقرانـــا

ذكرت قاتله – والدمع منحدر فقلت: سبحان رب الناس سبحانا

أنـي لأحسبه ما كان من بشر يخشى المعاد، ولكن كان شيطانا

أشقى مراد إذا عدت قبائلها وأخسر الناس عند اللـه ميزانـا

كعاقر النافة الأولى التي جلبت على ثمود بأرض الحجر خسرانا

فلا عفا اللـه عنه ما تحملـه ولا سقى قبر عمران بن خطانـا

لقوله في شقي ظل مجترما ونال ما ناله ظلما وعدوانـا

"يا ضربة من تقي ما أراد بها إلا ليبلغ من ذي العرش رضوانا

بل ضربة من غوى أورثته لظي إلا ليصلي عذاب الخلد نيرانـا

قال أحمد بن فتح المعروف **بابن الخراز** التاهرتي يمدح أبا العيش بن إبراهيم بن القاسم:

قبـح الإله اللهو إلا فينة بصريــة في حمرة وبيــاض

الخمـر في لحظاتها والورد في وجناتها، والكثح غير مفـاض

في شكل مرجـى وشك مهاجـر وعفاف سنــي وسمت ابـاض

تاهـرت أنت خليــة وبريــة عوضت منك ببصرة فاعتـاضي

لأعذر للحمراء في كلفـي بها أو تستفيض بأبحــر وحيــاض

ما عذرهـا والبحـر عيسى ربهـا ملك الملــوك رائض الــرواض

وقال بعض شعراء تاهرت من قصيدة:

فراغ الهوى شغل، ومحيى الهو قتل ويوم الهوى حول، وبعض الهوى كل

وجود الهوى بخل، ورسل الهوى عدى وقرب الهوى بعد، وسبق الهوى فضل

سقى الله تاهرت المنى و سويقة ولم يجتمع وصل لنا– لا– ولا شمل

فلما تمادى العيش وانشقت العصى تداعت أهاضيب النوى وهي تنهل

سلام على من لم تطق – يوم بيننا سلاما. ولكن فارقت، وبها شكل

وما هي آماق تفيض دموعها ولكنها الأرواح تجرى وتنسل.

وقال **سعيد بن واشكل التيهرتي** في علته التي مات منها بتنس:

نأى النوم عنى واضمحلت عرى الصبر وأصبحت عن دار الأحبة في أسر

وأصبحت عن تيهرت في دار معزل واسلمني مد القضاء من القدر

إلى تنس دار النحوس. فإنها يساق إليها كل منتقص العمر

هو الدهر والسياق والماء حاكم وطالعها المنحوس صمصامة الدهر

بلاد بها البرغوث يحمل راجلا ويأوى إليها الذيب في زمر الحشر

ويزحف فيها العام في كل ساعة بجيش من السودان تغلب الوتر

ترى أهلها صرعى دوى أم ملدم يروحون في سكر و يغدون في سكر

إن أقدم مؤرخ رستمي عرفناه هو ابن سلام بن عمرو أو ابن سلام بن عمر والذي سكن تاهرت سنة 240 هـ – 854م. وقد كان حيا سنة 260 هـ – 873م– 874م. وألف كتابا لم يصل إلينا ولا نعرف عنوانه، ومن حسن الحظ أن الشماخي نقل منه في سيرة جملا

يصف فيها المؤلف رسوخ الإسلام في جبل نفوسه ويذكر تاريخ الأئمة الاباضية الأوائل أبي الخطاب المعارفي وأبي حاتم الملزوزي وتاريخ ما كان بينهم وبين إخوانهم من صلات في المشرق في عهد ولاية الإمام عبد الوهاب.

وقد استقى ابن سلام بن عمرو معلوماته التي ضمنها الفصل الأول من كتابه حول رسوخ الإسلام في جبل نفوسه من أبي صالح النفوسي الذي لقبه في توزر سنة 240 هـ – 855م– 855م. إن أشهر مؤرخ في تاهرت – بعد ابن سلام بن عمرو– هو ابن الصغير مؤلف كتاب عنوانه " ذكر بعض الأخبار في الأئمة الرستمين". ويعتبر كتابه هذا إلى الآن أقدم وثيقة وصلت إلينا حول تاريخ اباضية إفريقيا الشمالية علاوة على مقتطفات من كتاب ابن سلام بن عمرو. وقد كان المؤرخون من اباضية المغرب ينظرون إلى كتاب ابن الصغير المالكي بعين الاهتمام والتقدير. ولاسيما اثنان منهم، وهما: البرادي في كتابه: "الجواهر المنتقاة " والشماخي في سيره. وقد تحدثا عن كتابه كثيرا وذكروا عنه أخبارا شتي في مواضع مختلفة من كتابيهما.

ولم يقف ابن الصغير ابن الصغير من إباضية تاهرت– ولاسيما الرستمين منهم– أي موقف عداء. على الرغم من وجود فقرة في كتابه يعرب فيها عن مخالفته للمذهب الإباضي، وكان يختلف إلى مسجد في حي الرهادنة وعاش في فترة من ولاية أبي اليقظان ومدة من أمامة أبي حاتم.

ويغلب على الظن أنه ألف كتابه في ولاية هذا الأخير، حوالي سنة 290 هـ – 903م. ألف ابن الصغير المالكي كتابه في التاريخ و يتسم أسلوبه فيه بالميل إلى ذكر النوادر أكثر من عنايته بالتاريخ، يقول موتيلنسكي بحق عن كتابه أنه: **دراسة وافية لتاهرت الاباضية في حياتها الداخلية**".

وقد استعان ابن الصغير في تأليف كتابه بأخبار رواها عن أشخاص شتى من معارفه عاشوا في تاهرت، وكان أكثرهم اباضيين رووا عن أسلافهم، ولا يذكر المؤلف إسم المروى عنه إلا نادرا. على أنه ينبغي أن نذكر واحدا منهم بشكل خاص كان يدعى أحمد بن بشير، وكان من رجال الحديث في مدينة تاهرت. وكتاب ابن الصغير مصدر سنّي غاية في الأهمية ألفه صاحبة المالكي.

وليس لدينا ما يشير إلى أصل المؤلف أو نشأته، وكل ما نعرفه عنه أنه قام بتاهرت في العصر الرستمي الأخير كشيخ من شيوخ المالكية. وكان له نشاط بارز في المساجلات والمحاورات التي شهدتها تاهرت بين مشايخ الطوائف المذهبية المختلفة إذ يصور في تاريخه جدله في المسائل الفقهية والدينية مع رؤساء الاباضية والمعتزلة، كما نعلم من تاريخه أنه كان يعمل تاجرا ويملك منذ شبابه دكانا في حي الرهادنة بتاهرت على أن أهميته كمؤرخ محقق نابه جديرة بأن ينظر إليها كل مطالع خبير لكتابه بعين التقدير والإعجاب. أما أسلوبه في تاريخه للدولة الرستمية فإنه يتسم بالصدق والوضوح والبلاغة وجمال التعبير. ونثره مرسل في متناول كل الناس ولا مبالغة في القول بأن تاريخ ابن الصغير يعد بحق أهم مصدر عن دولة بني رستم. فهو معاصر لأحداث العصر الرستمي الأخير وشاهد عيان لها، كما استمد معلوماته عن بني رستم الأوائل من معاصريه من شيوخ الإباضية وغيرهم. ولكونه سنيا ملكيا كشف لنا عن كثير من أسرار عصره مما تغاضى عنه مؤرخ الإباض يّ، كما قدم لنا وجهة النظر المقابلة لتلك التي تتعصب للإمامة الرستمية، ومما يلفت الانتباه أن ابن الصغير التزم بالموضوعية في تاريخه، إذ كثيرا ما أبدى إعجابه بسيرة الراشدين من الأئمة الرستمين، ولم يثنه خلافه المذهبي عن الإشادة بسياستهم. ولم يقدر لابن الصغير إن يشهد نهاية دولة بني رستم. مما يرجح أنه مات في أوائل التسعينات من القرن الثالث الهجري إذ يقف تاريخه عند امامة أبي حاتم يوسف بن حمد الملوفي سنة .... بجانب الآثار التي ذكرها والتي ألفت بالعربية آثار أخرى يحق القول بأنها دونها في القيمة، وهي التي ألفها أصحابها باللهجة

البربرية. وأقدمها في الزمان ما دبجه يراع مهدي النفوسي الذي سبق أن تحدثنا عنه. وقد فند فيها مزاعم فرقة النفاثية ويرقي تاريخ تأليفها إلى النصف الأول من القرن الثالث الهجري.

ومن بين العلماء الذين آثروا تحرير تصانيفهم باللهجة البربرية ذكر الدرجيني منهم أبا سهل الفارسي الذي كان فصيحا بلغة البربر، وقد كان ترجمان جده أفلح وقيل بل كان ترجمان خاله يوسف الإمام. قيد له أثنى عشر كتابا في المواعظ وفيها جمل من تواريخ أهل الدعوة.

قد اشتهرت تاهرت أيضا بمن العلماء والمتكلمين اليهود الذين كانوا متصلين اتصالا مباشرا بالأوساط العبرية البابلية.

وقد أنجبت الحركة الدينية اليهودية المغربية في تاهرت أكبر عالم لغوى هو يهودا بن قريش التاهرتي الذي كان يحسن العربية و العبرية والبربرية والأرامية والفارسية وكان عالما بها كلها متضلعا فيها وهو واضع أساس علم اللغة المقارن بإبداعه منهجية جديدة لدراسة اللغة العربية مقارنا لها باللغتين الساميتين المشبهتين لها وهما الآرامية والعربية.

هذا فيما يتعلق بالحياة الأدبية في المملكة الرستمية أما ما يخص ناحية القطر الجزائري التي كانت تحت هيمنة الأغالبة فقد اشتهر بها: إبراهيم بن الأغلب (140هـ- 196 هـ - 757م- 812م) فقد كان ثاني الأغالبة ولاة افريقية لبني العباس.

كان أبوه الأغلب قد وليها 148 هـ - 150 هـ - 765م- 767م فقتله ثائر- كان الرشيد من ولاة بلاد الزاب- وابن العكي على افريقية كان إبراهيم بن الأغلب فقيها أدبيا شاعرا خطيبا ذا رأى ونجدة و بأس وحزم وعلم بالحروب ومكايدها جرئ الجنان طويل اللسان لم يل افريقية أحسن سيرة منه ولا سياسة ولا أرأف برعية ولا أوفى بعهد ولا أرعى لحرمة منه- كان إبراهيم قد سمع من الليث بن سعد ووهب هذا له جلاجل، قال الليث يوما: ليكونن

لهذا الفتى شأن. وكان لإبراهيم فضائل جمة ومآثر حسنة طاعت له قبائل البربر وتمهدت افريقية في أيامه.

كان له مع راشد (ت 188 هـ - 804 هـ) أمير المغرب مولى إدريس الحسني مواقف و محاربة. وكان راشد قد علا أمره. وكان الأغالبة في القيروان يتتعبون أخبار الدولة الإدريسية الناشئة في جوارهم ويبعثون بالأموال للقضاء على إدريس (الرضيع) وكانت لهم يد في قتل أبيه بالسم، فما زالوا على ذلك إلى أن تمكن إبراهيم بم الأغلب من دس بعض البربر لراشد، فقتلوه غيلة بعد نشوء إدريس وتسلمه عرش أبيه بقليل، وهو القائل- وقد خلف أهله بمصر عند التحاقه بالزاب:

ما سرت ميلا ولا جاوزت مرحلة إلا و ذكرك يثنى دائبا عنقي

ولا ذكرتك إلا بت مرتفقا أرعى النجوم كان الموت معتنقي

وقال لدى دخوله القيروان قائما بنصرة ابن العكي وهرب تمام بن تميم أمامه:

لو كنت لا قيت تماما لصال به ضرب يفرق بين الروح والجسد

لكنه حين شام الموت يقدمني ولى فرارا وخلى عن البلـد

إن يستقم نعف عما كان قدمه وأن يعد بعدهـا في غدرة نعـد

أحمد سفيان بن سوادة بن سفيان بن سالم. بن عقال التميمي الذي توفي حوالي سنة 260 هـ - 874م فكان من رجالات بني عمه الأغالبة. وتولى عمل الزاب ثم طرابلس سنين طويلة وله بها أخبار وآثار ووقائع مشهورة .

ثم ولي جزيرة صقلية. فأقام بها مدة وقهر الروم البيزنطيين. وله في بر العدوة الطليانية، بلاد فلورية، فتوحات مشهورة. وكان في الأدب والجود بمكان رفيع وفي مدحه يقول بكر بن حماد التاهرتي وقائله:

زار الملوك. فلم يغد فيا ليته زار ابن سفيــان أحمــدا

فتى يسخط المـال الذي هو ربه ويرضى العوالى والحسام المهنـدا

توفي أحمد بالقيروان عن سن عالية ومن شعر أحمد قوله يفتخر:

قربـوا الأبلق. و أنــي أعرف الخيــل العتاقــا

وعليهـا أصرع الأبطـال طعنــا واعتناقـا

اخـطب الأرواح و الأنــفس بالرمـح صداقـا

وأروى من نجيــع الهـام أسيافـا رقاقـا

تنقع الأعــداء في النقــع حميما وغساقـا

فإذا ما دارت السلـم بما نبغــي وفاقا

وأزحنـا كل ما كان شقاقا ونفاقا

اصطحبناها سلافـا وشربناها اغتباقا

وأدرنــا الكاس بالــرا ح علـى الشرب دهاقـا

ومن شعر بكر بن حماد:

(وقفة بالقبور):

1- قفْ بالقبورِ و ناد الهامدين بها من أعظم بليت فيها وأجسادِ

2- قومٌ تقطعت الأسباب بينهم من الوصال و صاروا تحت أطواد

3- راحو جميعا على الأقدام و ابتكروا فلم يروحوا ولم يغد بهم غاد

4- والله لو أنهم ردوا ولو نطقوا إذن لقالوا التقي من أفضل الزاد

5- فبرز القوم و امتدت عساكرهم كما يوافوا لميقات وميعاد

6- ما بالقلوب حياة بعد غفلتها والله سبحان منها بمرصاد

7- أين البقاء وهذا الموت يطلبنا هيهات هيهات يا بكر بن حماد

8- بينا نرى المرء في لهو وفي لعب حتى نراه على نعشٍ و أعواد

9- هذا يذاكر دنياه منغصة فيها حزازات أحشاء و أكباد

10- وكلنا واقف فيها على سرفر وكلنا ظاعن يحد و به الحاد

11- في كل يوم نرى نعشا نشيعه فرائح فارق الأحباب أو غاد

12- الموت يهدم ما نبنيه من بذخ فما انتظارك يا بكر بن حماد

المحاضرة الرابعة: الدولة الفاطمية

1. إطار التاريخي للدولة الفاطمية (297هـ-361هـ /909 م-972 م):

نشأت الدولة الفاطمية في بلاد المغرب، سنة 297هـ 209م([1])، بناءا على حركة مذهبية نشيطة تمثلت في نشر الإسماعيلية في مختلف أقطار العالم الإسلامي للتعريف بقضية آل البيت،([2]) بدأ عندها بمبايعة عبد الله المهدي([3])، ومباركة قبيلة كتامة([4])، له والتي ساهمت في قيام الدولة الفاطمية حيث تتواجد بقاياها في الأوراس والمغرب الأقصى([5])، أُعتبر عبد الله الشيعي موضع أمن وأمان للكتاميين مما أثار خوف الخليفة عبد المهدي فأخذ يخطط للتخلص منه خشية من أن يفتتن الناس به فيضعف بذلك نفوذه وسُلطانَهُ، حيث أمر بقتله هو وأخيه أبي العباس وبعدما تخلص منهما قامت ثورات بين قبيلة كتامة وأهل القيروان وما إن وطد خلافته حتى قام ببناء حضارة شؤون كمقر للدعوة

---

[1]) بوبا مجاني:من قضايا التاريخ الفاطمي في دوره المغربي، دار بهاء الدين، الجزائر ،2007م،ص 68.

[2])أيمن فؤاد السيد:الدولة الفاطمية في مصر (تفسير جديد)، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط1 ،1992م، ص32.

[3]) عبيد الله المهدي:مؤسس الدولة الفاطمية في سلمية ،قرب مدينة حماه السورية وارتحل منها إلى المغرب وما هي فترة وجيزة حتى سيطر عليها وفي مراكش و أسس مدينة المهدية هناك و إتخذ منها قاعدة مملكة (ينظر: منير البعلبكي:معجم أعلام الأمور، دار العلم للملايين، لبنان، ط1، ص 184.

[4]) كتامة:هذه القبيلة لها أهمية تاريخية، لأنها هي التي أقامت الدولة الفاطمية بجهودها وبعد إنتقالهم إلى مصر لقيت لهم بقايا في جبل الأوراس ومن سكن المغرب الأقصى وبناحية مراكش ،كانت تسكن المغرب الأوسط مع صنهاجة وتشغل المنطقة ما بين مدينتي بجاية و قسنطينة (ينظر:عبد الله محمد جمال الدين:الدولة الفاطمية نهاية القرن الرابع الهجري، دار الثقافة، القاهرة،1991م، ص18ص19.

[5]) علي حسن الخريوطي،أبو عبد الله الشيعي:مؤسس الدولة الفاطمية، المطبعة الفنية الحديثة، البصرة، 1972م ،ص53.

الإسماعيلية فاختار مكانا قريبا من القيروان وأسس مدينة جديدة سماها المهدية .

وبعد وفاة المهدي آلت الخلافة إلى ابنه القائم بأمر الله([6])، الذي كانت فترة حكمه مليئة بالثورات التي تتجلى حقد زناتة([7]) على الفاطميين ورغبتهم في القضاء على الخلافة ببلاد المغرب

وذلك بعد الدعوة التي قام بها عبد الله الشيعي الصنعاني([8])، حيث كانت دعوته ترنوا إلى الإيمان بالمذهب الشيعي وكذا التصديق بنسب المهدي إلى إسماعيل بن جعفر الصادق هذا الأخير الذي أهتم بنشر علوم آل البيت وآدابهم، كما أرسل داعيين من المشرق إلى بلاد المغرب.

فقد ذكر القاضي النعمان في هذا الصدد أنه سنة 145هـ – 763م قدم داعيين من المشرق حتى ينشروا ظاهر علم الأئمة وقد تجاوزا حدود البربر وبعدها نزلا كل واحد في

---

[6]) القائم بأمر الله: كان مولده في سلمية التي بالقرب من مدينة حماه في الشام في محرم سنة 280 وكان وفاته بالمهدية يوم الأحد الثالثة عشر من شوال 334هـ (ينظر:النويري نهاية الإرب، تج:مصطفى أبو غيث أحمد نشره بعنوان:تاريخ المغرب الإسلامي في العصر الوسيط، دار النشر المغربية، الدار البيضاء،ج28، 1985م، ص72.

[7])زناتة:فرع من ضريسة إحدى البطون الرئيسية من البتر من القبائل البربرية المستقرة بلوبيا من القديم أغلب ديارهم بالمغرب الأوسط والأقصى ومن فروعها بني يفرن، مغراوة، بني مانو، بني وركلان...الخ (ينظر:ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، إعتنى به أبو صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية، ص190 ص191، بوزياني الدراجي: القبائل الامازيغية دورها ومواطنها وأعيانها، دار الكتاب العربي، الجزائر،ج1،2007م، ص248–271.

[8])هو الحسن بن أحمد بن محمد: المعروف بأبي عبد الله الشيعي الممهد لقيام الدولة الفاطمية وموطد أركانها في شمال افريقيا، كان مولده بصنعاء باليمن و اتصف بشخصية قوية جذابة ومحببة مما زاد بتعلق الكتاميين به ومحبته فضلا عما لمسوا فيه من علم وجهد لأنه كان دائم الاستطلاع على بلادهم و الاستخبار على أوضاعهم (ينظر: حسين أمين، صلاح الدين الأيوبي: العباسيين والفاطميين والعلويين،دار الجديد، لبنان، ط1، 1995م، ص91.

ناحية وها أبو سفيان الذي نزل بمدينة مرماجنة ([9]) وبالضبط بكالا واستقر بها ذاع صيته وكانوا يأتونه ليسمعوا منه فضائل أهل البيت ويتعلمون عنه ومن قبله للتشيع([10])،

أما الرجل الثاني فيدعى الحلواني تقدم حتى وصل سوجمار وإستقر بها وقد اشتهر بفضله وعلمه وعبادته وجلب أغلب القبائل إليه حيث أن كثيرا من كتـامة ونفـزة ([11]) وسماتـة([12])

وقد نجح هاذين الداعيين فأحرزا نجاحا وكسبا عظيما لآل البيت، نتيجة الفتن والصراعات التي كانت تتفاقم بين الفينة والأخرى، اتجه الفاطميون إلى مصر واتخذوها قاعدة لهم يوجهون منها حملاتهم للقضاء على الخلافة العباسية فانظم إليهم المغاربة تحت إمرة الأمير المعز لدين الله، وقائد الجيش حباسة بن يوسف الذي استولى على برقة ([13]) وتابع السير وصولا إلى الأسكندرية.

وقد احتضن الكثير من المصريين الدعوة الفاطمية بفضل عمل الدعاة في نشر

---

[9]) مرماجنة: بإفريقيا قريب من الأريس وكانت مدينة كبيرة قديمة اولية وفيها آثار للأول وبها عيون سائحة وهي على نظر واسع كثير الخبرات (ينظر: الحميري: الروض المعطار في أخبار الاقطار، تر: حسان العباس مؤسسة ناصر للثقافة بيروت، 1980م، ص 54.

[10]) القاضي النعمان: افتتاح الدعوة ،تحقيق فرحات الدشراوي، الشركة التونسية للتوزيع،تونس، 1986م، ص26–28

[11]) نفزة: مدينة بالمغرب وهي قبيلة كبيرة منها بنو عميرة، وبنو ملحان (ينظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار الصادر، بيروت، مج 6، 1988م، ص296.

[12]) القاضي النعمان: المرجع نفسه، ص26–28.

[13]) برقة: بطن من قبيلة عتيبة التي منازلها في الشرق حتى الوشم والقصيم وفيه أربعة أفخاذ عيال منصور ،المقطة، النفعة، الروسان (ينظر:عمرو رضا:معجم قبائل العرب القديمة و الحديثة، مؤسسة الرسالة، لبنان، ج1، ط8، 1997م، ص75)

المذهب الشيعي،([14]) كأبي الداعي الذي بذل جهدا جبارا لنشر الإسماعيلية ([15])

وفي محاولة الفاطميون في الاستيلاء على الإسكندرية سنة 307هـ-919م أرسل الخليفة العباسي مؤنس الخادم قائد الجيوش للقضاء عليهم بعدما سمعَ بنجاحهم في مصر، وقد تمكن من القضاء عليهم بسبب عدم التنظيم وتمكن من الاستيلاء على سفنهم وإحراقها وبهذا حلت الهزيمة بالحملة الفاطمية فباءت بالفشل.()[16]

وقد أصبحت مصر محط تنافس بين الأمراء وقادة الجيش حول ولايتها إلى أن انتصر الإخشيد في نهاية المطاف فتولى الحكم في مصر إلا أن الأهالي في مصر لم يرغبوا به فاحتجوا عليه فحاربهم مما دفع الكثير منهم يتوجه إلى برقة وأرسلوا إلى الخليفة الفاطمي ليسادهم للاستيلاء على مصر باسم الفاطميين فاستجاب لطلبهم وأرسل جيش للدخول إلى مصر فاستعد الإخشيد لملاقاتهم ،التقى الجيشان في منطقة قريبة من مصر فترة من الزمن بعد ضعف الجيش.([17]

---

[14]) المذهب الشيعي: هم الذين شيعوا علي بن أبي طالب وقالوا بإمامته وخلافته نصا أو وصية و إعتقدوا أن الامامة لا تخرج من أولاده وقالوا أن الإمام ركن الدين لا يجوز للرسل عليهم الصلاة والسلام وإغفاله وإهماله(ينظر: الشهرستاني:الملل و النحل، تر:محمد السيد كيلاني، دار المعرفة، لبنان،ج1، ط2، 1995، ص146)

[15]) الإسماعيلية :إحدى فرق الشيعة نسبة لاسماعيل ابن جعفر الصادق الذي قالوا بإمامته (ينظر: الشهرستاني:المرجع نفسه، ص192)

[16] محمد جمال الدين سرور:المرجع نفسه، ص 60.

[17])عبد الله محمد جمال الدين:الدولة الفاطمية قيامتها ببلاد المغرب و إنتقالها إلى مصر إلى نهاية القرن الرابع الهجري مع عناية خاصة بالجيش، دار الثقافة للنشر و التوزيع، القاهرة، 1991م، ص116 ص117.

وتمسك المصريين بالخلفاء الفاطميين حيث أشعلوا ثورة جديدة فأرسل المعز [18] إلى جوهر الصقلي،([19]) الذي جاء بنفسه إلى مصر حاملا توابيت آبائه الذين تولوا الخلافة قبله ما يدل على إصرار الصقلي على نقل مقر الخلافة إلى مصر وفي النهاية نقلت مصر للفاطميين وأصبحت القاهرة قاعدة ملكهم.([20])

إن البحث في تاريخ الأدب وكشف النقاب عن آداب مصر العربية والإسلامية يدفعنا للتعرف على عناصر الأصالة في المجتمع ومكوناته الفكرية والحضارية وفي مجال الفكر والأدب حاول رجال مؤمنون بوطنهم أن يبرزوا ملامح هذه الشخصية المصرية في الفكر والأدب العربي إذ بحثوا مخلصين للكشف عن أصول مصر في تاريخ الأدب.

ونخص بالحديث عن أدب الفاطميين بعض هؤلاء العلماء الأفاضل وكان في مقدمتهم الدكتور محمد كامل حسين في كتابه القيم **"أدب مصر الفاطمية"** ، وكتاب الدكتور حسين

[18] المعز لدين الله بن تميم: ولد بالمهدية يوم الاثنين في رمضان 319هـ و ولي له اثنان وعشرون سنة،كان المعز عالما، جوادا شجاعا، على منهاج أبيه في سنن السيرة (ينظر: ابن حماد الصنهاجي: أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، دار الصحوة، القاهرة، ص83. ابن أبي دينار المؤنس: في أخبار إفريقية و تونس، مطبعة الدولة التونسية، 1286م، ص60.

[19] جوهر الصقلي: توفي سنة 381هـ – 992م قائد فاطمي سبي مملوكا إلى القيروان فتح مصر للمعز الفاطمي وبني مدينة القاهرة وسماها "المنصورية" فلما قدم المعز سماها "القاهرة" من مآثره بناء الأزهر الشريف (ينظر: منير البعلبكي ،المرجع نفسه،ص164.

[20] محمد جمال الدين سرور:المرجع نفسه، ص30–33.

نصار عن ابن وكيع التنسي، وظافر الحداد، وكتاب "**مصر الشاغرة الفاطمية**" للأستاذ محمد عبد الغني حسن.[21]

وبهذا فإن أدب هذا العصر يكشف لنا من خلال دراسته ظروف الحياة والبيئة عن مدى علاقة إنسان العصر بأرضه ووطنه، وتمثله لعناصر ذلك الوطن ومظاهر شخصيته ومكوناته التي تفرقه عن غيره من الأوطان.

نظام حكمها:

قامت هذه الدولة الفاطمية الشيعية على أسس قوية لذلك كانت أعظم وأجل رواية بها هي وظيفة داعي الدعاة، [22] حيث أنهم اعتبروا الإمام هو النظام الرئيسي في الدولة الإسلامية الشيعية ،فكان مستقلا استقلالا تاما ذات نظام سياسي مطلق لان المذهب الإسماعيلي يرى عصمة الإمام، [23] وبهذا فإن الإمام عند الفاطميين ليس شخصا عاديا بل هو المشرع و المنفذ و ينظر له على أنه شخص معصوم من الخطأ يقدسه الناس و يركعون عند مروره نتيجة لما ورثه من العلوم . فهو رئيس الحكومة الأعلى و يلقب بأمير المؤمنين.[24]

-نبذة تاريخية عن العصر الفاطمي:

---

[21] الدكتور محمد زغلول سلام:" الأدب في العصر الفاطمي، الكتابة والكتاب"، منشأة العارف بالاسكندرية، مصر، دون سنة نشر، ص15.

[22] عبد الرحمان الجيلالي:تاريخ الجزائر العام،ج1، دار مكتبة الحياة،بيروت، 1965،ص283.

[23] صالح فركوس، تاريخ الجزائر ماقبل التاريخ إلى غاية الاستقلال،دار العلوم، الجزائر، دت، ص90 .

[24] مبارك بن محمد الميلي، تاريخ الجزائر القديم والحديث،ج2،المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر، دت، ص 137.

إن تاريخ كل أمة من الأمم العربية تاريخ موصول ماضيه بحاضره، وفي حديثنا عن تاريخ الدول الفاطمية يجدر بنا التطرق إلى التعريف بنسب الفاطميين.

"ينسب الفاطميون إلى إسماعيل بن جعفر الصادق(ت 138هـ)، وقد نشأت الحركة الإسماعيلية كحركة دينية شيعية سياسية.

إن الفترة التي تبدأ بوفاة جعفر الصادق (138هـ) وتنتهي بقيام الدولة الفاطمية في المغرب عرفت تاريخ الإسماعيلية بدور التستر لأنها بدأت في عهد اضطهاد وملاحقات للشيعة وأهل العباسيين وتنتهي بظهور عبد الله المهدي."[25]

يتضح لنا من خلال هذا الحديث أنه: لم يتفق المؤرخون على صحة نسب الفاطميين إلى السيدة فاطمة الزهراء (رضي الله عنها)، وعلي بن أبي طالب حتى الآن، لأن الإجماع على صحة نسبهم يحتاج إلى أدلة وإثباتات ومن الصعب الحصول هذه الأدلة، لذا اعتمدنا على الاختصار فيما أمكن عن نسب الفاطميين، إلى الحصول على نصوص يمكن الوثوق بها.

"وتنسب الدولة الفاطمية إلى عبد الله المهدي، ثم انتقلت إلى مصر، وكان العبيدون يزاحمون بني العباس في الملك والسياسة وينافسوهم في العلم والحضارة، وبلغت دولتهم بالمغرب ومصر رقيا، وتركوا آثارا تشهد بفضل حضارتهم."[26]

[25]) ينظر: ياسر لباراجي الخزاعله، الدولة الفاطمية في المغرب، زمزم ناشرون وموزعون، الأردن، ط1، 2015، ص187.

يدلنا هذا الحديث على أن الدولة الفاطمية أو العبيدية هي إحدى دول الخلافة الإسلامية والوحيدة بين دول الخلافة التي اتخذت من المذهب الشيعي مذهبا رسميا لها على حد علمنا ودراستنا السابقة، وقامت هذه الدولة في العهد العباسي ثم انتقلوا إلى المغرب ثم امتد نطاقها إلى مصر، ومن هنا نستنتج أن الدولة الفاطمية ظلت أكبر دولة مستقلة عن الدولة العباسية والمنافسة لها.

2-أسماء الحكام الفاطميين ومدة حكم كل منهم:

1"-عبيد الله المهدي (297-322هـ/910-934م)

2-أبو القاسم محمد، القائم بأمر الله (322-334هـ/934-946م)

3-أبو الطاهر إسماعيل المنصور بنصر الله (334-341هـ/946-953 م)

4-أبو تميم معد، المعز لدين الله (341-365هـ/953-975م)

5-أبو منصور نزار، العزيز بالله (365-386هـ/975-996م)

6-أبو علي المنصور، الحاكم بأمر الله (365-386هـ/975-996م)

7-أبو الحسن علي الطاهر لإعزاز دين الله (441-427هـ/1021-1037م)

8-أبو تميم معد، المستنصر بالله (427-478هـ/1036-1094م)

[26]) ينظر: مبارك بن محمد الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، دار الكتاب العربي، الجزائر، د.ط، 2010، ص616.

9-أبو القاسم أحمد، المستعلي بالله (487-495هـ/1094-1101م)

10-أبو علي المنصور، الأمر بأحكام الله (490-024هـ/1101-1130م)

11-أبو الميمون عبد المجيد، الحافظ لدين الله (526-544هـ/1137-1149م)

12-أبو المنصور إسماعيل، الظافر بالله (544-549هـ/1149-1154م)

13-أبو القاسم عيسى، الفائز بنصر الله (549-555هـ/1154-1160م)

14-محمد عبد الله، العاضد لدين الله (555-567هـ/1160-1161م)"[27]

-الحياة الإجتماعية:

إن موضوع الحياة الاجتماعية في عصر الدولة الفاطمية من الموضوعات الصعبة التي تحتاج إلى الكثير من الجذور والحيطة في تناولها، فدراسة الحياة الاجتماعية تستلزم بالضرورة التعرض لدراسة: التقسيم الطبقي في ذلك المجتمع، ودور الأسرة فيه، كما يستلزم التعرض لعادات الناس وتقاليدهم في احتفالاتهم الأسرية وأعيادهم، ووسائل لهوهم، وطريقة التعبير عن حزنهم، وعاداتهم في الطعام والشراب واللباس والزواج، وغيرها من الموضوعات.

وبداية الحديث عن الحياة الاجتماعية يمكننا أن نتحدث عن التقسيم الطبقي في مصر الفاطمية على النحو التالي:

أ) طبقة خاصة:

[27]) محمد سهيل طقوس، تاريخ الفاطميين في شمالي إفريقية ومصر وبلاد الشام، دار النفائس، لبنان، ط2، 2007، ص527.

وتشمل الأسرة الحاكمة، والأشراف، وأرباب الوظائف.

-الأسرة الحاكمة:

"كانت الأسرة الحاكمة في المجتمع المصري في عصر الدولة الفاطمية تمثل قمة هذا المجتمع فقد كان لها الحكم والسيادة، وتتمتع بالثراء والنفوذ القوي وكان على رأس هذه الأسرة الخليفة الفاطمي الذي يستمد سلطاته من الإنتساب من النبي صلى الله عليه وسلم عن طريق ابنته فاطمة وزوجها علي بن أبي طالب."[28]

يمكننا القول بعد هذا الحديث أن الأسرة الفاطمية تتمتع بثروات هائلة، مما يوضح الثراء الذي كانت عليه الدولة الفاطمية.

-الأشراف:

"تتمتع الأشراف في المجتمع الفاطمي بمكانة مرموقة...وباحترام الدولة وتقديرها في عهد الدولة الإخشيدية...ويتقدمون غيرهم من كبار رجال الدولة في الإستقبالات الرسمية وعند التواجد في مجالس الخلفاء الفاطميين."[29]

[28]) عبد المنعم عبد الحميد سلطان، الحياة الاجتماعية في العصر الفاطمي، دار الثقافة العلمية، الإسكندرية، د.ط، 1999، ص11.
[29]) المرجع السابق، ص(23-24).

يبدو من هذا الحديث أن المصادر التي بين أيدينا لم تدلنا على مدى الثرى التي كان يتمتع بها الأشراف في العصر الفاطمي، إلا أن إلا أن الأسرة الفاطمية وهم من الأشراف الأقارب كانوا يتمتعون بثراء عريض كما أوضحنا من قبل.

-أرباب الوظائف:

"كان أرباب الوظائف في عصر الدولة الفاطمية أخلاطا من جنسيات مختلفة، ولم تكن هناك شروط محددة تختص بالدين أو المذهب أو الطبقة الإجتماعية تفرض على أي شخص للتعيين في الوظائف عدا إيجادته بالعمل المسند إليه."[30]

وقصارى القول أنه لم يكن هناك لشروط تتحكم في موظفي الدولة من ناحية المذهب أو الدين أو حتى مستوى طبقتهم الاجتماعية وهذا إذا دل على شيء فإنما يدل على عدم وجود شيء من التمييز العنصري في أي جانب من الجوانب المعنوية، سواء أكان في المذهب أم العرق أو الجنس أو الطبقة سوى قدرتهم على العمل المقدم إليهم.

-هذا بالنسبة للطبقة الخاصة، والآن نندرج إلى:

ب) الطبقة العامة:

وتشمل التجار وأصحاب الصناعات والحرف، والعبيد وغيرهم.

-التجار:

[30]) المرجع نفسه، ص66.

"كانت التجارة من المهن التي حُظيت باحترام المجتمع الإسلامي ...وكانت ممارسة التجارة...من أهم الأنشطة التي يباشرها العامة ...وكان التجار يمارسون أعمالهم في حرية كاملة في ظل الأمن والاستقرار الذي نعمت به الدولة الفاطمية."[31]

يقودنا هذا الحديث إلى النسبة الكبيرة التي يتمتع بها التجار في عصر الدولة الفاطمية من احترام وأمان وحرية وتقدير، فكان التجار عنصرا فعالا في المجتمع، أثّروا وتأثّروا بما حولهم من أحداث دون أن ينقطع نشاطهم الدءوب.

-أصحاب الصناعات والحرف:

"كانت المدن المصرية في العصر الفاطمي مركزا مهما للصناعات والحرف المتعددة التي يعمل بها أعداد كبيرة من العامة...وكانت تقام بأرباب الحرف المختلفة تجمعات كبيرة في العصر الفاطمي...وكان لكل طائفة من الصناع وأرباب الحرف عريف يتولى أمورهم ويشترط أن يكون على دراية بأمور الصناعة أو الحرفة."[32]

يتضح لنا مما سبق أن المدن المصرية شهدت حرف وصناعات في مجالات مختلفة، وأدى هذا التعدد إلى خلق أقسام وفروع وأسواق لكل منها حيث كان يشرف على كل طائفة مسؤول يسير شؤون هذه الحرف أو الصناعات.

-العبيد:

[31]) المرجع السابق، ص28.
[32]) المرجع نفسه، ص(70-71).

"كان الرّق منتشرا في المجتمع الفاطمي...وكان السوق يحوى أجناسا متعددة من العبيد، ولكن العدد الأكبر منهم كان من العبيد السود الذين يجلبون من بلاد التوبة، فكانت الأسواق تكتظ بهم...وقد ازداد عدد العبيد السودان في عهد الخليفة المستنصر زيادة كبيرة... وازداد نفوذهم حتى أصبحوا يمثلون أركان الدولة."[33]

وصفوة القول أنه لا شك أن العبيد كانوا اليد العاملة والفنية التي عول عليها الفاطميون، لتشييد أغلب المدن والقرى التي أنشئوها في بلاد المغرب الإسلامي، وتعدد أدوارهم في ها المجتمع، والتي شملت كل الميادين ومجالات الحياة،وقد كان الاعتماد على هذه الطبقة حسب الحاجة إليها.

نستنتج من خلال ما تعرضنا إليه فيما يخص التقسيم الطبقي في المجتمع الفاطمي أنه إذا كانت الطبقة الخاصة قد عاشت في رخاء وترف لما كانت تقدمه لها الدولة من مزايا معيشية عديدة ضمنت لها هذه الحياة. فإن العامة بحكم جهلها و بساطة الحياة التي كانت تحياها فقد تعرضت أملاكها لكل أشكال الظلم و الابتزاز بل وقعت ضحية لوعود السلطة الفاطمية التي لم تحرك ساكنا لتحسين أوضاعها الاجتماعية والاقتصادية.

7-العادات والتقاليد في المغرب الإسلامي في عهد الدولة الفاطمية:

إن التطور الكبير الذي *شهدته* مصر خلال العصر الفاطمي في العادات والتقاليد، كان سببه المباشر حب الفاطميين لحياة البذخ والترف من ناحية، ولكثرة الأعياد والاحتفالات

[33]) المرجع السابق، ص(82-83).

وتعدد أنواع الأطعمة والحلويات وجودتها من ناحية أخرى، إضافة إلى أن الفاطميين كانوا من هواة الاكتشاف والتجديد.

بادئ ذي بدء نقول إن معرفة الطعام الذي كان يحضر على موائد سكان المغرب الإسلامي في عهد الفاطميين تعطينا فكرة واضحة عن نمط حياتهم ومدى رقيهم الاجتماعي.

"لقد تفنن أفراد هذه الطبقة في إعداد الأطعمة الشهية، وتلوين موائدهم بأصناف الفواكه والخضار...وإذا تفاخر الفاطميون بتحضير موائدهم بألوان الأطعمة واللحوم، كذلك عمدوا على تزيينها بأصناف من الفواكه...أما فيما يتعلق بأهل الأطباق التي كانت تحضر على موائد أهل المغرب الإسلامي عموما، فإننا نقرأ في بعض كتب التراجم، أن الحسن بن نصر الفقيه...كان إذا صام أفطر على"حريرة" مع " إيدام وحوت مقلي"، وفي هذا المقام نشير إلى أن هذه الأكلة...مازالت تحضر إلى الآن، لا سيما في مدن من الشرق الجزائري."[34]

ويستحسن بنا قبل أن نغادر الحديث عن الطعام، أن نشير إلى أن عادات الطعام وآداب المائدة أحد العناصر المحورية في هذه الدراسة، وهذه صورة مقربة لثقافة الطبخ والمائدة في مجتمع القاهرة، وهناك وصف لإعداده، ومكونات أطباقه، وتقديمها على الموائد منها: الحبوب، اللحوم، الفواكه والخضار...

[34]) رفيق بوراس، الأوضاع الاجتماعية بالمغرب في عصر الخلافة الفاطمية، جامعة منتوي، قسنطينة، 2008، ص(82-84).

يكتسي موضوع اللباس أهمية بالغة، لما يتضمنه من قيم ثقافية حضارية، تتبع من أصالة المجتمع وعمق تقاليده، فللباس بطبيعة الحال لم يكن موحدا عند كل الأهالي بحكم أن لكل إنسان ذوقه الخاص من جهة، وأيضا اختلاف الطبقات وظروف العمل من جهة أخرى إلى غير ذلك...

"...اختص الخلفاء عمن سواهم بلبس الثياب المحلاة بالذهب والجوهر، كما لبسوا المبطنات والأقمصة، والسراويل والجلباب...ومن لباس المهدي مبطة مصمت فاختي، وقميصا من أقمصته... وإن كان هذا حال لباس"الخاصة" من أهل السلطان، فإن باقي سكان المغرب الإسلامي عموما غلب على لباسهم..."البرنوس"..."المناديل"–"الجبة الصوفية"..."التزام اللثام عن الأنف والفم" اتقاء للعواصف المحلة بالرمال...أما عن لباس النساء...لبست"المربعة".[35]

وقصارى القول فإن لباس المغرب الإسلامي في عهد الفاطميين اتسم بالبساطة وعدم التكلف.

ومن بين العادات والتقاليد التي اشتهر بها السكان في المغرب الإسلامي على عهد الفاطميين إقامة احتفالات في مناسبات عدة كالزواج والأعياد الدينية والختان ومراسيم الدفن

[35]) المرجع السابق، ص(87-91).

وغيرها، فتجلت فيها كل مظاهر التضامن والألفة والمحبة بين أفراد وفئات المجتمع، وكان ضمن هذه المناسبات السعيدة :

-الزواج:

"لقد اعتبر الإسلام دوما أن "الزواج" أساس العلاقة بين الرجل والمرأة، وأن كل علاقة سواه، هي علاقة محرمة، تستوجب العقاب. قال الله تعالى: ﴿ **والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم غير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون**﴾المؤمنون، الآية(5-7).ولا تكاد عادات الزواج في بلاد المغرب الإسلامي في ذلك الوقت تختلف عما هي عليه الآن، فيقتضي أن يختار الشاي شريكة حياته...ثم يجتهد أولياء الفتاة في إعداد "جهازها"...ويتقدم أهل الزوج بمبلغ مالي رمزي."[36]

شهدت الحياة الاجتماعية في العصر الفاطمي طقوس وعادات الزواج مماثلة للعادات التي لا تزال قائمة ليوم الناس ها والتشهير بها حيث يختار الشاب عروسته ويتقدم لها لخطبتها، ويقوم بكل أركان الزواج من مهر وصداق.

8-مظاهر الترف في الأعياد والاحتفالات:

اهتم الفاطميون اهتماما كبيرا بالأعياد والمناسبات الدينية، وبالغوا في إضفاء مظاهر البهجة والترف عليها. فأكثروا في العطاء وتقديم الهدايا ووضع المواكب والزينات. ولم

[36]) المرجع السابق، ص(93-94).

يقتصروا على الاحتفال بالعيدين عيد الفطر وعيد الأضحى بل أقاموا للهجرة عيدا وللمولد النبوي الشريف عيدا كما خصصوا أعياد خاصة بعقيدة الشيعة. كما شاركوا في أعياد المصريين والأقباط والنصارى.

-عيد الفطر:

" يخرج الخليفة من قصره في أول يوم من شوال في موكب حافل ويتقدمه الجند وحملوا الأعلام والرايات راكب فرسه، مرتديا أبهى لباس من الثياب البيضاء المطرزة بخيوط الذهب وعلى رأسه عمامة بيضاء مزينة هي الأخرى بأنواع الذهب والجوهر لصلاة العيد وعند وصوله مكان الصلاة يستقبله رجال الدين وكبار الدولة فينزل من فرسه ليشرع الناس في الصلاة ثم تقام خطبة العيد. وعند الإنتهاء من الصلاة يرجع في موكب حافل مثلما جاء."[37]

يتضح لنا من هذا الحديث أن الحياة الاجتماعية وكيف كانت مصر على جانب عظيم من الثراء، فالأموال والهدايا كانت تقدم على الأئمة بمصر، وهؤلاء بدورهم أسرفوا الإسراف كله، وأغدقوا نعمهم على المقربين إليهم وعلى الشعب في كل مناسبة من مناسباتها.

ومن الأعياد كذلك التي كان الفاطميون يقيمون لها حفل نجد:

-عيد الأضحى:

[37]) ينظر: محمد سلام زغلول، الأدب في العصر الفاطمي، منشأة المعارف، الإسكندرية، د.ط، ص139.

" نجد حال إحتفال الفاطميون بهذا العيد حال إحتفالهم بعيد الفطر إلا في نظام الفطرة. فكان يستبدل به نظام الأضحية، فكان الخليفة يذبح بيده ناقة بعد صلاة العيد مباشرة ويأمر بذبح الإبل والغنم وغيرها. وتوزع لحومها على الناس. كما كان يحرص على توزيع الأضحيات على رجال الدولة وخاصته من رجال القصر."[38]

نستنتج من هذا الحديث أن الحياة الاجتماعية إبان العصر الفاطمي اتخذت مظاهر البذخ والترف التي قلما نجد لها مثيلا في أي عصر من العصور الإسلامية.

وما كان أكثر هذه المناسبات في عصر الفاطميين فهناك أعياد ابتدعها الفاطميون لم يعرفها المصريون من قبل، وأعياد أدخلها المصريون في مصر منذ الفتح العربي وكنها ازدادت بهجة في هذا العصر. كما توجد أعياد أخرى ليست إسلامية وإنما هي مصرية خالصة ورثها الأحفاد من الأجداد.

أضف إلى ذلك أعياد المسيحيين التي اشترك فيها المسلمون في عصر الفاطميين فكل هذه الأعياد والمواسم طبعت العصر الفاطمي بطابع الترف والبهجة والتأنق في كل شيء.

المحاضرة الخامسة: أعلام الدولة الفاطمية

1. الحياة الأدبية في العصر الفاطمي:

[38]) المرجع السابق، ص137.

يبدأ العصر الفاطمي في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، وفي هذا القرن ارتقى الأدب العربي وأزدهر شعرا ونثرا، فقد عني الفاطميون بالكتاب إذ أن عنايتهم بها كانت أشد من عنايتهم بالشعراء، ذلك أن اتساع ملكهم وتشعب نواصي حياتهم وسلطانهم دفعتهم إلى الإهتمام أكثر بالدواوين المختلفة اهتماما خاصا يتناسب مع غلوهم في إظهار مجدهم لكافة شعوب العالم.

وشهدت الحركة الأدبية فنون نثرية تطورت تطورا كبيرا في العصر الفاطمي بالمغرب، بسبب فهم الفاطميين لدور الحضارة في تطور الدولة، وإيمانهم بدور النثرية في التعبير عن التطور.

"إن الحركة الأدبية لم يقدّر لها البروز والظهور في إفريقيا إلا بعد وقت طويل، بالرغم من جهود الفاتحين العرب في نشر الإسلام واللغة العربية بين البربر، وعلى جهود البعثات العلمية. فالأحداث المؤسفة التي شهدتها بلاد المغرب جاءت لتؤخر انبعاث النهضة الأدبية وبعد أن هدأت حركة الفتح وسلّم المغرب قيادته للعربي المسلمين ازدهرت الحياة الأدبية، ومن بين أسباب الازدهار توافد الأدباء والنحاة على إفريقية واستيطانهم بها ثم رحلات المغاربة إلى المشرق وغير ذلك.وقد أدى هذا الازدهار إلى اتساع رقعة البلاد في العصر الفاطمي، وتمتع الخلفاء الفاطميون بالحس الذوقي الأدبي."[39]

[39]) ينظر:يوسف بن أحمد حواله، الحياة العلمية في إفريقية، مكتبة الملك فهد الوطنية، ط1، 2000، ص(137-142).

إن ما نلاحظه في هذه الحركة الأدبية أن الاهتمام بالدراسات الأدبية تأخر لفترة طويلة نسبيا بسبب العوائق التي واجهت بلاد المغرب كالحروب مثلا، ولكن ما نلاحظه بعد هذا التأخر أن الاهتمام بتلك الدراسات ما استقر وما لبث أن أخذ حقه بعد ذلك بانبعاث نهضة أدبية مزدهرة ومتطورة جعلها تحتل مكانة مرموقة في مسيرة الحركة الأدبية العربية وتسهم في إثْرائها، وذلك من خلال توسع رقعة البلاد وتشجيع الأدب ورجالته، وتمتع الخلفاء الفاطميون بالحس الذوقي الأدبي.

"اهتم الفاطميون بنهضة الكتابة التي كانت مزدهرة في مصر، فقويت هذه النهضة في العصر الفاطمي بما قام به الفاطميون من نهوض بالعلم وإذكاء شعلته في البلاد، وقد عني الفاطميون بالكتاب والدواوين المختلفة عناية خاصة تتناسب مع غلوهم في إظهار مجدهم ودعاية لهم عند شعوب العالم كله."[40]

يدلنا هذا النص على تشجيع الفاطميون للكتابة واحتضانها، وعلى مدى اهتمامهم بالكُتَّاب، ولا نغالي ولا نبالغ إذا قلنا إن عناية الفاطميين بالكُتّاب أشد وأكثر من عنايتهم بالشعراء، وهذا إذا دل على شيء إنما يدل على اهتمام الفاطميين بالأدب والمعرفة، بل كل صنوف الكتابة لا سيما التي تخدم مذهبهم وتؤيد فكرهم.

[40]) ينظر: محمد كمال حسين، الحياة الفكرية والأدبية بمصر من الفتح العربي حتى آخر الدولة الفاطمية، مؤسسة هنداوي، د.ط،2017، ص181.

ازدهر النثر العربي الفاطمي واتسعت فنونه في أشكاله وأساليبه، وكذلك تنوعت بيئات الأدب في الدولة الفاطمية وكانت أهم بيئاته وأكثرها نشاطا، وازدهر عددا كبير من الفنون النثرية التي شكلت جزءا من نظام الحكم حيث ازدهرت في العصر الفاطمي في المغرب، وقد ظلت الخطابة الدينية الأكثر رواجا وانتشارا في هذا العصر، وأكثرها مناسبات يوم الجمعة والعيدين.

"وقد يخطب الخلفاء الأئمة الفاطميون في مناسبات أخرى بما فعل المعز لدين الله الفاطمي عند وفاة أبيه المنصور وكان قد ختم خبر وفاته."[41]

"وقد جاء في عيون الأخبار خطبتين لأمير المؤمنين المعز لدين الله عليه السلام. فيعتبر خطبته الأولى افتتاحية وعظيّة تتضمّن قضايا دينية عامّة، أما في خطبته الثانية يعرض موضوع وفاة والده المنصور، ثم عرض لموضوع خلافته، كما تطرق إلى مواضيع أخرى وهي: الوصية، الولاية عامة، ومكانة أولياء الله وأوصيائه، وضرورة الطاعة لإمام المختار الوصي."[42]

يمكننا القول أن الخطابة بأنواعها قد تداخلت في بعضها، وأن الفاطميين اتخذوا من الخطابة منبرا لدعايتهم المذهبية وإثبات أحقيتهم في الخلاقة. وقد صدرت معظم الخطب باختلاف أنواعها ومضامينها في ذلك العهد عن الخلفاء والولاة الفاطميين.

[41]) محمد زغلول سلام، الأدب في العصر الفاطمي، منشأة المعارف، الإسكندرية، د.ط، ص224.
[42]) ينظر:المرجع نفسه، ص(224-230).

حمل الأدب في هذه الفترة أثارا للبيئة وما ساد فيها من أحداث، سواء على الصعيد السياسي للممالك والحروب والصراع على السلطة بين الدول أو بين الأفراد والقبائل باختلاف انتماءاتها العرقية والإقليمية، أو على صعيد الحياة وما حملته من عادات وتقاليد وسلوكيات ومن رفاهية العيش ونعمته وسيره، وحشيته وبؤسه ونكباته، أو في الفكر والثقافة والفن...

وتنوعت بيئات الأدب في بلاد الدولة من المغرب إلى المشرق، وكانت أهم بيئاته وأكثرها عطاء ونشاطا مصر والقاهرة والقيروان إفريقية والشام وبخاصة في عواصمها دمشق وحلب والجزيرة الموصل، وميافارقين، والحجاز، واليمن.[43]

فالقيروان باعتبارها حضارة الدولة الأولى تعد مركزا للنشاط الأدبي والفكري للدولة.

وبهذا كان الأدب صورة تحمل في طياتها بيئة العصر فتنوعت أساليبه وأشكاله، وتناول أغراض متعددة لمعت في فن النشر بكل أشكاله من خطابة ورسائل وسجلات وكتب أدبية والسير الذاتية، والدراسات الأدبية والنقدية، وسنعرض بعضا من الفنون النثرية بدراسة موجزة تحمل بيئة الكتابة وطبيعتها في كل فن.

1.1 الكتابة:

1.1.1 السجلات: تعتبر السجلات الفاطمية نوعا من الرسائل الديوانية التي عالج فيها الخلفاء الأمور الإدارية الخاصة بالدولة، وكان يتولاها كبير الكتاب في ديوان الإنشاء، زمن أمثلة

[43] محمد زغلول سلام: المرجع نفسه، ص225.

تلك السجلات العامة السجل الذي أصدره الظاهر بن الحاكم وقرأه على الناس أحد رجاله. [44]

"إن أمير المؤمنين بفضله العادل، وأمره الفاضل، وحين نظره الشامل يحفظ نظام جنوده بعدا وقربا، ويراعي أحوال رعيته شرقا وغربا، ويعتمد مصالحهم بضروب من السياسة تقضي بالصلاح في تدبيرهم، وتفضي إلى الإصلاح في إمالة كبيرهم وصغيرهم، فتكشف بمدودها الغمم، وتعتبر بموقعها الأمم وتتوكد بتوخي الحق فيها الأواصر والرحم، كذلك عرفات الإمامة واقعة مواقع السداد، جامعة لمصالح العباد، قاضية بمراشد الأمور في الإصدار والإيراد. وما توفيق أمير المؤمنين فيما يبسط ويقبض، ويبرم وينقض إلا بالله. عليه يتوكل، وإليه ينيب.

وإنه انتهى إلى الحضرة حال جماعة من أوغاد الأرياف، وأوباش الأطراف، يأتون العظائم، ويتكبون الجرائم، ويحتقبون المآثم وينتسبون على خيرة القبائل و برارة الأماثل الذين ميزهم الله بالسوابق الصالحات وحماهم بعصمة طاعتنا عن البوائق المحرمات، للاحتواء بهم والالتجاء إليهم متى وقع من الولات جد في طلبهم. وأن هؤلاء الرعاة بجنياتهم الفارطة، وأحكامهم القاسطة، لا يزالون يدخلون على أنفسهم ضررا بما يصدر من القبائح عنهم، ويبرزون بأفعالهم الذميمة فسادا ومنكرا، يؤدي إلى قتل من يقتل منهم، فيجد بمستفظع أحداثهم السفهاء في الباطل وصالا، والجهلاء في التوصل إلى إثارة الفتنة مجالا، ويزداد

[44] محمد زغلول سلام:المرجع نفسه، ص235.

الغواة زيغا وبعدا عن أمر الله تبارك وتعالى، ويترامى بهم الداء إلى حطة توقع التنافر والتشاجر وتحدث التضاغن والتناكر.

فأنكر أمير المؤمنين على ذلك إنكارا مثله من الأمور التي تكسب سوء الافتراق، وتولد الإختلاف بعد الائتلاف، وتقدح في نظام أولياء أمير المؤمنين المنتخبين، وطوائف عساكره المنتخبين."

هذا السجل المنشور قد أمر الخليفة الظاهر بكتابته وكذا قراءته بقصور الخلافة على كافة الحاضرين بها، سواء كانوا من أنصار الدولة وجنودها أو من خدم المملكة وعبيدها حيث ينهيهم على قبول منتسب إليهم، أو متطارح عليهم لا اسم له في الجرائد المجلدة ولا رزق له في العطايا المقررة. وأخيرا فالرسالة أو السجل كما نلحظ لا يضمن صنعة اللفظ ويكون السجع فيه غير متكلف ويتوفر فيه الاستشهاد ببعض آيات القرآن.

وشكل السجل لا يختلف كثيرا عن شكل الرسالة.

2.1.1 الرسائل: تكون الرسائل من المرسل إلى المرسل إليه، وقد تحتاج إلى إجابة أو تكون إجابة عن رسالة أخرى، تختلف في موضوعاتها ومناسبتها ومنها الرسائل الاخوانية التي تدعو صاحبا أو صديقا لزيارته، أو يكتب إليه متشوقا يسأل عن حاله وأخباره كما جاء في رسالة للكاتب الحسن بن أحمد المعروف بابن الخياط كتب بها إلى صديقه من تينيس.[45]

[45] محمد زغلول سلام: المرجع نفسه، ص238.

بسم الله الرحمان الرحيم

"كتبت إليك عن سلامة وأمر أشيم برقه، وأتوكف ودقه، وحال سار مبتداها ومرجو منتهاها. والحمد لله، وإياه أسأل حسن التوفيق والتسديد ووصلت إليها غداة يوم الأربعاء مترفها متودعا، ولله الشكر والطول وبه القوة والحول وجرت خطوب في إحدارى آلت إلى سلى متى ومسارى، أحببت وقوفك عليها وسكونك إليها.

كنت أقمت يومي ولبلتي في دار الصناعة، ثم إستقررت في السفينة غداة السبت وحدرنا في المسير، حتى إذا جاوزنا عبسوس، وشارفنا شطنوف، ومالت الشمس للغروب هاج البحر وإندفع موجه. وتدافع تياره، وبدا كالمازح وهو لنا جد مكافح. ثم نما وإرتفع فطما، وإضطرب وإربد، وتدفق ، وإختبط، وتغطمط، وركبه بعضه البعض وعلا إلى الجو وإنحط إلى الأرض فصار خدانا، وبطنانا، وأطوادا، وأوهادا. وعصفت الريح وإشتدت وتناوحت وإصطفقت، وزجلت، وهاجت فتمردت وتقاربت وتباعدت، وجاءت ككثبان الرمال، وشواهق الجبال. وعظم تياره وتجرجر آذيُه، وتلاطمت أمواجه، وثارت قيعانه، وشردت حيتانه، وندت نينانه. وتقلت، وصاعد وصوب، وزحر، وزفر، وزأر، كأنه ليث ضارى، أو مغيض يمارى. وإضطرب فإزبد، وإحتدم فتوقد. فاورى نارا، وإقتدح شرارا، ومثلت تماسيحه ثاغرة أفواهها، مبرزة براثينها، حاسرة عن أنيابها شائلة بأذنابها، مترقبة للإفتراس، متأهبة للإختلاس، كأنها أجذاع ملقاة، أو سفن مرساة. ووقفت صفوفا، كأنها آكام ماثلة، أو هضاب متقابلة، وزحفت زحف الأبطال، وجالت في مرابضها الألوان وخفقت القلوب، وعظمت الكروب، وزاد

الهلع، وإستولى الجزع، وطارت الأفئدة من الفزع، وغلب اليأس على الطمع. وخاننا الإصتبار، وأشفينا على البوار. ولم يبقى لنا حيلة غير التضرع إلى الملك الجبار، فعججنا بالدعاء عدا، وضججنا بالإبتهال إليه ضجا، فكشف البلاء بإمتنانه، وأجرى على المهود من طوله وإحسانه. ومنح السلامة وأتاحها. وسيرها وسببها ووفقها وسهلها، وجاد بها وخولها، فسكنت الريح، وسجا البحر وتقشعت السحب، وإنجلى الغمام، وإنحصر الظلام وأشرق الضيا، وتلألأ الضحى، وابتسمت الأرض، عن نيوارها، واستضحكت عن أزهارها. وأبرزت جواهرها، ونشرت برودها ووشيها، ورفلت في حليها وحللها، فناصع وفاقع وناضر وزهر.

وأمرحنا أبصرنا في رياض مونيقات، ومناظر رائقات، وأنهار متدفقات، وجداول مطردات، كأنها ظهور حيات، تظلها أشجار متهدلات، مخضلة، بنداها، راضية بثراها، وتحف بها أطيار، منهدات و مؤتلفات، من خائم وعائم، وجائم وقائم، وطائر وواقع، وسارح وراتع، كأنما ألبست الوشى والقباطي والعصب، فمن مدرج وموشح و مقنع. كأنها قيان مصبغات أو عرائس مجلوات، مطوقة ومقرطة، ومطلسة وموشاة. وملونة ومكحلة، ومحجرة ومعجرة، ومذهبة ومخضبة، ومدففة، ومشنفة، أنواعا مختلفة ومصنفة. كأنما عبأت تعبئة العساكر، ونضدت تنضيد الجواهر، كل شكل إلفٌ لشكله، وكل مثل مؤاخٍ لمثله. يختال إختيال القيان، ويتباهى، تباهى الحور الحسان. كأنها ربات خدور أو آلفات قصور.

وأبدلنا الله من الخوف أمنا ومن البؤس نعيما ومن القلق سكونا، ومن الغرق طمأنينة، ومن الإنزعاج دعة، ومن النصيب راحة، فله الحمد والمن والطول والفضل، معطى النعم ومسديها ومجزلها، ومواليها، وملبسها، ومسبغها، وداهبها ومهديها.

وعرفتك _ أدام الله عزك_ ذلك لتعلمه وتقف عليه، وتستيقنه وتسكن إليه إن شاء الله."

الرسالة جميلة التصوير بديعة الأسلوب خرجت من كونها اعتذارا لصديق من موافاة صديقه، إلى الوصف بألفاظ عذبة ممتزجة بالخيال جمع فيها بين الأضداد بين الخوف والرجاء، واليأس والأمل والخوف والسرور، فهو يصف النيل وأمواجه المتراقصة في ظلمة الجو وغيمة السماء. وفي مشهد مفزع وصف تماسيحه المترقبة فريسة تساق إليها، ووصف السعادة في مشهد مليء بالهدوء وبالغيم المنقشع وبتجلي الشمس وتبرج الزهر، فقد وفق في تصويره واختياره ما يناسبه من الألفاظ الدالة والإيقاعات الموافقة واعتمد السجع في فقراته لما يتناسب مع المعنى وما يلزمه من جرس خافت أو ضجيج، أو همس ناعم رشيق، فيربط بهذا بين المعنى وقريبه أو يقابل بين المتضادات فيتجه لفن الطباق والمقابلات كما قد يستخدم الجناس إذا لزم الأمر.

"فهذا المثال من الرسائل الاخوانية لأحد كتاب عصر الظاهر تدلنا دلالة لا تحتاج إلى كثير شرح على ما بلغه الفن النثري من براعة لا تقل في مصر عنها في بغداد، وغيرها من بلاد

المشرق بل لعل المشارقة في رأينا كالخواريزمي والهمذاني قد يتكلفون فيثقلون لا كما فعل إبن الخياط، إذ رفق باللفظ في عبارته فانسابت المعاني لينة هنيئة.[46]"

1.1– 3 السير: تعد السيرة فن من فنون النثر في هذا العصر سواء اقترنت بسير الملوك أو الأمراء وسير العلماء حيث برز كتاب السير والمؤرخين الذين كان اهتمامهم منصبا حول الدولة الفاطمية ورجالها وكذا حكامها.

"ومن أهم ما وصلنا من كتب السيرة في هذه المرحلة سيرة الأستاذ حوذر الرجل الخطير في دولة الفاطميين، وبخاصة في عهد الخلفاء الثلاثة: القائم والمنصور والمعز، ومصنف هذه السيرة رجل غير معروف، عمل في خدمة حوذر إسمه منصور الجوذرى، وأصبح منذ سنة ثلاثة مئة وخمسون موضع سره، وظل ملازما له حتى توفي حوذر لبرقة سنة ثلاثة مئة وإثنان وستون هجري وهو في طريقه إلى مصر صحبة إمام المعز لدين الله."[47]

تحمل هذه السيرة حياة جوذر منذ كان غلاما في بلده سقلية ودخوله في خدمة المهدى حيث أهداه لولده وولي عهده القائم بأمر الله، حيث أعجب هذا الأخير بجوذر وقربه منه حتى أنه كان يثق فيه ثقة كاملة، فيوكله على أمور لا يأتمن عليها إلا خاصته، فقد روي أن القائم بأمر الله عندما كان يخرج للغزو وهو وليا للعهد كان يستخلف جوذر على ماله وأهل بيته ما يدل على قوة القرابة والثقة التي يكنها له، وعندما تولى الخلافة أوكل إليه بيت

[46] محمد زغول سلام: المرجع نفسه، ص241.

[47] محمد زغول سلام: المرجع نفسه، ص298.

المال وكان متكلما للناس باسمه حيث ارتفعت منزلته عند الرعية فأصبحت ذا نفوذ ومهابة بينهم كونه محبا للخير والعطف والعدل...

وعند وفاة القائم كافئ المنصور جوذر على خدماته لوالده وله وللدولة فلقبه بمولى أمير المؤمنين، فأمر بأن لا يقدم اسم على اسمه سوى الخليفة وولي عهده، كما أمر أن يكتب اسمه بالذهب على ملابسهما.

كما نجد من أشهر مؤرخي السيرة أحمد بن عبد الله الفرغانى وله سيرة الكافور الإخشيدي، وسيرة العزيز بالله الفاطمي.

_ الكتب الأدبية: تنوعت المؤلفات والكتب في عصر الفاطميين وتعددت موضوعاتها وكذا مناهجها، فمن هذه المؤلفات كتب جمعت العديد من الموضوعات والأخبار الأدبية والنصوص الشعرية والنثرية، فشملت أيضا تراجم الشعراء والأدباء ونقدا لأشعارهم وإبداعاتهم الكتابية بتقويضها وبيان محاسنها، وهناك من الكتب ما يدور حول مدينة أو عصر أو قرن، أو قرون منة الزمان، كما قد يتناول مرحلة ما في عصر دولة من الدول فيسلط الضوء على خليفة أمير ليذكر ما فيه من مدح أو رثاء...

كما نجد نوع آخر من المؤلفات في الإنشاء التي ألفها كتاب الإنشاء عما يرتبط بأمور الكتابة الديوانية ومن صفات ينبغي أن تتوفر في كاتب الديوان أو كاتب الإنشاء من معرفة شاملة بالعلوم والأدب والفنون...

وبهذا سيتم التطرق إلى عرض جملة من المؤلفات والكتب الأدبية التي ظهرت مع عصر الفاطميين:

1. زهر الآباء لأبي إسحاق إبراهيم الحصري القيرواني(ت413هـ):

زهر الآداب كتاب أدبي محض اقتصر على فنون القول من الشعر والنثر، قائم على الجمع والرواية، فهو مجموعة نصوص وأخبار جمعها الحصري في أزمان متباعدة ثم ألف بينها دون ترتيب معين " **وهو كتاب جامع لطرائف الأدب كذلك لمؤلف قيرواني عاش في ظل الفاطميين وتحت إمرة ولاتهم من آل باديس الأمراء الصنهاجيين، وهذا الكتاب الذي سماه زهر الأدباء كتاب جامع لأشياء كثيرة مختلطة دون ترتيب معين.**"[48]

فقد نقل الكاتب عن أدباء وشعراء سابقين من المشارقة فنجده قد ركز في النقل عن شعراء القرنين الثاني والثالث كبشار بن برد وأبي العتاهية وأبي نواس وأبي تمام والبحتري و ابن الرومي وأما الكتاب فنقل عن الجاحظ كما قد نقل مقامات الهمذاني ورسائل الخوارزمي بكثرة. وفي المقابل نجده قليلا ما ينقل عن شعراء المغاربة والأندلس والمصريين والمعاصرين، فمن أهم من نقل عنهم من المغرب ابن هاذي، ابن عمار، الأمير تميم بن المعز، أما عن كتاب المغاربة فلم يذكرهم في هذا المصنف، وذا ما جعل بعض القدماء يصف عن هذا الكتاب مؤلف جمع كل غريبة.

[48] محمد زغلول سلام: المرجع نفسه، ص 318.

وقد عني أبو إسحاق الحصري بموضوع الوصف عناية خاصة، فأكثر من إيراد النصوص في وصف الليل والبلاغة والمساء والرعد وغيرها، وغلب السجع على أسلوب الكتاب وهو أسلوب ذلك العصر.

2_ لباب الآداب لأسامة بن منقذ: يشكل كتاب الآداب لأسامة بن منقذ أحد المصادر القيمة التي ألفت في العصر الفاطمي، والكتاب كذلك في كتب الأدب الجامعة في أواخر هذا العصر،"**فقد عاش صاحبه معظم سنوات القرن السادس، وعاصر الخلفاء منذ عهد الأمير إلى آخر الخلفاء الفاطميين، ولقى صلاح الدين الأيوبي في أول دولته، وكان قد بلغ من العمر مبلغا. والمؤلف شاعر، أديب، فارس، مغامر، من شخصيات القرن السادس البارزين في الحرب والسياسة والأدب.**[49]"

لقد قسم الكاتب الكتاب إلى سبعة أبواب هي: باب الوصاية، باب السياسة، باب الكرم، باب الشجاعة، باب الأدب، باب البلاغة، باب ألفاظ من الحكمة في معان شتى.

كما نجد في الكتاب أمور كثيرة ذكرت في كتب الأدب المعروفة، وأيضا أمور وقعت للمنقذ نفسه أو أحداث وقعت في زمانه، قال:[50]

- **باب الآداب:** يشمل هذا الباب على خمسة عشر فصلا هي: فصل في الآداب، فصل في

[49] محمد زغلول سلام:المرجع نفسه، ص320.

[50] أحمد محمد شاكر أسامة بن منقذ محمود محمد شاكر: لباب الآداب، منشورات مكتبة السنة، القاهرة، مصر، ص227.

كتمان السر، وفصل في أداء الأمانة، وفصل في حسن الجوار، وفصل في حفظ اللسان، وفصل القناعة، وفصل في الصبر، وفصل الحساء، وفصل في ترك الرياء، وفصل في الإصلاح بين الناس، وفصل في التعفف عن السؤال، وفصل في التحذير من الظلم، وفصل في الإحسان وفعل الخير، وفصل في مداراة الناس والصبر على الأذى. ونلاحظ في باب الآداب كثرة ما يورده عن الحكماء من غير العرب، وخاصة حكماء اليونان وبعض شعرائهم القدمى أمثال هوميروس وأوميروس، إذ يختم بها أبوابه دائما بعد أن يبدأها بالقرآن والحديث.

وغيرها من المؤلفات الأدبية التي شاعت في هذا العصر كالديارات للشابشتي، وقطب السرور في أوصاف الانبذة والخمور للرقيق القيرواني، وكتاب المنازل والديار لأسامة بن منقذ.

حملت أفكارا غير التي كان عليها المغرب الإسلامي، فالفاطميون كانوا شيعة إسماعيلية و أهل المغرب كانوا سنة مالكية، مما نتج عن اختلاف تلك الأفكار صدام وصراع فكري بين المذهبين، وهذا ما أدى إلى إثراء الجانب الفكري ببلاد المغرب.

فقد توسعت حضارة الدولة الفاطمية و تطورت لتشمل جميع المجالات و من بين عوامل ازدهارها، إنشاء المدن و المؤسسات الثقافية ،فعمل الفاطميون على توفير كل مسببات و مظاهر الرقي و التحضر، فكان أول ما قاموا به هو تشييد المدن، كما يقول "ابن خلدون" في المقدمة: أن العلوم إنما تكثر حيث العمران و تعظم الحضارة، و يعود ذلك تعليم العلم من جملة الصنائع التي تكثر في الأمصار وعلى نسبة عمرانها في الكثير و القلة و

الحضارة والترف تكون نسبة الصنائع في الجودة عن معاشاتهم، أصرفت إلى ما وراء المعاش من التصرف في خاصة الإنسان و هي العلوم و الصنائع.[51]

و من المدن التي عدت بمثابة الإشعاع الفكري في العهد الفاطمي ومنها:

- **المهدية:** مدينة أختطها و بناها المهدي عبيد الله سنة 303هـ_916م وانتقل إليها سنة 308هـ–920م، وهي على شكل كف متصلة بيد، ولقد بذل المهدي الكثير من المال والجهد في بنائها وتحصينها بأبواب حديدية سميكة وعالية، وسورها سور قوي مرتفع من الحجر تحيطه الأبراج والبوابات الثقيلة. [52] واعتبرت بكل المقاييس مركزا ثقافيا مهما من مراكز الثقافة والعلوم في أفريقيا، حيث أصبحت مركز جذب كبير العلماء والأدباء والأطباء وغيرهم، سواء كان ذلك بالسير طوعية في كنف الدولة الفاطمية، أو أولئك الذين اضطرتهم الظروف للسكن بالمهدية من المغتربة للسنة ، فاحتشد بها الأدباء والشعراء الذين كانوا يشكلون ما يمكن تسميته بأبواق دعاية متنقلة، كما غدت ساحة يحتدم فيها الجدل المذهبي بين دعاة الشيعة وخلفائهم، وبين علماء المالكية السنية. [53] وقد كانت المهدية مركزا أدبيا بالغ الأهمية في العصر الفاطمي وذلك راجع إلى احتضانها للخلفاء والأمراء وأرباب

---

[51] ابن خلدون: المقدمة ،مراجعة سهيل بكار، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت،1431 هـ،2001م، ص 54

[52] عبد الحكيم العفيفي: موسوعة 1000 مدينة إسلامية، الأوراق الشرقية للطباعة و النشر، بيروت، ط1، 1421هـ، 2000م، ص472 ص 473.

[53] يوسف بن أحمد حوالة: الحياة العلمية في إفريقية منذ الفتح وحتى منتصف القرن الخامس الهجري 90_450 هـ، مركز بحوث الدراسات الإسلامية، مكة المكرمة، ج1، 1421هـ، 2000م ص 173– 175.

السيف والقلم والطبقة الارستقراطية القيروانية، ولقد تمثل النشاط الأدبي والشعر بها أن كتاب ديوان الرسائل كأبي جعفر البغدادي والأستاذ جوذر وابن الصقيل وغيرهم الذين بلغ معهم النثر الفني في رسائلهم درجة مرموقة من الفصاحة والبلاغة، وفي النشاط الشعري لا يمكن إغفال دور الخليفتين المهدي و القائم الذين ساهما في تنشيط الحياة الأدبية، إذا كان كلاهما شاعرا في هذا الفن الشعري الذي تحتاجه الدولة الفاطمية كباقي دول العالم الإسلامي للتغني بأمجادها و الدفاع عن سياستهم و كذا التشهير بأعدائهم في العقيدة والسياسة.[54]

- **رقــادة:**هي مدينة تقع جنوب مدينة القيروان وتبعد عنها مسافة أربعة أميال، وأكثرها بساتين، وليس بإفريقيا أعدل هواء ولا أرق نسيما ولا أطيب تربة من مدينة رقادة.[55] وهي عاصمة سياسية وإدارية ومركزا من مراكز العلم والثقافة بإفريقيا، حيث اضطلعت بدور ثقافي مهم في نشر وازدهار العلوم، خاصة وأن الحياة العلمية في المغرب الأدنى كانت قد تطورت في عهد الأغالبة حيث ظلت بيت الحكمة برقادة يؤدي في الحياة الفاطمية، ورث الفاطميون في جملة ما ورثوه دار الحكمة غير أنهم غيروا طابعه التقليدي فأصبح في عهدهم وطيلة بقاء عاصمتهم رقادة مكانا لبث الدعاية للمذهب الإسماعيلي والترويج له.[56]

[54] رافعي نشيدة: الحياة الفكرية و الثقافية في المغرب في العصر الفاطمي 296–362هـ، رسالة، ص 399.

[55] البكري أبي عبيد الله: المغرب في ذكر بلاد إفريقية كامل حسين ومحمد عبد الهادي شعيرة، دار الفكر العربي، 1487هـ، 1994م، ص27

[56] يوسف بن أحمد حوالة: المرجع نفسه، ص 160.

وقد عرفت طيلة الفترة الفاطمية بها حركة ونشاطا عظيمين، حيث كان الإشعاع الثقافي علميا فقهيا وعقائديا ترعرع ونمى ببيت الحكمة.

- **المسيلة المحمدية:** اختطها محمد بن المهدي المكنى بالقائم بأمر الله في أيام أبيه، والتي خطها برمجه وهو على فرسه، وأمر علي بن محمد الجذامي ابن الأندلسي أن يحسن بناءها ويخصها وسماها المحمدية باسمه، [57] فقد بلغت المسيلة من الحضارة الغاية القصوى إذ صارت تهتم بالعلم والثقافة والأدب، وبذلك أصبحت المحمدية مأوى لأهل العلم والأدب حيث توجه الشاعر أبو هاني إلى البلاط واستقر به مدة خمس سنوات من 348ه إلى 353ه، أين نظم في مدحها غزر القصائد حتى أنها أصبحت في عهد المعز القطب الشيعي الثاني بعد المنصورية الذي جمع حوله النشاط الأدبي.[58]

- **المنصورية:** هي مدينة غربي القيروان اختطها وبناها المنصور سنة 334ه، بعد الانتصار الذي حققه على أبي يزيد صاحب الحمار لينتقل إليها سنة 337ه،[59] حيث ظلت منذ ذلك الوقت عاصمة للدولة الفاطمية عهد الخليفتين المنصور والمعز لدين الله، وتكمن أهميتها في واقعها كعاصمة سياسية وإدارية، ولقد كانت مركزا من مراكز الثقافة

[57] ياقوت الحموي شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي البغدادي: معجم البلدان ، دار صادر، بيروت، ج3، 1397ه-1977م، ص 64 ص65.

[58] نشيدة رافعي: المرجع نفسه، ص 407.

[59] ابن حوقل أبي القاسم النصيبي: صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1996م، ص 74

والعلوم في إفريقيا طوال مدة دورها السياسي والإداري.[60]

رغم مهام الخلافة وأعباء الحكم على المنصور إلا أنه كان يعمل على البحث والتأليف والنظر في العلوم، حيث كان يحث ابنه المعز لدين الله على الدراسة وتأليف الكتب، ولقد أثرى المنصور مكتبة المنصورية بنقل خزائن الكتب التي كانت برقادة والمهدية، كما اعتنى المنصور ثم المعز باقتناء المخطوطات والمؤلفات النادرة، ووضعها بمكتبة المنصورية الفاطمية التي أصبحت تحوي عشرات الآلاف من الكتب النادرة.[61]

كما كان المعز لدين الله يستحث همم المغربة للتزويد من العلم وكان يحلم بأن يحكم شعبا مثقفا، حيث عمل على تشجيع العلماء ويشرف بذلك على مؤلفاتهم و بحوثهم، فيغير فيها تارة ويعدل تارة أخرى، ويضيف ما هو ضروري من الآراء، ومن أشهر العلوم التي اشتغل بها العلماء في عهده التفسير و الحديث و المناظرة والفقه والتأويل والعقائد والفلسفة و الوعظ.

إن أبرز العوامل التي أثرت في الحياة الثقافية هي توفر مصادر التثقيف و التعليم، فقد كان للمؤسسات التعليمة من مساجد وكتاتيب ومكتبات عامة وخاصة دورا كبيرا في التثقيف وكذا التحضر حيث كانت بمثابة الإعلام الذي انتشرت عن طريقه العلوم والثقافة الإسلامية والعربية .

[60] يوسف بن أحمد حوالة: المرجع نفسه، ص 74

[61] نشيدة الرافعي: المرجع نفسه، ص340

أولا: المساجد لم يقتصر دورها على الجانب الدينية فقط وإنما تعدى إلى جوانب أخرى اقتصادية واجتماعية وثقافية، فقد ورث الفاطميون عددا من المساجد كانت موجودة قبل بداية دعوتهم، حيث قاموا باستغلالها بعد سقوط المغرب الإسلامي تحت أيديهم، وأصبحت هذه المساجد بمثابة مراكز لبعث الدعوة الشيعية الإسماعيلية، وقد كان أهم هذه المساجد الجامع الأعظم بالقيروان.[62]

لم يكن هذا الجامع هو المركز الوحيد الذي استخدمه الفاطميون لنشر مبادئهم ومذهبهم بل قاموا بتشييد مسجدين آخرين أولهما المسجد الجامع بالمهدية عاصمة الفاطميين، والثاني هو مسجد الناقة، [63] الذي بناه الخليفة المعز لدين الله أثناء مروره بمدينة طرابلس متوجها إلى مصر عام 362ه فهو يعتبر أقدم جامع في طرابلس.[64]

ثانيا: الكتاتيب[65] وهي من أقدم وأهم المؤسسات التعليمية بعد المساجد، وقد عرف المغرب إبان العهد الفاطمي الكتاتيب الخاصة والعامة ، فالخاصة كانت تنصب في قصور الفاطميين والعامة كانت تنصب في زوايا وأركان المدن، [66] فقد ألفت في هذا الجانب كتب منوعة

---

[62] شيد مسجد القيروان من طرف عقبة بن نافع الفهري ولقي هذا الجامع شهرة واسعة في المغرب، محمد بن زيتون: القيروان، ودورها في الحضارة الإسلامية، دار المنار، القاهرة، ط1 ، 1408ه، 1988م، ص 425.

[63] سمي بمسجد الناقة المحملة ذهبا التي أهداها الخليفة الفاطمي المعز لدين الله لأهل طرابلس، أنظر أحمد مختار عمر: النشاط الثقافي في ليبيا، منشورات كلية التربية، طرابلس، ط1، ص 126.

[64] يوسف بن أحمد حوالة: المرجع نفسه، ص132.

[65] جمع كتاب: وهو مشتق من لفظ التكتيب و تعليم الكتابة، وقد يقال له المكتب و هو موضع التعليم كمقعد ،أنظر: الفيروز أبادي: القاموس المحيط، دار الريان، بيروت، ج1، 1407ه، 1978م، ص12.

[66] نشيدة رافعي: المرجع نفسه، ص 33

ككتاب الجامع للفزار الذي أهداه للخليفة الفاطمي المعز لدين الله، [67] فكتب هذه المؤلفات بلغة بسيطة تدعم الاتجاه التعليمي الفاطمي في التأليف، فكانت هذه المؤلفات موجهة للصبيان من المتعلمين حرصا على نشر الدين وتبسيط اللغة كما كان لها دورا مهما في تنشيط الحركة الثقافية عموما.

ثالثا:المكتبات من أهم المؤسسات التعليمية التي أسهمت في نشر الثقافة والعلوم، إذ كان الكتاب يشكل أهمية بالغة عند الخلفاء الفاطميين لذلك اعتنوا بالمكتبات والكتاب لأسباب عديدة أهمها السعي لنشر التعليم واعتناء الخلفاء أنفسهم بحفظ كتب آبائهم، وجهدهم في اقتناء نفائس الكتب والمخطوطات، [68] وقد عرف العصر الفاطمي نوعين من المكتبات الخاصة والعامة ، كما قد عرف حركة علمية، وحركة عقلية ناشطة قائمة على الوعي وتبادل الأفكار، ومن المكتبات التي شاعت مكتبة بيت الحكمة، [69] حيث كان لها نشاطا ثقافيا قام به علماء بيت الحكمة وأطباءه وأدباؤه، من دراسات وترجمات وتأليف في شتى الميادين، ومن بين هؤلاء الذين أثروا بيت الحكمة بمؤلفاتهم، أبي اليسر الشيباني، وأبو جعفر البغدادي بالإضافة لعدد من الأطباء كأحمد بن الجزار وموسى ابن العزار وإسحاق بن سليمان سهل بن دونش الإسرائيلي.

---

[67] حسن بن حسن و طه أحمد شرف، المعز لدين الله: منشورات مكتبة النهضة المصري،القاهرة، مصر، 1963م، ص 89

[68] نشيدة رافعي، المرجع نفسه، ص 449.

[69] أسسها ابراهيم أحمد المعروف بابراهيم الثاني: وسميت ببيت الحكمة ببغداد، أنظر :رابح بونار: المغرب العربي تاريخه و ثقافته، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، ط2، 246هـ، 878م، ص 56.

إضافة إلى ذلك مكتبة المنصور بالمنصورية التي احتوت على آلاف المخطوطات النادرة. [70] لقد ساهمت عدة عوامل في ازدهار الحياة الثقافية ببلاد المغرب الإسلامي، وأبرزها هي تشييد الفاطميين لمراكز إشعاع فكري ومؤسسات تعليمية أثرت بذلك على الحركة الفكرية فنتج عنها تفعيل لحركة التأليف .

لقد احتضنت الدولة الفاطمية الكثير من الآداب والمجالات الفكرية والسياسية والثقافية إلا أن المجال العلمي فيها كان له الدور الأبرز ويظهر ذلك من خلال تشجيعها للعلم بشتى أنواعه مما جعلها محطة أنظار كل العلماء ومطمح معظم طلاب العلم إذ أنها استطاعت إن ترسم لنفسها اسما ساطعا لما حققته من انجازات وتصبح عاصمة للعلوم والمعارف الإسلامية. ومن أشهر العلوم التي نجحت فيها الطب عرف العصر الفاطمي تطورا كبيرا في مرحلته العلمية حيث "كانت الروح العلمية في مجالات الطب والكيمياء والرياضيات متقدمة فيها من قديم وخاصة في الإسكندرية ومن اكبر علمائها بطليموس المولود بالصعيد (عن الدوميلي) وقد نزلها جالينوس المشهور وقد شهدت نهضة كبيرة على يد هيروفيلوس الذي اشتهر بتشريح العين وإضرابه [71]، كما ارتبط الطب في العصر الفاطمي بعدد الأطباء اليهود الذين ساهموا في تطوره وأغلب هؤلاء الأطباء عاصروا الدولة الأغلبية

[70] حسن حسني عبد الوهاب: ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية، منشورات مكتبة المنار، تونس، ج1،1972م، ص 36 ص39

[71] محمود عبد العزيز الزغبي الجزء الثاني:المحكم في تاريخ الطب، أمواج التراث للطباعة و النشر و التوزيع، عمان، الأردن، ص 560.

ثم التحقوا بخدمة الفاطميين بعد قيامها ببلاد المغرب الإسلامي ومن بين هؤلاء الأطباء المشهورين إسحاق بن سلمان الإسرائيلي توفي في (320 هـ)...[72] لازم الطبيب إسحاق بن عمران وتتلمذ عليه ... فأسهم في إثارة الحياة العلمية في المغرب ومهما يكن في الأمر فإن إسحاق بن سلمان الإسرائيلي قد ترك مجموعة من الكتب الطبية القيمة كتاب الأدوية المفردة والأغذية كتاب مدخل إلى صناعة الطب و كتاب الحميات"، [73] وكما قد عرفت كذلك الكثير "من الأطباء الذين عاشروا الدولة الفاطمية الأغلبية زياد بن خلفون وهو احد الذين تلقى علومه الطبية على يد سلمان بن عمران والتحق بخدمة الخليفة عبيد الله المهدي بعد أنت تولى الخلافة،[74] وكذلك ممن تتلمذ وعلى يد إسحاق بن سليمان الإسرائيلي "في الطب احمد بن الجزار وزياد بن خلفون وفي الطب والفلسفة إسحاق بن سليمان الإسرائيلي والفلسفة أبو سعيد الصقلي".[75] أن هؤلاء الأطباء يعدون بمثابة مرجع هام لكل إنسان حيت أن مجهوداتهم ساهمت في إنقاذ الكثير من الناس في القديم و الحاضر كما إن أسرة الجزار التي اشتعلت بالطب فابنها" احمد إبراهيم الجزار وإسحاق بن سلمان فتح دار لمعالجة المرضى وهيأ سقيفته

[72] شوكت شطي: مختصر في تاريخ الطب و طبقات الأطباء عند العرب، جامعة دمشق، 1379هـ،1959 م، ص45.

[73] يوسف حوالة: الحياة العلمية في إفريقيا منذ الفتح حتى منتصف القرن الخامس للهجري، مركز بحوث الدراسات الإسلامية، مكة المكرمة، ص 386.

[74] حسين حسن عبد الوهاب: ورقات عن الحضارة العربية بإفريقيا التونسية، منشورات مكتبة المنار، تونس، 1972م، ص241 ص 242.

[75] محمود عبد العزيز الزغبي: المرجع نفسه، ص 579.

يبيع فيها غلامه ما كان فيها من أدوية بإرشاد ابن الجزار نفسه".[76] اهتم بجمع الكتب الطبية وتأليفها ومن بين أهم مؤلفاته نذكر" رسالة في الزكام، رسالة في النوم واليقظة، طب الفقراء المساكين. [77] فإن مؤلفاته هذه تعد زاد معرفي في علاج مختلف الأمراض وهي من أهم مراجع التي شاع بها القرن الرابع للهجري.

الفلك:" شهدت مصر في عصر الحكم الفاطمي الإسلامي نهضة علمية كبيرة بداية ببناء اعرق جامعة عربية إسلامية الأزهر الشريف منذ ألف عم في القاهرة المعز لدين الله الفاطمي مرورا ببناء المراصد الفلكية كمرصد الجيوشي .. ومرصد المأمون بباب النصر حيث سميت هذه المراصد بأسماء الوزراء الذين شيدوها ".[78] لقد كان للفاطميين تطلع لجعل من مصر قاعدة لانطلاق دعوتهم في الاتصال ببقية الدول وإنشاء محطة لتحقيق مختلف أهدافهم السياسية والإستراتيجية والمعنوية "وفي (30 إبريل 1006) رصد الفلكي العربي المسلم علي بن رضوان ظاهرة حدوث سوبر نوفا (نجم متفجر) في مدينة الفسطاط (مصر القديمة) جنوب القاهرة حيث قام بتسجيل هذه الظاهرة بتفصيل عال وتحديد موقعها بدقة بالغة في كتابه (بالأرباع) والذي ترجم إلى اللاتينية في العصور الوسطى حيث اعتبر كواحد من أهم المراجع الفلكية في أوروبا في ذلك الوقت، ثم تم رصد سوبر نوفا علي بن رضوان بالتلسكوب الفضائي هابل و بالأقمار الصناعية بأشعة اكس وجاما وبالمناظير

[76] حسن حسني عبد الوهاب: المرجع نفسه، ص 239 – 241.

[77] حسن حسني عبد الوهاب: المرجع نفسه، ص245 ص246 .

[78] ايناس محمد البهيجي: تاريخ الدولة الفاطمية، نشر مركز الكتاب الاكاديمية، ط01، ص 66.

والراديوية من على سطح الأرض ويعتبر أقوى وأعظم انفجار لنجم في تاريخ البشرية.[79]

كما أنه كان الخلفاء الفاطميين مولعين بالفلك والتنجيم ومن أشهرهم " الخليفة المنصور" كان هو الآخر عالما بالنجوم، لكنه غير مؤمن بتأثيرها وكان يقول دائما: وقفت في مواقف الحروب التي وليتها أيام الفتنة،إلى حين اختيارها فما وقفت موقفا منها باختيار العلم من علوم النجوم".[80]

الرياضيات : كما نعلم بان الرياضيات تعد ملكة العلوم فهي تعتبر مقياس الذي يقاس من خلالها ميزان التطور والتفوق وبها تقوم الأمم والحضارات فالرياضيات تلعب دور كبير في تطور شتى العلوم الأخرى مثل الطب والكيمياء وغيرها ولقد عرفت الدولة الفاطمية الكثير من العلماء الذين أبدعوا في هذا المجال" ولعل أشهر علم رياضي شهدته مصر الفاطمية هو الفيلسوف أبو علي بن الحسن بن الهيثم .. اتفق المؤرخون على أن ابن الهيثم كان علما متقنا لعلوم كثيرة في الرياضيات والطبيعيات حتى لقب ببطليموس الثاني وقد ثبت أن ابن الهيثم هو أول من انشأ علم الضوء بالمعنى الحديث والجود والأصول التي نراها الآن، كما أن ابن الهيثم في حل شؤون إقليدس يظهر من دقة التفكير والتعمق في البحث والاستقلال في الحكم بما يدل هي أنه من علماء الرياضة البحتة أيضا". [81] لقد عرف ابن الهيثم بذكائه

---

[79] ايناس محمد البهيجي: المرجع نفسه، ص105.

[80] القاضي النعمان: المجالس و المسايرات، ص 135.

[81] محمد كامل حسين: الحياة الأدبية و الفكرية بمصر من الفتح العربي إلى آخر الدولة الفاطمية، البندقية للنشر و التوزيع، شارع النيل القاهرة، مصر، ط1، 2016م، ص 58 ص59

مما جعله يترصد المراتب الأولى في علم الرياضيات ونجح في تأطير أسس وقواعد لهذا العلم كما " نسمع في هذا العصر عن رزق الله النحاس المنجم الرياضي الذي كان شيخ المنجمين الرياضيين في عصره وأخذ عنه عدد من المصريين".[82]

كما أن " الفلكيين والرياضيين الذين عاشوا في العصر الفاطمي بالإضافة للخلفاء نجد الطيب أبو سهل دونش الإسرائيلي الذي صنف كتابا في الفلك والحساب ككتاب الحساب الهندي المعروف بحساب الغبار وكتاب في الفلك و حركة الكواكب، ومصنف كبير في علم الفلك، أهداه للخليفة المنصور". [83] ومن ذلك نستطيع أن نقول أن المصريين أسهموا في الدراسات الفلكية والرياضية بألوانها المختلفة وكثرة الكتب التي وضعها المصريون في هذه العلوم وذلك بفضل تشجيع الخلفاء الفاطميين لهذه الدراسات ".[84]

-نماذج من خطب الفاطميين:

أ) خطبة المنصور أبو الطاهر إسماعيل بن محمد بن عبيد الله المهدي الملقب بالمنصور الله التي قال فيها:

"اللهم إنك قلدتني أمر عبادك في بلادك اللهم فأصلحني لهم وأصلحهم لي وارزقني حج بيت الحرام، ثم ذكّر مناسك الحج فانصرف فأمر للناس بالطعام فأكلوا وانصرفوا، ونفذت

[82] حسن حسني عبد الوهاب :المرجع نفسه، ص 59.

[83] حسن حسني عبد الوهاب: المرجع نفسه، ص 303.

[84] محمد كامل حسين: المرجع نفسه، ص 59.

كتبهم بسلامة العيد وكماله وتمام النعمة فيه، وتلك سنهم لم يزالوا عليها إلى أن انقرضوا، وقد رأيت بعض كتبهم بذلك، وكان في هذا العيد قد أنهض من أهل القيروان ألف شيخ وألف حدث، فلما وصلوا خيرهم في التعييد معهم أو الانصراف، فعيد البعض وانصرف البعض وعيد عيد الفطر وهو مجاهد لأبي يزيد بقلعة كياتة."[85]

نلاحظ في هذه الخطبة أن المنصور لم يبدأ خطبته بالبسملة أو الاستفتاح، ولكنها من حيث الألفاظ والنسج جاءت على شكل الخطبة العربية، فاهتم فيها بتوظيف السجع(عبادك-بلادك)، (انصرفوا-انقرضوا)، (أصلحني-أرزقني). كما تضمنت هذه الخطبة أسلوب من الأساليب الإنشائية الطلبية ألا وهي الدعاء، كما تميزت بمتانة الأسلوب وعذوبة الألفاظ وقوة التأثير.

ب) خطبة الفقيه المشهور ربيع القطان:

"الحمد لله الرحمان، الفرد الديان، الصمد الموجود بكل مكان، الحي المعبود الذي كشف الأغطية عن قلوب أهل خالصته فأبصرت، وفتح بأنوار الإيمان دياجبها فأشرقت، ونزع عنها قناع الجهل، فأسرعت ودعمها برفيع العلم فتأيدت، وجالت بنوافذ لمحاتها في الملكوت فأيقنت، فغدت لدى تكوين الرياضيات مشربها، وجل بفضل العزيز في المعارف خطبها، حتى أحلهم-تعالى- برياض ونهر مبرته، وكساهم حلل أهل معرفته، وتوجهم بتيجان أهل

[85]) ابن حماد، أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، تح: التهامي نقرة وعبد الحليم عويس، دار الصحوة، القاهرة، د.ط، ص59.

مودته، ومكن رتبهم بأوطان الصديقين، وسقاهم صفوا من شراب المقربين، وأوزعهم الشيم الزكية، والأخلاق الرضية، عند تلوين الأقدار وتصرف الاختيار، فجعلهم في الدار أوتادا، وله عبيد أو حادا لا يفزعهم دونه صوت ملكا جبارا ولا صولة ذي السلطان قهار، إذ هو تعالى جل وعز حضنهم الذي لا يضام، وكهفهم الذي لا يرام، (أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون)، ثم أحلهم تعالى ما به آمنوا من دار الأمان، وأشدهم مصداق وعده هناك بالإيمان، منا منه عليهم وتطول منه لديه، وإحسانا منه إليهم، سبحانه لا إله إلا هو الرحمان الودود."[86]

نلاحظ في هذه الخطبة أن القطان قد افتتحها بالحمد لله، ووظف بعض أسمائه، وقد كان كلامه فيها عميق المعاني بعمق إيمانه، وكذا فوز عباد الله المخلصين العابدين، وقد جاء المضمون بأسلوب محكم، جيد العبارة، مختار اللفظ، وكذلك عمد إلى الاستشهاد من القرآن الكريم الذي يعد عنصرا مهما خصوصا في الخطب الدينية السياسية.

-ومن الفنون النثرية التي شهدها العصر الفاطمي أيضا الرسائل:

"وتختلف الرسائل عن السجلات المنشورة في طبيعتها، فهي من المرسل إلى المرسل إليه، وق تقتضي الإجابة، أو لعلها تكون إجابة عن رسالة أخرى وغالبا ما نرى مثل هذه الرسائل

[86]) أبو بكر المالكي، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية، تح: بشير البكوش، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط2، 1994، ص42.

المتبادلة بين العلماء والأدباء، وتختلف في موضوعاتها ومناسباتها. ومنها الرسائل الإخوانية التي تدعو صاحبا أو صديقا لزيارته، أو يكتب إليه متشوقا أو سائلا عن أخباره."[87]

نلاحظ مما سبق أن الرسالة هي مكتوب يتم بين طرفين(المرسل والمرسل إليه)، فتكون إما إجابة عن موضوع معين، أو مجرد مكتوب متبادل بين الشخصيات. وتختلف موضوعاتها باختلاف مضامينها والمناسبة التي قيلت فيها كالرسائل الإخوانية، الرسائل الديوانية، الرسائل الوصفية، الرسائل السياسية...

-نماذج من رسائل الفاطميين:

أ) رسالة حسن بن زيد الأنصاري في إحدى رسائله التي كتبها في التهنئة بولاية يقول:

"من هنئ بمنزلة يرتقيها، أو مرتبة يعتليها، فالخدم تهنئ بالحضرة لما يكسوها من جميل السيرة، والإنصراف الذي يتعادل فيه الجهر والسريرة، فخلّد الله ملك المجلس العالي المالكي وثبت أيامه، ونصر أعلامه، فإنه منظور فيها يناظر البصيرة التي تمده القوة الفلكية، وسلك بتقديمها نهج السعادة التي توضحه المادة الإلهية، فأصاب الضريبة، ووقع العقد في التربية، وأرهف الحساب القاطعة، وأضرب الشهاب الساطع."[88]

ب)وفي رسالة أخرى كتبها إلى صديق لم يهنئه بالشفاء بالمرض:

[87]) محمد سلام زغلول، الأدب في العصر الفاطمي، منشأة المعارف، الإسكندرية، د.ط، ص236.
[88]) ينظر:محمد كمال حسين، الحياة الفكرية والأدبية بمصر من الفتح العربي حتى آخر الدولة الفاطمية، مؤسسة هنداوي، ط1، 2017، ص(194-195).

"إذا قدم الوداد، وصح الاعتقاد، وصفت الضمائر، وخلصت السرائر، حل الإيحاء المكتسب محل أخوة النسب، وصار المتعاقدان على الإيثار، والمتحابان على بعد الدار، متساهمين فيما ساء وسر، ومتشاركين فيما نفع وضر، وتلك حالي وحال حضرة مولاي، فإني وإياها كنفس قسمت على جسمين، وروح فرقت بين شخصين، فأما ألمها فقد مضني وأزعجني، وأما برؤها فقد سرني وأبهجني، وعرفت خير إبلاغها، من ألم كان بها، فشكت الله على خليتين معا، أحدهما لو أنني كنت أعلم بألمها، كنت ألاقي ما يكدر الشراب، ويمنع تلاقي الأهداب، وأجد على حال الصحة ما يجد المريض، وأرى الدنيا على آثاره بعين البغيض، والأخر علمي ببرئها عند حلوله، ومعرفتي به عند تخييمه بساحتها ونزوله."[89]

ومن خلال الرسالتين السابقتين يظهر لنا أنها فيها صناعة الكاتب الفنية، كما اهتم بالتصوير والتشخيص ومراعاة النظير، مع التأنق في اختيار اللفظ الذي يتلاءم مع غيره في الجملة ويؤدي إلى نوع من الموسيقى بلذ السمع ويتفق مع المعنى المراد، كما يعتمد الكاتب على السجع في فقرات متفاوتة بين الطول والقصر، تتناسب مع المعنى ونبضه، وما يلزمه من الجرس الخافت أو الضجيج، كما يقابل بين المتضادات فيلجأ لفن الطباق والمقابلات.

4) الحياة العلمية:

لم يعرف التاريخ دولة اهتمت بالعلم والعلوم واحتضان العلماء، وتشجيع طلاب العلم، والاهتمام بالعلوم المختلفة كالدولة الفاطمية، حيث أصبحت القاهرة في عهد الفاطميين محط

[89]) المرجع نفسه، ص195.

أنظار العلماء ومطمح طلاب العلم حتى استطاعت بحق أن تكون عاصمة للعلوم والمعارف الإسلامية.

"يعد عصر الفاطميين من أزهى عصور مصر الإسلامية، وبلغت الحياة العلمية في هذا العصر درجة كبيرة من النمو، ووجدوا من التشجيع ما جعلهم يذكرون مصر والأئمة بالخير، وكثرة المؤلفات في كل فن من فنون العلم. وفي العصر الفاطمي استطاعت مصر أن تنزع زعامة العالم الإسلامي في الحياة العلمية، وأن تبسط آرائها وتعاليمها على المدن الأخرى، حتى نرى بعض العلماء الذين كانوا ينقمون على الشيعة والفاطميين خاصة يفدون على مصر، ويتأثرون ببعض الآراء التي كانت سائدة فيها. وقد اهتم الفاطميون بإنشاء خزائن الكتب بالقصر وفي دار العلم حتى يتسنّى للعلماء أن يطلعوا ويستفيدوا مما تركه السابقون."[90]

نلاحظ مما سبق أن الدولة الفاطمية اهتمت بشتى مجالات الثقافة العلمية، كما أنها ازدهرت ازدهارا لا يوجد له مثيل في الأقطار الإسلامية الأخرى وذلك من الناحية العلمية لما بلغته من درجة كبيرة في النمو لكثرة العلماء والمؤلفات المتنوعة.

-وقد اهتم الفاطميون بعلوم أخرى منها:

أ-العلوم الفلسفية:

[90]) ينظر:محمد كامل حسين، في أدب مصر الفاطمية، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ط1، ص(93-95).

"إن العلوم الفلسفية على اختلاف ألوانها وفنونها تزدهر في العصر الفاطمي ويرعاها الفاطميون، بل كان من الخلفاء الفاطميين من أتقن هذه العلوم وبرز فيها. كما اهتموا بهذه الألوان الفلسفية والمذهبية؛ إما لإدخال بعض عناصر منها في عقيدتهم وآرائهم، وإما للرد عليها وتهجين هذه الآراء القديمة. وذكر المؤرخون أن اهتمام الأئمة بهذه العلوم كان وسيلة لإدعائهم معرفة الغيب، كما يروون بعض الروايات وهي أقرب إلى الخيال منها إلى الحقيقة."[91]

وصفوة القول أن العلوم الفلسفية ازدهرت في العصر الفاطمي ازدهارا لا نجد له مثيلا في الأقطار الإسلامية الأخرى، بل نجد غير الفاطميين كانوا يجنحون إلى اعتبار الدراسات الفلسفية دراسة إلحادية، وقد كان الفاطميون أوسع أفقا في التفكير، فكان مذهبهم يقوم على الفلسفة فازدهرت الحركة العلمية وقوى البحث للوصول إلى المعرفة الحقيقية.

ب- علوم اللغة العربية:

-علوم االغة والنحو:

"هناك دراسات عربية في علوم اللغة والنحو، ورواية للأدب القديم وشرحه ونقده، وكانت هذه العلوم تسير جنبا إلى جنب مع غيرها من الدراسات التي أقبل عليها العلماء والمتعلمون في مصر، حيث وجدت في مصر مع بداية قراءة المسلمين للقرآن الكريم. مع اهتمامهم بإعجامه، وقد استمر تيار هذه الدراسات بمصر في العصر الفاطمي والعصور

[91]) ينظر: المرجع نفسه، ص101.

التي تليه وكثر العلماء الذين انقطعوا إلى هذا العلم وعرفوا به، وقد حرصوا على إقتناء الكتب اللغوية والنحوية وجعلوها مع غيرها بين يدي العلماء والمتعلمين."[92]

نستطيع أن نلمس هذا النشاط في درس علوم اللغة بمصر في هذا العصر وكيف كثر عدد العلماء وكثر إنتاجهم كما تعدّدت أماكن هذا الدرس في المساجد.

-القراءات وعلوم القرآن:

"من المعروف أن العلوم العربية والإسلامية إنما نشأت بسبب القرآن الكريم، وما يدور حول دراسة القرآن...فعلم النحو وعلوم اللغة لم تنشأ إلا بسبب القرآن...واستمرت هذه الدراسات تنمو وتزدهر حتى جاء الفاطميون فأولوا هذه الدراسة عنايتهم ورعايتهم...وهكذا كان لعلوم القرآن في مصر مكانة خاصة، وكثرت فيها المؤلفات."[93]

كان للقرآن الكريم فضل وأثر كبير في نشأت العلوم العربية والإسلامية، فعملت هذه الأخيرة على ضبط حروف القرآن الكريم، وتفسير غريبه، ومعرفة أسرار إعجازه، وتفهم معانيه.

خلاصة عن الحياة العلمية:

[92]) ينظر:محمد كامل حسين، في أدب مصر الفاطمية، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ط1، ص118.
[93]: المرجع السابق، ص(125-127).

أفسح الفاطميون صدورهم للدراسات الفلسفية والدينية حيث أخذوا من آرائهم ونظريتهم. فالحياة العلمية كانت مزدهرة في مصر الفاطمية، وعن مصر أخذ كثيرا من العلماء، فليس من المبالغة إن قلنا إن مصر الفاطمية كانت بدءا للزعامة المصرية للأقطار الإسلامية.

5-الحياة السياسية:

سميت الدولة الفاطمية بهذه التسمية نسبة إلى السيدة فاطمة الزهراء (عليها السلام) سيدة نساء العالمين ابنة رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم :

"بدأت الدعوة الفاطمية في أخريات القرن الثالث هجري بسرية،ومن أهم الكتب التي تحدثت عنها كتب التاريخ، ثم أعلنت في شمال إفريقيا، ثم إتجه الفاطميون إلى مصر واستولوا عليها واتخذوها قاعدة لهم،ومركز نشاطهم السياسي و العسكري، ومما ساعد على تدعيم أركان الدعوة الفاطمية الموقع الجغرافي لمصر" [94]

ومن هذا الحديث يتضح لنا أن استقرار الفاطميين في شمال إفريقيا و تفكيرهم في امتلاك مصر راجع إلى أنهم رؤوا فيها مكانا صالحا لنشر دعوتهم، ومركزا لأعمالهم السياسية وتمكينها لهم من كسب ولآء الحكام في الكثير من البلاد الإسلامية.

ويحسن بنا قبل أن نغادر الحديث عن نشأت الدعوة الفاطمية، أن نلقي الضوء عن الوزراء الفاطميين.

[94]) ينظر:محمد سلام زغلول، الأدب في العصر الفاطمي، منشأة المعارف، الإسكندرية، د.ط، ص(19-20).

"وقد أصبح بمقدور الوزراء العظماء تعيين الخليفة الفاطمي أو الحجر عليه و حتى عزله، فانقلبت بذلك الأوضاع السياسية في البلاد، و كان أيضا من مهام الوزير إدارة الشؤون المالية...وتقتضي السياسية الفاطمية أن يتحلى الوزير بالصدق و الأمانة و الكفاءة، لذا لم تفرق الدولة بين من يليها أكان مسلما أم كان من أهل الذمة."[95]

العبرة التي نستخلصها من هذا الحديث أن تولي الوزارة عند الفاطميين بالكفاية المطلوبة، والعمل على إرضاء الخليفة والرعية والنزاهة والأمانة والصدق، لذا لم يفرق الفاطميون بين من يلي الوزارة سواء أكان مسلم(شيعيا، سنيا) أم نصرانيا أو يهوديا.

"إنّ العلاقة التي تربط سياسة الفاطميين الخارجية ببني بويه في بغداد كانت واقعة تحت طائلة التجاذبات السياسية بين الطرفين–وإنّ الأزمة السياسية والعداء بين العباسيين والفاطميين لم يقتصر على بغداد والقاهرة إذ شمل طريق الحج ما بين بغداد والحجاز...ولقد نجحت سياسة الفاطميين في التأثير بالعباسيين وعاصمته بغداد والذي سبب لهم مبعثا للقلق والإضطراب...وإنّ خشية الخلافة العباسية من إمتداد النفوذ السياسي للفاطميين...جعلها تتبع شتى أشكال الضغوط وحاولت فرض حظر على كل ما يتعلق بالسياسة الخارجية للفاطميين."[96]

[95]) سمير عبد الوهاب عبد ربه الحساسفة الحباشنة، ديون الإنشاء الفاطمي بمصر وجهوده الكتابية، جامعة مؤتة، 2007، ص11.

[96]) علي فيصل النبي العامري، السياسة الخارجية للدولة الفاطمية، جامعة الكوفة، 2007، ص(71-76).

يؤكد لنا هذا القول أن العلاقة التي كانت تربط الدولتين الفاطمية والعباسية هي أشبه بالحرب الباردة لعدم وجود صدام مباشر بينهما، حيث طغى الطموح السياسي على كلا الجانبين، ما جعل طبيعة العلاقات التي تربط الطرفين كقطبين متنافرين، وقد عكس هذا التباعد بينهما على طبيعة سياستهما الخارجية إزاء بعضهما البعض.

1 -حياته:

هو محمد بن هانئ بن محمد بن سعدون الأندلسي ولد بقرية سكون من قرى مدينة اشبيلية سنة 320 هـ - 932 م– وكان يكني بأني القاسم،و يقال له ابن هاني الأندلسي تمييزا له من الحسن بن هانئ الحكمي وهو أبو نواس.

قال غير واحد من المؤرخين أن نسبة ينتهي إلى ابن أبي صفرة الأزدي. وكان هاني أبو الشاعر من قرية من قرى المهدية بافريقية، وكان أيضا شاعرا أدبيا انتقل إلى الأندلس فولد له محمد بمدينة اشبيلية ونشأ بها، ولم يذكر أحد من المؤرخين شيئا عن حياة هانئ هذا ولا بعضا من شعره.

وأول من اتصل به ابن هاني من أهل الدولة صاحب اشبيلية الذي لم تذكر المصادر اسمه ولعله كان واليا لها من قبل الناصر الأموي أعزه الأمير وأكرمه وصار عنده ذا مكان ومنزلة، وأقام معه زمانا سبب مفارقته إياه أن أهل اشبيلية نقموا على الأمير وأساءوا القول فيه لإقامة الشاعر عنده لشيوع تمسكه بمذهب الفاطميين بالمغرب واتهام الناس له بمذهب الفلاسفة حتى هموا بقتله فأشار عليه صاحب اشبيلية بالغيبة عن البلدة مدة ينسى فيها خبره

اجمع المؤرخون على أن ابن هاني فارق الأندلس و عمره يومئذ نحو سبعة وعشرين عاما. ولا يوجد شيء من شعره الذي نظمه في بلده الأندلس سواء كان في مدح أمير اشبيلية أم في أي موضوع آخر. مع أن الشاعر أقام عند الأمير زمانا. ولذلك قيل أن شعر ابن هاني اشتهر في الغربة، ولم يشتهر في وطنه. بل اشتهر في وطنه. بل اشتهر في المغرب ومصر وذلك بعد خروجه من الأندلس. غادر محمد بن هاني الأندلس والتحق بالمغرب الأقصى ولقي القائد جوهرا.

فامتدحه، ثم التحق بجعفر بن علي بن حمدون الأندلسي وكان بالمسيلة عاصمة الزاب واليا عليها مع أخيه أبي زكريا يحيى الذي كان معاونا له، فقصدهما ابن هاني ومدحهما بقصائد كثيرة تعد من عيون الشعر وتملأ ثلث ديوان الشاعر فبالغا في إكرامه الإحسان إليه، وسارت أشعاره فيه وفي أخيه، فلم يزل عندهما في أرغد عيش وأعز جانب إلى أن نمي خبره إلى المعز لدين الله. فطلبه منهما، فوجهاه إليه في جملة طرف وتحف بعثا بها إليه كان أبو القاسم أفضلها عنده، فأقام عند المعز بالقيروان وامتدحه بغرر المدائح وعيون الشعر فأقام عنده وهو منعم مكرم إلى أن ارتحل المعز إلى مصر، وكان يفضله على سائر الشعراء الذين كانوا عنده، كما يشير إلى ذلك قوله:

فما تكامل من قبلي لمرتقب – إذنا، ولا لخطيب ما تكامل لي و لما بلغه خير وفاته وهو بمصر تأسف عليه كثيرا وقال: " هذا الرجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق فلم يقدر لنا ذلك " وفي سبب وفاة ابن هاني أقوال كثيرة.

2 -شعره:

أكثر شعر ابن هاني في المدح لأن ذلك كان الغرض الأول من شعره مدح في بلده صاحب اشبيلية، وبعد خروجه من الأندلس صار شاعر بني حمدون في المسيلة، مدح جعفر بن علي وأخاه يحيى وابنه إبراهيم ولكن أكثر أمداحه خصها بالمعز لدين الله الفاطمي فكان شاعره وشاعر دولته، وله قصائد في الرثاء والهجاء و الوصف، ولكنها أقل شعره شهرة وذيوعا. غير أن هذه القصائد الطويلة في مدح الأمراء اشتملت على جميع أعراض الشعر من مدح وهجاء أنواع الشعر. وأجاد فيها وأكثر هذه الأعراض المديح والغزل والوصف أما

الغزل فقد جاء فيه بأرق المعاني و أخفها على النفوس وأن كرر ما ذكر في شعر غيره من المعاني المعروفة إلا أنه يمتاز بحسن صوغ تلك المعاني ونظمها في أسلوب ساحر.

مما جعل لهذه المعاني صبغة خاصة كأنها جديدة في نوعها.

كان لا يعمد إلى وصف حقيقة من الحقائق حتى يلجأ إلى الخيال. فإذا وصف جيشا سائرا أثر الأمير قال: أنه سدا لأفق حتى أخفى الشمس وأصبح كأنه لجة لا يقدر أحد على خوضها وإذا مدح الأمراء مدحهم بفضائل شتى مع كثير من المبالغة ولم تكن له عناية بتحري الحقائق في شعره. وغايته الوحيدة رفع شأن الممدوح أيا كان. يصف الرجل بما ليس فيه و كأنه جمع صفات الكمال وحده ويجعله كل شيء في الوجود فيقول:

هو علة الدنيا ومن خلقت له ولعلة ما كانت الأشياء

ليست سماء الله ما ترأونها لكن أرضا تحتويه سماء

نزلت ملائكة السماء بنصره وأطاعه الإصباح والإمساء

يذكر لنا الدكتور محمد الميعلاوي في كتابه ." شاعر شيعي من المغرب: محمد بن هاني" أن الشعر الذي نظمه ابن هاني في المسيلة يمدنا بمعلومات شتى حول بني حمدون: جعفر بن علي وأخيه يحي وابنه إبراهيم جعفر أمراء المسيلة عاصمة الزاب. ويطلعنا أيضا عن المحيط الذي عاش فيه هؤلاء الأمراء ويصف لنا كيف مرت حياتهم في فترة ازدهار حضارتهم اللامعة في المسيلة.

3 -حياة البلاط في المسيلة عاصمة الزاب :

إن شعر ابن هاني يجعلنا نتخيل أن جعفر بن على كاد يكون أميرا مستقلا على الزاب- لأن ابن هاني في الشعر الكثير الذي نظمه في بني حمدون لم يتعرض فيه لذكر المعز ولا لتعبية جعفر له. لأن الشاعر كان بعيدا عن المشاكل التي أثارتها الحياة في عاصمة الخلافة. ويضفي ابن هاني على بني حمدون في شعره ألقاب الملوك. فهو يقول لجعفر:

جزيل الندى والبأس تصدر كفه - وقد نازلت ألفا. وقد وهبت ألفا

وما سدد الأملاك من قبل جعفـــر ولا أنكروا نكرا ولا عرفـوا عرفا

ويقول ليحي:

لنا مثل يحيى، و البريــة كلهـا له خول حتى الملـوك العباهـــل

وحتى لإبراهيم بن جعفر:

لا أرى كابـن جعفـر بن علـي ملكـا لا بسا جلالـــة ملك

إن هذه الألقاب الملكية التي يطلقها ابن هاني على جعفر ويحيى كانت لدنه أحط وأقل من لقب إمام أو خليفة .

وهكذا يدعو جعفر بن علي ملك الزاب في قوله:

ويا ملك الـزاب الرفيـع عمـاده بقيت لجمـع المجـد ، وهو فريق

ثم يقول له بعد ذلك أنه يد المنصور:

وكنت يدا لمنصور، منصور هاشم لدى البطش إذ أيدي القوارس سوق

وربما يستخدم ابن هاني من غير تمييز لقب " ملك" أو لقب " أمير" أي عامل ولاية أو قائد جيش – وهكذا يلقب جعفر بن علي بلفظين في بيت في قوله له:

فما أنس لا أنس الأمير إذا غدا يروع بمـــرأى ملكـه و يـــروق

فإن شبه استقلال أسرة بني حمدون يظهر جليا للعيان في الحياة الواقعية، وكانت متمثلة في حياة البلاط الراقية الفاخرة التي نسمع أصداءها لدى المؤرخين ولدى ابن هاني الذي يرينا تزاحم و فود القبائل على باب جعفر بن علي كما لو كان خليفة بغداد، يقول ابن هاني:

ورأيت حولـي وفـد كل قـلة حتـى توهمت العـراق الزابـا

وتشبيه الزاب بالعراق الذي كان مضرب الأمثال في الحضارة الراقية قد استعمله الشاعر في قوله:

تبغدد منـه الـزاب حتـى رأيتـه يهب نسيـم الروض فيـه فيستجفـى

وقد يعبر ابن هاني عن إعجابه بالزاب ويسمو منزلة بني حمدون فيقول في مدح جعفر:

خليلي أين الزاب مني و جعفر وجنات عدن بتت عنها و كوثر

أتى الناس أفواجا إليك كأنها من الزاب بيت أو من الزاب محشر

و يقول لإبراهيم بن جعفر الذي كان يستقبل الزائرين من الشعراء العفاة:

فكأنا – صبية الأذن – تلقي - دونه المشرفي هز لبتك

وربما يخاطب ابن هاني الأمير يحيى داعيا له إلى شيء من اللهو والترفية عن النفس وإراحتها – حينا بعد حين – من عناء حياة الجد و التزمت و الصرامة في قوله له:

ولا خير في الدنيا إذا لم يفز بها مليك مفدى في اقتبال من العمر

ألا أنعم بأيام ألذ من المنى تحللت بآداب أرق من السحر

من قوله في مدح جعفر بن علي:

وما لجود شيئا كان قبلك سابقا بل الجود شيء في زمانك حادث

نظمت رقيق الشعر فيك وجزله كأني بالمرجان والدر علبت

حلت يمينا أنني لك شاكر وأني – وأن برت يميني – لحانث

ومن قوله يمدحه:

الهدنفان من البرية كلها جسمي وطرف بابلي أحور

و المشرقات النيرات ثلاثة الشمس والقمر المنير و جعفر

ومن قوله في الغزل:

فمن في مأتم على الشاق ولبسن السواد في الأحداق

وبكين الدماء بالعنم الرط ب المقني، وبالخدود الرفاق

ومنحن الفراق رقة شكوا هن حتى عشقت يوم الفراق

حاربتهم نوائب الدهر حتى آذنوا بالفراق قبل التلاقي

ودنوا للوداع حتى ترى الأجـ ياد فوق الأجياد كالأطواق

يوم راهنت في البكاء عيونا فتقدمت في عنان السباق

أمنع القلب أن يذوب ومن يمـ نع جمر الغضا عن الأحراق

ومن قوله الجد والعبرة:

أنا ، وفي آمال أنفسنا طول ، وفي أعمارنا قصر

لنرى بأعيننا مصارعنا لو كانت الألباب تعتبر

أي الحياة ألذ عيشتها من بعد علمي أنني بشر

خرست لعمر الله ـ ألسننا لما تكلم فوقنا القدر

من بين الشعراء الذين عاشوا في عهد الفاطميين والزيريين – علاوة على ابن هاني الأندلسي الذي تحدثنا عنه – عبيد الله المهدي وأبو عبد الله الشيعي و جعفر بن فلاح حوقل وعبد الكريم النهشلى وابن أبي سهل الخشني وأبو نوح السعيد بن يخلف المزاتي وأبو سهل الفارسي أبو عمران موسى بن زكريا المزاتي وأحمد بن قاسم التاهرتي إماما يخص عبيد الله المهدي فقد سبق في التاريخ السياسي للفاطميين أن ذكرنا له مقطوعة شعرية وقد ورد في كتاب البكري مقطوعة شعرية من نظم أبي عبد الله الشيعي وهي:

من كان مغتبطا بلن حشية فحشيى وأريكتي سوجي

من كان يعجبه ويبهجه نقر الدفوف ورنة الصنج

فأنا الذي لاشيء يعجبني إلا اقتحامي لجة الوهج

سل عن جيوشي إذ طلعت بها يوم الخميس ضحى من الفج

وأراد بالفج فج زيدان المطل على مدينة طبنة.

ومما امتاز به أبو بكر زكريا يحيى بن علي في أسرة بني حمدون موهبته الشعرية، فهو من بينهم الوحيد الذي رويت له مقطوعة من الشعر الجيد، رواها ابن الأبار في الحلة السيراء ، قال أبو زكريا يحيى يصف فرسا كريما:

ومتممـــا في خلقـــه لم يـــخس عارى الأديـم، من الملاحـة مكـتس

صلت إليه الخيل ، فهو أمامهـــا وهو المقـدم عندهـــا في الأنـــــفس

وكـــأن لون أديمـــه من سوسن و كـــأن لون لجامـــــه من نرجس

وكان جعفر بن فلاح الكتامي المتوفي سنة 360هـ 971م من قبيلة كتامة واحد فواد المعز أبي تميم الفاطمي، وكان شجاعا مظفرا، سيره المعز مع القائد جوهر لافتتاح الديار المصرية، فلما دخلاها بعثه جوهر شجاعا إلى الشام، فامتلك مدينة الرملة (بفلسطين) في ذي الحجة سنة 358هـ 969م. ثم قصد دمشق فامتلكها في شهر المحرم سنة 359هـ 969م، وأقام بها إلى أن قتل يوم الخميس 6 ذي القعدة سنة 360 هـ 971م، قتله الحسن بن أحمد القرمطي (278هـ – 366م/ 891هـ- 976م) الملقب بالأعصم وكان من الشجعان الدهاة وله شعر.

قال ابن تغرى بردى في نجومه: " كان جعفر بن فلاح الكتامي أديبا شاعرا فصيحا كتب مرة إلى الوزير يعقوب يقول له:

ولـــى صديـــق ما مسنـــــى عدم مذ نظـــــرت عينـــــه إلـــى عدمـــــي

أعطـى وأغنـــى ولـــم يكلفنـــي تقبيـــــــــــــــــل كف له ولا قدم

وقال ابن الأبار في الحلة: " هذا من رجال الدولة العبيدية ... ولم يقع إلى خبره ما اذكره ها هنا سوى امتداح أبي القاسم بن هاني إياه وحسبه بذلك نباهة، وكفاه ..... ووجدت منسوبا إليه:

ويـــوم كأن الغيـــم تحت سمائـــه حكى مقلتي سحا، ولم يحكني ضنى

كأن الغوادي بالمثانـــي نضحنـه وألبسته ثوبـا من الخز أذكنـــــا".

وقال ابن خلكان في الوفيات: " كان جعفر رئيسا جليل القدر ممدوحا وفيه يقول أبو القاسم محمد بن هانئ الأندلسي الشاعر المشهور:

كانت مساءلة الركبـــان تخبرنـــي عن جعفر بن فلاح أطيب الخبـــــر

حتى التقينـا، فلا و اللـه ما سمـعت أذني بأحسن مما قد رأى بصرى

أبو مضر محمد بن حسين الطبني: (ت 394هـ/ 1004م).

ولد أبو مضر الطبني في طبنة عاصمة الزاب، وانتقل إلى الأندلس سنة 325هـ/ 937م، روى ابن حيان له في المقتبس مقطوعات كان يلقيها في المحافل الرسمية على نحو ما كان يقع عند حلول أعياد الفطر والأضحى قال ابن حيان: وفي عيد الأضحى في العام (360هـ/ 970م) جلس فيه الخليفة الحكم على السرير بقصر الزهراء للتهنئة وظلت الخطباء والشعراء خلال ذلك ترتجل القول وتنشد الشعر، فكان من أحسن ذلك قول أبي مضر محمد بن حسين الطبني في شعر طويل يقول فيه:

نظر الالـه إلـى البريـة رحمـــة فاختـــار أفضلهـا لهـــا وتخيـــرا

ملك أقـــام العـــدل في أسامـــة سوقـا، فصار الحق فيـــه متجـــــرا

لم يجر طيب ذكـره في مجـــلس إلا حسبت به الهـــــواء تعطـــــرا

ملأ العبـــاد سنـــاؤه وثنـــاؤه عدلا فأكسد مسكهـــا والعنبـــــرا

لا يبتغـــى السارى دليلا نحـــوه فالبـــدر من لألائـــه قد أسفـــــرا

يجلـو ظلام الليـــل نور جبينـه فكـــأن مرتتـــق الدجنـــة فجـــــــرا

لا زالت الأيـام أعظـم حظهـا في الدهـــر أن تطـــوى لديك و تنشـــوا

قرت عيـون المسلميـــن بغرة زهـــراء تسلكهـــم سبيـــلا أزهـــرا

أبصارهـم تجلـو سرور اظاهـرا وقلوبهـــم تجنـــى سرورا مضمـــرا

فلـو آن أركـــان السريـــر كواكب يشرقن لاستحقـقت منهـــا أكثـــــرا

غير النكير، وأنت شمس للهدى أن تغتدى شمس الضحى لك منبـــــرا

وقال محمد بن يحيى بن أبي مضر الطبني في الغزل:

لا يبعد الله من قد غاب عن بصرى ولم يغب عن صميم القلب والفكر

اشتاقه كاشتياق العيـــن نومتهـا بعد الهجود وجدب الأرض للمطر

وعاتبونـــي علـى بذل الفؤاد لـه وما دروا أنني أعطيته عمـــــري

وذكره الحميدي في الجذوة وأنشد له شعرا يخاطب به أبا محمد بن حزم، وذكره الضبي في البغية وروى له مقطوعة محي أولها و بقي منها **قوله:**

ولـو آن الديـــار ينهصهـا الشو ق أتـــاك البـلاط كالمستغـــيث

كن كمـا شئت صاحبـا لي ، فانـي ليس لي غيـر ذكركـــم من حديث

لك عندي – وأن تنـاسيت – عهد في صميم الفـــؤاد غيـــر نكـــيث

وعبد الكريم النهشلي الذي توفي سنة : 405هـ/ 1014 م– 1015م.

وكان شاعر باديس بن المنصور، وكان لغويا وعالما بأيام العرب واشتهر بشكل خاص بكتابة الممتع في صناعة الشعر – ومن شعره مقطوعة في وصف الفيل يقول فيها:

أضخم هنـــدى النجـــــار تعـــــــده ملوك بنـــي ساسان أن نابهـا دهـــر

من الورق لا من ضربة الورق يرتعي أضاح، ولا من ورده الخمس والعشر

يجيء كطـود جائـــل فوق أربـــــع مضبرة لمت كمـــا لمت الصخـر

له فخـــدان كالكثيبين لبـــــــدا وصدر كما أوفى من الهضبة الصدر

ووجـه به آنف كرا ووق خمـــــرة ينال به ما تدرك الأنمـــل العشر

وجنبـان لا يروى القليب صداهما ولو أنـه بالقـــاع منهـــرت حفر

وإذن كنصف البـرد تسمعه الندى خفيـا وطرف ينـفض العنت مـزور

ونابـان شقـا لا يريد سواهما قناتيـن سمراويـن طعنهمـــا نثـر

له لون ما بين النهـار و ليله إذا سقسق العصفور أو غلس الصقـر

ابن أبي سهل الخشني، أبو عبد الله عبد العزيز بن أبي سهل الخشني الضرير. من شيوخ الحسن بن رشيق في الأدب، قال عنه: " كان مشهورا بالنحو واللغة جدا، مفتقرا إليه فيهما، بصيرا بغيرهما من العلوم. وكان شاعرا مطبوعا . سلك طريقة أبي العتاهية في سهوله الطبع ولطف التركيب ولا غناء لأحد من الشعراء الحذاق عن العرض عليه والجلوس بين يديه، مات سنة 406 هـ/ 1015 م– 1016م وقد زاد على السبعين، ولد في بداية الثلاثينات من القرن الرابع الهجري، من شعره قوله:

ولست كمن يجزي على الهجر مثله ولكنني ازداد وصلا على الهجــر

ومـا ضرنـي إتلاف عمـــري كلــه إذا اتلت يوما من لقائك في عمري

وقوله:

العيـن من وجـــهك في لهـــو والقـــــلب من صدك في شجـــو

تنـــاصف الحسن الــذي حزتــه لم يفتقـــر عضو إلـــــى عضـــو

ولـــم يفـــد منك محب سوى قلب شج في جسد نضو

زيارة ابن حوقل لبلادنا في عهد الفاطميين : غادر ابن حوقل بغداد يوم رمضان 331هـ/ 15 ماي 943 م ووصل إلى المهدية سنة 335هـ/ 947 م بعد حصار أبي يزيد للمدينة .

وزار الأندلس والمغرب الأقصى وغانا والمدن الرئيسية يمدنا عما يراه ويشاهده بمعلومات نفيسة بشكلا عام وعن الحياة الاقتصادية و الاجتماعية بشكل خاص.

قضى أبو نوح السعيد بن يخلف المزاتي شبابه في ناحية الزاب وعاش حوالي 350هـ/ 961 م– 962م.

كان ابن أبي سهل الفارسي شاعرا ومؤرخا في النصف الأول من القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي وكان يسكن في مرسى الدجاج أو مرسى الخزر، وألف اثني عشر كتابا باللهجة البربرية عن تاريخ الاباضية في المغرب.

وكان أبو عمران موسى بن زكريا المزاتي محدثا وفقيها مشهورا وعاش في النصف الأول من القرن الخامس الحادي عشر الميلادي، وألف كتابا في الفروع في اثني عشر جزءا بمساعدة ستة شيوخ آخرين كلفوا بنقل الكتاب.

أبو القاسم الوهراني: (.... – بعد 400هـ - 1009م)

عبد الرحمن بن عبد الله بن خالد بن مسافر الهمداني الوهراني أبو القاسم، يعرف بالتجاني وبابن الخزار- عاتم بالحديث ورجاله. من كبار الفقهاء. مشارك في كثير من العلوم، من أهل وهران رحل في طلب العلم فسمع من علماء افريقية ومصر والحجاز والعراق وخراسان والجبل ونيسابور وبلخ. وتفقه بأبي بكر القطيعي (273هـ- 368هـ) وبأبي بكر الأبهري (289هـ- 375هـ) . ودرس علي الأبهري كتبه سنين مع أصحابه. و أقام في رحلته نحو عشرين عاما. وعاد ثم دخل الأندلس فروى عنه الإمامان الحافظان: ابن عبد البر (368هـ- 463هـ) وابن حزم (384هـ- 456هـ) له رسالة في سيرة شيخه أبي بكر الأمهري اعتمد عليها مترجموه.

أحمد بن قاسم التاهرتي: (309 هـ– 396هـ/ 921م- مارس 1006م).

أحمد بن قاسم بن عبد الرحمن (بن محمد التميمي) التاهرتي البزاز، أبو الفضل. ولد بتاهرت، وأتى مع أبيه صغير إلى الأندلس سنة 317 وكان أبوه من جلساء بكر بن حماد التاهرتي وممن أخذ عنه.

قاله أبو محمد وقد روى عنه أبو عمران الفاسي موسى بن عيسى بن أبي حاج فقيه القيروان. وقال أبو عمر بن عبد البر: سمع أبو الفضل التاهرتي من ابن أبي دليم و قاسم بن أصبغ ووهب بن مسرة ومحمد بن معاوية القرشي وأبي بكر الدينوري، وكان ثقة فاضلا اختص بالقاضي منذر بن سعيد البلوطي (273هـ- 355هـ/ 886م- 966م) نسبة إلى

فحص البلوط بقرب قرطبة قاضي قضاة الأندلس في عصره وكان فقيها خطيبا شاعرا فصيحا كثير التأليف سمع أبو الفضل منه تأليفه كلها، قال ابن عمر: وقد لقيته وسمعت كثيرا منه قال أبو عمر: حدثنا أحمد بن قاسم بكتاب صريح السنة لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، وبكتاب فضائل الجهاد له وبرسالته إلى أهل طبرستان عن أبي بكر أحمد بن الفضل الدينورى عن الطبري قال أبو الوليد بن الفرضي: قرأت عليه كثيرا من روايته عن قاسم وغيره، وسألته عن سنة ومولده فقال لي: ولدت سنة 309هـ قال أبو الوليد وتوفي رحمه الله بقرطبة ليلة الجمعة لثلاث بقين من جمادى الأولى سنة 396هـ وصلى عليه قاضي الجماعة أبو العباس بن ذكوان. (المتوفي سنة 413هـ/ 1022م) قاضي القضاة بالأندلس.

المحاضرة السابعة: الدولة الحمادية

1 -تأسيس قلعة بني حماد:

في سنة 398هـ - 1008م اختط حماد بن بلقين قلعة بني حماد المبنية على مرتفعات جبل المعاضيد وواقعة على مسافة 36 كم شمال شرقي المسيلة التي نتحدث عنها حديثا مفصلا في الفصل الخاص بالحضارة الحمادية.

2 -ثورة حماد على باديس:

إن اختطاط حماد لقلعته زاده مجدا على مجد فأثار ذلك حسد شيوخ صنهاجة، وحاولوا أن ينالوا من منزلته لدى الأمير الزيري واتهموه بالسعي للاستيلاء على الحكم – فطلب باديس إليه – إما ليحد من نفوذه أو ليختبر وفاءه له – أن يتنازل عن ثلاث مناطق الشرق الجزائري وهي قسنطينة وتيجس وقصر الإفريقي، فلم يستجب لطلبه وثار عليه وتخلى عن تبعيته للفاطميين واعترف بولائه للخلافة العباسية.

وفي سنة 405هـ - 1015م زحف باديس على رأس جيش قوى لقتال حماد، بينما سعى هذا للاستيلاء على باجة. وحض سكان تونس على الفتك بالشيعة وعلى الدفاع عن مذهب أهل السنة والجماعة. فقتلوا عددا كبيرا منهم، فأثارت هذه الحادثة قلق الأمير الزيري لأنها حقيقة بتعريض صلات ما بينه وبين الفاطميين للفساد، وفي هذه الأثناء مات المنصور بن باديس الذي كان حماد عزم أن يتنا زل له عن المناطق الثلاث الواقعة في القطاع القسنطيني.

حزن باديس على موت ابنه حزنا شديدا، فلصر على مواصلته، فاتجه نحو الغرب وولى حماد وجهه نحو أشير فمنعه واليها من الدخول إليها، فالتحق بتاهرت، بينما احتل باديس ميلة وزحف أخوه كرامة على قلعة بني حماد وخرب طائفة منها، فطلب عدد ا كبيرا من سكانها من باديس الأمان، فأمنهم فانتقم إبراهيم أخو حماد منهم بقتل نسائهم وأطفالهم إلى هنا لم يقع بعد قتال بين الجيشين جيش باديس وجيش حماد والمعركة الأولى التي نشبت بينهما هي التي كان مسرحها وادي شلف.

كان الجيشان معسكرين على ضفتي نهر واصل، وهو رافد من روافد نهر شلف وفي صباح يوم وصول باديس عبر النهر وانقض بغتة على حماد ونشبت معركة ضاريةٍ أسفرت عن انتصار الأمير الزيري، فو حماد في خمسمائة جندي أفلتوا من القتل ولم يتابعهم جيش باديس لاشتغاله عن ذلك بالاستيلاء على الغنائم. والتحق حماد بقلعة مغيلة ثم لاذ بقلعة حماد وبعد أيام قلائل قضاها في الاستجمام خرج من ملجئه للتزود بالملح والحبوب رجع باديس إلى المسيلة وصلها في سنة 406هـ - 1015م وكتب إبراهيم أخو حماد إليه رسالة يدلي إليه فيها بمعاذير حماد مستعرضا كل الخدمات التي اضطلع بها له. فأجابه باديس عن رسالته، ووقع بعد ذلك تبادل رسائل بين الطرفين، ولكنها لم تؤد إلى التصالح بينهما أمر باديس بضرب الحصار على قلعة بني حماد، وكان قد مضى عليه ستة أشهر منذ بدئه، وكانت المدينة على وشك الاستسلام لما قضى الأمير الزيري نحبه فجأة، فولى الجيش عند ذلك وجهه شطر القيروان من جديد، وكان حماد حاضرا عند رحله وشاهد النظام والانضباط سائدا عليه، فقال لأخيه ورفاقه: " مثل هؤلاء يخدم الملوك، وصلت أنا إلى افريقية في ثلاثين ألف فارس، ما منهم إلا من أحسنت إليه وأنعمت عليه فعدت على القلعة وما بقي معي إلا أقل من ستمائة. وأنا بين أظهرهم أرجى. وهذا ميت أطاعوه كما كان حيا".

بينما كان الجيش الزيري قافلا إلى افريقية عهد إلى كرامة أخي باديس بالرحيل إلى أشير لتعبئة جنود جدد، فذهب على رأس سبعة آلاف جندي فحمل عليه جماد في ألف وخمسمائة مقاتل وانتصر عليه روى ابن الأثير أن طائفة من جنود كتامة نهبوا الكنز الذي ذهب له كرامة واضطر هذا إلى الرجوع إلى أشير فضرب حماد الحصار عليها واستدعى كرامة ودفع إليه مالا ويسمح له بالالتحاق بافريقية وبعد ذلك احتل حماد مدينة أشير وقتل ما لا يحصى عدا من السكان الذين انضموا إلى الحزب الزيري ولكنه لم يعثر قط على من استولوا على كنز كرامة.

د-عهد المعز بن باديس حتى مولد الدولة الحمادية:

لما توفي باديس خلفه ابنه المعز على عرش الإمارة ولما يبلغ بعد تسع سنين كانت ولايته بالمهدية وبيعته بها.... خرج المعز بالبنود والطبول، فنزل إليه الناس يهنئون جميعا و بايعوه وهنأوه وعزروه وابتهلوا بالدعاء له.

واستقبل المعز الجيش الزيري لدى قفوله من المغرب الأوسط في محرم 407هـ جوان – جويلت 1016م. اتسمت بداية عهده بقتل الشيعة ومواصلة قتال حماد بن بلقين و مولد الدولة الحمادية.

1 -قتل الشيعة:

بعد وصول المعز إلى بصرة – المنصورية رحل في اليوم التالي إلى القيروان حيث وقع الفتك بالشيعة. ذكر ابن الأثير أن المعز – أثناء زيارته للقيروان – مر أمام جماعة من الناس فسأل: من هؤلاء؟ فقيل له: هم من الرافضة الذين يشتمون أبا بكر وعمر. فقال المعز: رضي الله عن أبي بكر وعمر، فانقضت العامة على حي في القيروان كان يدعي بدرب المعلي، حيث كان يسكن الشيعة فقتلوا منهم ونهبوا مساكنهم. وذكر ابن عذارى أن المعز ربّي في حجر وزيره أبي الحسن بن أبي الرجال وكان ورعا زاهدا، وكانت افريقية كلها والقيروان على مذهب الشيعة وعلى خلاف مذهب السنة والجماعة من وقت تملك عبيد الله لها، فحرض ابن أبي الرجال المعز في بعض الأعياد إلى المصلي في زينته وحشوده فكبا به فرسه، فقال عند ذلك: أبو بكر وعمر فسمعته الشيعة التي كانت في عسكره، فبادروا إليه ليقتلوه فجاء عبيده ورجاله ومن كان يكتم السنة من أهل القيروان، فوضع السيف في الشيعة فقتل منهم ما ينيف على الثلاثة آلاف.

روى ابن خلدون أن المعز" كان منحرفا عن مذاهب الرافضة ومنتحلا للسنة، فأعلن بمذهبه لأول ولايته ولعن الرافضة ثم صار إلى قتل من وجد منهم، وكبابه فرسه ذات يوم، فنادى مستغيثا باسم أبي بكر وعمر فسمعته العامة، فثاروا لحينهم بالشيعة. وقتلوهم أبرح قتل. وقتل دعاة الرافضة يومئذ".

ولم يقتل الشيعة في القيروان فحسب بل لقوا ذات المصير في المهدية وفي مدن أخرى من افريقية.

ذكر ابن الأثير أن الخليفة الفاطمي لم يعتب على المعز لذلك بل وصل إليه منه سجل خاطبه فيه بشرف الدولة وخلع فاخرة من لباسه، ولكن ابن خلدون ذكر أن خلفاء الشيعة بالقاهرة امتعضوا لذلك، وخاطبه وزيرهم أبو القاسم الجرجاني محذرا.

2 -مواصلة قتال حماد بن لقين :

بعدما ساد الهدوء افريقية استأنف المعز من جديد الحرب على حماد في 22 صفر 408هـ 18 جولية 1017م – وكان حماد قد استولى كما سبق أن ذكرنا ذلك من قبل على أشير بعد رحيل الجنود الزيرية ووطد جبهته بهيمنته على المسيلة ومحاصرته لباغاية – ولما اقترب المعز منه فك الحصار عنها و ركض الجيش الزيري في أثره فقتل عددا كبيرا من جنوده و استولى على غنائم كثيرة، و أسر إبراهيم أخو حماد في المعركة وأصابت حمادا جروح و تخلى عنه أكثر جنوده .

ذكر ابن الأثير أن حمادا لما وصل إلى القلعة الحمادية أرسل رسولا إلى المعز ليقول له: " أن حمادا يعترف بخطئه ويرجو العفو عنه".

فأمر المعز أن يرسل إليه ابنه رهينة ودليلا على صدقه في قوله. فأجاب حماد بأنه سيرسل ابنه القائد عندما يتسلم من أخيه إبراهيم ما تعهد به المعز أزاءه وذلك طبقا للصيغة المصطلح عليها المستعملة بين الطرفين. فاجتمع إبراهيم بالمعز وحصل منه على ما كان يرجوه من وعد. وأخبر أخاه بذلك، وفي الوقت نفسه أعرب لأخيه عن اعترافه بكرم المعز و سخائه.

التحق المعز بالمنصورية يوم 30 جمادى الأولى 408هـ 25 أكتوبر 1017م وأطلق سراح إبراهيم ووصله بخلع فاخرة وأموال طائلة وخيل و سروج مطرزة بالذهب.

فلما علم حماد بما وقع أرسل ابنه القائد في 15 شعبان 408هـ 5 جانفي 1018م- فأكرم المعز وفادته – ذكر ابن أبي ديبار أنه كان يمنحه كل يوم ثلاثة آلاف درهم و خمسة

وعشرون قفيزا من شعير لعلف دواب اتباعه،وتسلم القائد و ذووه مائة خلعة سنية و ثلاثين من إناث الخيل بسروج مطرزة بالذهب وثيابا لا حصر لها.

وبعد المفاوضات التي جرت بين المعز وحماد دخلت في حيازة حماد مناطق المسيلة وطنية والزاب وأشير وتاهرت وكل ما يستطيع أن يبسط عليه هيمنته من أقاليم المغرب. وأسند المعز للقائد ولاية المسيلة وطبنة ومرسى الدجاج وبلاد دزواوة ومقرة ودكامة ويلزمه وسوق حمزة وهكذا أبعد الاتفاقيات الحمادية الزيرية تم الاعتراف لحماد بإمارته المستقلة على المغرب الأوسط ولكن يبدو أنه تخلى عن مناطق قسنطينة وقصر الإفريقي ووتيجس التي كانت سببا في نشوب حرب شب لهيبها بينه وبين باديس. لأن هذه المدن لا وجود لها بين التي أقطعها هو حماد وابنه القائد.

وأياما كان فابتداء من سنة 408هـ- 1018م انقسمت صنهاجة إلى دولتين: الدولة الزيرية التي حكمت افريقية، والدولة الحمادية التي بسطت إمارتها على المغرب الأوسط.

ح- الحياة الدينية:

بينما عاشت الفرق الدينية المختلفة في عهد بني رستم في وئام و سلام انتقل الوضع إلى خلاف ذلك في عصر الفاطميين وسبب ذلك أن الفاطميين أرادوا أن يفرضوا على كل الناس بالعنف مذهبهم الشيعي وأرسلوا الدعاة لنشره. ذكر ابن حماد أن عبيد الله المهدي أمر بترك صلاة التراويح أثناء شهر رمضان أثناء شهر رمضان ويصوم يومين قبله.

وأمر أيضا بتغيير عبارة الأذان في الصباح وذلك بحذف عبارة " الصلاة خير من النو" وبزيادة عبارة :" حي على خير العمل بحمد وعلي هما خير البرية".

والحاصل أن العبيديين أبطلوا الحج إلى بيت الله الحرام في السنة السابعة عشرة من امامتهم.

ومن ناحية أخرى مما أسر به أبو عبد الله الشيعي قلوب الرعية الغاؤه عنهم الضرائب المخالفة للشريعة بينما أثقل عبيد الله المهدي كواهلهم بالمغارم الفادحة.

إن ابن حوقل رغم تشيعه استعرض أنواعها لنا فقال: كان على الناس أن يؤدوا العشر والصدقات والمراعي والجوالي وهي الجزية والمراصد وهي رسوم على المرور أو العبور والأعشار الواجب أداؤها في المرافئ على الواردات والصادرات مثل ما هي واجبة على الفضة المصدرة والمسكوكة نقودا.

ولذلك استهدفوا العداوة أهل السنة والاباضية فثار هؤلاء تلبية لنداء أبي يزيد مخلد بن كيداد واستولوا على القيروان بتواطؤ مع سكانها السنيين، ولكن بعد قمع ثورة صاحب يبدو أنه لم تقع معارضة قوية لمناهضة الحركة الشيعية. فبدأ المنصور متسامحا أكثر من جده فألغى منع أداء الحج مما أدى سكان تاهرت وورقلة وسدراته والسنين من سكان افريقية الذين يعيشون مع الفاطميين في سلام ووئام، ولكن في دولة بني زيري بدأنا نشعر بنوع من المقاومة للفاطميين والشيعة في آن واحد فرأينا كيف فتك المنصور بوالي افريقية بعد توليته داعيا من قبل خليفة القاهرة وبأي قساوة قمع لمرد أبي الفهم الداعي الشيعي في بلاد كتامة.

ولاحظنا في عهد باديس أن أول شيء فاه به حماد بعد ثورته على ابن أخيه انتفاضة على الفاطميين وولاؤه لبني العباس، وليستميل مشاعر وتقدير خليفة بغداد الذي يدين بمذهب أهل السنة والجماعة حرض سكان تونس على الفتك بالشيعة.

اشتد ما شب من قتال بين أهل السنة والشيعة اشتداد قويا في عهد المعز فقد كان هو نفسه سنيا مقتنعا، فقد ضرى الفتك الشديد بشيعة القيروان والمهدية وعدة مدن أخرى من وافريقية بعد توليه الإمارة بقليل.

أما ما يخص بلاد الجزائر فيبدو أن شيعة بلاد كتامة لم يصبهم أي أذى من انتقاض حماد حماد بن بلقين على الفاطميين لأنه لم يقع عليهم أي قمع فيما تعلم، ولم يصب إباضيون أقاليم تاهرت وورقلة وسدراته بسوء من جراء عقائدهم الدينية الدينية.

المحاضرة الثامنة: أعلام الدولة الحمادية

د- الحياة الأدبية:

الآثار اللغوية والأدبية في حاضرة بجاية قراءة في مدونة عنوان الدّراية للغبريني

توطئة:

نحاول أن نتكشّف الملمح العلمي اللغوي والأدبي للعلماء المهاجرين الأندلسيين إلى حاضرة بجاية التي كانت قبلة تقصد بغية التعلم أو التعليم، خاصة على زمن الحفصين ومن قبل تحت ظل الحمّاديين، وهكذا شهدت هذه الحاضرة توافدا معتبرا لثلة من العلماء من شتى بقاع الغرب الإسلامي وغيره، أسهموا بشكل وافر في الحركة العلمية فيها، من فقه وأصول ولغة وأدب وغير ذلك من فنون المعرفة، وهذا ما تؤكّده مدّونات التراجم التي اعتنت بهذه المنطقة، حيث سجّلت لنا لعدد وافر من هؤلاء الأعلام والنخب الذين اختاروا هذه المدينة لمكانتها السياسية والاجتاعية والثقافية آنذاك لأجل الاستقرار خاصة ممن وفدوا من الأندلس بعد تهاوي مدنها مدينة تلو الاخرى، وفي هذا السياق تبرز أهمية مدونة أبي العباس الغبريني، الذي وقّع لنا أخبار علماء هذه الحاضرة في القرنين السادس والسابع وما خلّفوا من آثار علمية فيها و التي أسهمت بدورها في ازدهار الحركة العلمية وتكوين أجيال من العلماء برعوا في شتى فنون المعرفة، ولاشك أنّ صاحب مدونة عنوان الدراية الغبريني أحدهم، ومما يُلفت النظر حال تصفح مدونة الغبريني أنّ أغلب الآثار العلمية غلب عليها الانتماء الأندلسي تجسّد في معظمه على حقلين من حقول المعرفة ألا وهو علم الفقه وعلوم العربية -لغة وأدبا- .

لقد جمعت بين حاضرة بجاية والعدوة الأندلسية روابطُ و علاقاتٌ علميةٌ وثقافيةٌ شهدتها من خلال تلك الرّحلات للعلماء من وإلى بجاية، لأسباب أغلبها كان لقاء الشيوخ والتلقي عنهم، إضافة لأسباب سياسية واجتماعية أو غيرها، ومن خلال هذه العلاقة بين الوافدِين من

الأندلس وبين أهل بجاية تكوّنت بيئةٌ علميةٌ حضاريةٌ أسهمت في رُقي حاضرة بجاية على مرّ الأزمنة في تاريخ الغرب الإسلامي ممّا أهّلها لأن تتبوأ مكانة بين حواضر العالم الإسلامي في حقبة زمنية معتبرة تحت غطاء الحفصيين والحمّاديين، والذي يؤكد لنا هذه الوفرة العلمية، هي تلك المدوّنات التي اعتنت بجمع أخبار العلماء والمشايخ ككتب الطبقات والبرامج والفهارس والمشيخات التي تسجّل لنا آثارهم التي ألّفها وأقرأها تدريسا وتأليفا علماء هذه المنطقة من الوافدين والمحليين، ومن تلكم الكتب مدونة أبي العباس الغبريني البجائي، الّتي أرّخ وترجم فيها لعلماء هذه الحاضرة في القرن السابع، والملاحظ على هذه المدونة هو تسجيل عدد لا بأس به من النخبة الأندلسية العالمة ببجاية اتّصفوا بموسوعيتهم في الفنون والعلوم، خاصة في مجال الفقه كعبد الحق الإشبيلي والحرالي واللغة كاللبلي وابن عصفور وابن عميرة المخزومي وغيرهم على ما سيأتي، إذ يوصف هذين الفنين بأنه الغالب على مدوناتهم وتآليفهم وإقرائهم وتدرسهم في هذه الحاضرة، ضف إلى بقية العلوم الاخرى كالحديث كما هو الحال مع ابن دحية وعبد الحق الإشبيلي والتصوف كابن الأبار وابن عربي وابن سبعين والعلوم البحتية الاخرى من مثل الطب كأحمد بن أحمد الأموي.

ثمّ إنّ الناظر في تراجم علماء الأندلس يرى أن أغلب المؤلّفات الّتي ذكرها الغبريني أثناء ترجمته لأعلام بجاية كان الحظ الأوفر منها لعلماء النخبة الأندلسية وهذا مما سنتكشّفه من خلال استقرائنا لهذه المدونة.

* **التعريف بأبي العباس الغبريني وكتابه عنوان الدراية** [1]: اسمه أحمد بن أحمد بن عبد الله المكنى بأبي العباس، ولد ببجاية سنة 644 للهجرة، أسرته من بني غبرين، حفظ القرآن بها وتعلم مبادئ العلوم وبعدها انتقل إلى بجاية التي كانت حاضرة علمية وقبلة العلماء في زمن الدولة الحفصية، وفي بجاية تلقى الغبريني شتى العلوم والفنون سردها في برنامجه التي ألحقه بكتابه عنوان الدراية، من جماعة من أهل العلم من علماء الأندلس والقيروان وأهل بلاده مختلف العلوم كالعربية والفقه والأصول والتفسير والعقيدة والمنطق كعبد الحق ابن الربيع وأبي عبد الله التميمي وأبي جعفر الصدفي وغيرهم قاربوا السبعين شيخا كما هو مذكور في برنامجه، قُتل بعد وشاية من حساده سنة 704 هـ. وأما كتابه عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، ومن خلال عنوانه يظهر أنه ترجم لعلماء القرن السابع ممن سكنوا بجاية أو نزلوا بها، إلا أنه يقيد بشرطه أحيانا فذكر علماء خارج القرن السابع ممن اقتربت وفاتهم من المائة السابعة كأبي مدين الغوث وعبد الحق الإشبيلي وغيرها على قلة، تبركا بهم كما علل ذلك في مقدمة كتابه، حيث قال:" وقد رأيت أن أصل بذكر علماء هذه المائة ذكر الشيخ أبي مدين والشيخ أبي علي المسيلي والفقيه أبي محمد عبد الحق الإشبيلي رحمهم الله ورضي عنهم لقرب عهدهم بهذه المائة ....للتبرك بذكرهم

[1]) معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر لعادل نويهض، مؤسسة نويهض الثقافية لبنان ط3 سنة 1983 ص248، ومن تعريف الخلف برجال السلف لأبي قاسم الحفناوي، تحق خير الدين شترة، دار كردادة الجزائر ط2 سنة 2013 ج2 ص522.

ولانتشار فخرهم..."[2]، ولا شك أن هذا الكتاب يقدم لنا صورة للثقافة والفكر السائد آنذاك من خلال ما يقدّمه من أوصاف لهؤلاء الأعلام وما أنتجوا من المعرفة، فهو إطلالة على واقع الحضارة في حاضرة بجاية، ثم بيان دور هؤلاء العلماء في صناعتها وتغذيتها، على رأس تلك العلوم التي أثراها هؤلاء العلماء هي علوم الشريعة بالدرجة الأولى من فقه وحديث وأصول وغيرها، فنذكر منهم عبد الحقّ الإشبيلي والصدفي والشاطبي، ثم تلتها علوم العربية والأدب حيث تصدّر في علمائها ابن عصفور الأندلسي، ثم العلوم العقلية التي ذاعت صيتها من خلال إنتاج نخبة الأندلس حصرا فكان ابن سبعين وابن عربي والتجيبي، والشستري وغيرهم وهكذا تفردت بذلك فيه المدرسة الأندلسية المستوطنة لبجاية، وهناك علوم اخرى حظيت باهتمام علمائها وإن لم تبلغ درجة العلوم السابقة، ولكنّها كان لها أثرٌ ثقافي في هذه الحاضرة، كالطب والتاريخ والفلك.... وبهذا قدمت هذه المدونة مادة مهمة عن تاريخ هذه الحاضرة خاصة جانبها الثقافي الذي أسهم في جملة من العلماء الأصليين والوافدين ومن أهمهم علماء الأندلس.

***عدّة العلماء الأندلسيين واختصصاتهم العلمية:**

لقد ترجم الغبريني لإحدى وثلاثين عالما أندلسيا يمثلون عددا لا باس به من العدد الإجمالي الذي بلغ زهاء ثمانية ومائة ترجمة شملت علماء الجزائر وضواحيها وعلماء المشرق وعلماء الأندلس، وبالتالي يمثل عدد علماء الأندلس قرابة ثلث الكتاب، تنوعت اختصصاتهم، في

[2]) عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية تأليف أبي العباس الغبريني اعتنى به وعلّق عليه محمد بن أبي شنب مصور دار الأبحاث للترجمة و النشر والتوزيع الجزائر العاصمة ط1 سنة 2013 ص10

أنواع المعرفة تصدر ذلك علمين اثنين هما الفقه وعلوم العربية وآدابها، حيث شَكَّلا الجانب الغالب على الإنتاج المعرفي للنخبة العالمة الأندلسية في بجاية، وسنحاول أن نقف على أهمّ التخصّصات المعرفية التي برع فيها علماء الأندلس ممّا ذكر كتبهم نصا الغبريني دون تحليتهم ونسبتهم للعلوم، وسنترك الحديث عن علوم العربية والأدب لاحقا:

علم الفقه: عبد الحق الإشبيلي في كتابه التهجد [3]، أبو الحسن علي الحرالي في كتابه الوافي[4]

وأبو جعفر اللبلي له كتاب في الأذكار [5].

علم أصول الفقه: أبو مطرف بن عميرة المخزومي له تعليقا على كتاب المعالم في أصول الفقه وكان الطلبة يقرأون عليه تلحيقات(تنقيحات) السهروردي[6]

علم الحديث: أبو الخطاب دحية في كتابه مدونة في رجال الحديث [7]، عبد الحق الإشبيلي من خلال كتابيه الأحكام الكبرى والصغرى والجمع بين الصحيحين[8].

علم التصوف: ابن الأبار من خلال كتابه اللجين في مرائي الحسين[9].

علم العقيدة: أبو جعفر أحمد بن يوسف اللبلي له كتاب في العقيدة[10]

---

[3]) عنوان الدراية ص31.

[4]) عنوان الدراية ص131

[5]) عنوان الدراية ص367.

[6]) عنوان الدراية ص311.

[7]) عنوان الدراية ص277.

[8]) عنوان الدراية ص31.

[9]) عنوان الدراية ص317.

علوم القرآن: أبو الحسن بن علي الحرالي من خلال كتابه مفتاح الباب المقفل على كتابه المنزل وله كتاب في التفسير أيضا [11]،أبو العباس أحمد بن محمد الصدفي الشاطبي له مرسوم الخط وتمكين ورش[12].

علم التاريخ والتراجم: عبيد الله بن فتوح النفزي من خلال كتابه اختصار حلية الأولياء[13].

علم الطبّ: أحمد بن محمد الأموي من خلال أرجوزة في الطب[14].

وهكذا تظهر براعة علماء الأندلس في التأليف في مختلف العلوم والفنون حيث كانت مشاركتهم أغلب الفنون التي اشتهرت في ذاك العصر، وهكذا أثبت النخب الأندلسية العالمة ببجاية فاعليتها في تكوين النسق الثقافي والحضاري للمنطقة من خلال التدوين والإقراء.

الأدباء واللغويون وآثارهم اللغوية والأدبية:

لقد غلب على العلماء الوافدين من الأندلس الجانب اللغوي والأدبي بحيث إنك لا تجد أحدهم في فن من الفنون منتسباً إليه إلّا وله مشاركة في اللغة أو الأدب، ويظهر ذلك من خلال عدد اللغويين والأدباء الذي ترجم لهم الغبريني من علماء بجاية في القرن السابع فبلغوا اثنين وعشرين لغويا وأديبا، كانت حصة الأندلسيين ثمانية عشر أديبا ولغويا ممّا يمثّل قرابة العدد المذكور، ولنا أن نقسمهم إلى ثلاثة فئات، فئة منهم تركت آثارا ومؤلفاتٍ إضافة إلى

---

[10]) عنوان الدراية ص367.

[11]) عنوان الدراية ص131

[12]) عنوان الدراية ص80.

[13]) عنوان الدراية ص171.

[14]) عنوان الدراية ص69.

مجالس التعليم والإقراء ممّا قد نص عليها الغبريني ، وفئة ثانية اشتهرت بالأدب إبداعا وباللغة تضلعا وحذقا، وأورد لهم الغبريني آثارا أدبية ولغوية من أشعار وخطب ورسائل ومسائل ممّا سمعها منهم أو رواها بأسانيده إليهم دون أن يذكر لهم مؤلفات في فنّ الأدب واللغة، وفئة أخيرة وصفها وحلاّها بأوصاف من مثل اللغوي والنحوي والأديب ولكن دون أن يذكر لهم آثارا لغوية أو أدبية.

وسنذكر ابتداء من ترك آثارا علمية سواء في اللغة أو الأدب بحسب ترتيب الغبريني لهم في مدونته ثم نلحقها بالأدباء واللغويين الذين اشتهروا بهذين الفنين وصفا وإقراءً وإنتاجا ثم الفئة التي وصفها باللغة والأدب:

الفئة الأولى:

- **أبو محمد عبد الحق الإشبيلي** المحدث الحافظ ذكر له الغبريني أنّ له كتابا اسمه **الحاوي في اللغة** فيه ثمانية عشر مجلدا، وذكر أيضا أنّ له كتابا مجموعا في الشعر الزهدي[15].
- **أبو الحسن عبيد الله بن محمد بن عبيد الله بن فتوح النفزي** من أهل شاطبة ذكر له الغبريني **تقييدا على المفصل** وصفه بأنه كان مستبحرا وعالما باللغة والنحو والأدب وأن له شعرا بارع وأدبا غض يانع[16].

[15]) عنوان الدراية 32.

[16]) عنوان الدراية ص171.

- **أبو محمد بن نعيم الحضرمي القرطبي** ت636هـ ذكر له **شرحا على مقامات الحريري** وقال عنه :" وكان يُذكر عنه أنه كان في علم الأدب بحرا وأورد له من شعره قصيدة من خمس بها قصيدة أبي الفضل بن النحوي"[17].
- **أبو جعفر أحمد بن يوسف الفهري اللبلي** وهذا من علماء اللغة المشهورين حيث عدّد له جملة من تآليفه اللغوية منها **شرحه على فصيح ثعلب** المشهور وله كتاب اسمه **الإعلام بحدود قواعد الكلام** قال عنه الغبريني أنه من من أساتيذ إفريقية في وقته.
- **أبو الحسن علي بن مؤمن الحضرمي عرف بابن عصفور** ت 670هـ من أهل إشبيلية أحد أعلام اللغة المتصدرين وهو أحد تلامذة أبو علي الشلوبين قال عنه الغبريني بعدما حلاه بأوصاف تدل على علو كعبه في مجال اللغة والنحو، قال "وقرأ عليه خلق كثير وانتفعوا به وكل من قرأ عليه وكل من ظهر فمن المبرزين" [18] له **المقرب وشروح على الجُمل وله شرح على الإيضاح وله شرح على أبيات الإيضاح.**[19]

الفئة الثانية

- **أبو عبد الله محمد الكناني** قال عنه:" وله معرفة بعلم العربية والنحو واللغة والأدب..."[20] ، ثمّ أورد له مجموعة من أشعاره منها قوله:

---

[17]) عنوان الدراية ص335.

[18]) عنوان الدراية ص336.

[19]) عنوان الدراية ص326.

[20]) عنوان الدراية ص73.

جعلت كتاب ربي بضاعة فكيف أخاف فقرا أو إضاعه

وأعددت القناعة رأس مالي وهل شيء أعزّ من القناعه

وذكر له مجموعة من الأشعار تدل على تمكنه من فن الشعر [21].

- **أبو الخطاب عمر بن الحسن بن علي بن دحية الكلبي،** ولقد كان متعجبا من قوة حفظه للغة حتى وصفه بأنه أحفظ زمانه بها، وقال:" حتى صار الحوشي اللغة عنده مستعملا غالبا عليه....ثم قال ورأيت من كلامه في رسائل ومخاطبات كلها مغلقات ومن جملتها ما ذكر أنه كان له خديم يخدمه واحتاج الوالي إلى تجهيز قِطع في البحر يبعث فيها للمغرب فأخذ خديمه في جملة الغزاة فكتب لأبي علي ابن يرمور هذه الرسالة ينبهه على خديمه ليسرحه وهي: الشيخ الفقيه الأديب الجَحْجاح الهرماس أبو فلان جحمظ الله قعْثبان شفرته هذا الغطريس في اليمّ أخذ رجلا لايملك حدرفوتا فيرى الزبرقان فيخاله حُوّارى ويرى الجُعل فيحسبه زعبجا وله قرحة أمحشت من الحرّ وتعطّل كبرها أبعث إلى هذا العثري من يخضد شوكته السلام ولما وصلت هذه الرسالة لم يفهم لغتها فاستحضر كتب اللغة الصحاح وغيرها ليفك معماها [22] ثم أورد له من جميل شعره جملة[23]

[21]) عنوان الدراية ص 75.

[22]) عنوان الدراية ص322،321.

[23]) عنوان الدراية ص180.

- **أبو مطرّف أحمد بن عبد الله بن عميرة المخزومي** من أهل جزيرة شُقر بالأندلس ولقد حلّاه بأفضل الأوصاف التي تنم على علو كعبه في مجال الأدب فقال تاج الأدباء..وله أدب هو فيه فريد ذهره وسابق عصره.ومارأيت من الكتاب ما أعجبني مثل كتب أبي المطرف[24] وذكر له شيئا من نظمه.
- **أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي الشهير بابن أبار** ت658هـ من أهل بلنسية حلّاه بالنحوي الأديب المجيد اللغوي الكاتب...وقال تآليفه وتقييداته وأشعاره وكتائبه متداولة بين الناس..ولو لم يكن له من الشعر إلا القصيدة التي رفعها لمقام الأمير أبي زكرياء يستنجده ويستصرخه لنصرة الأندلس لكان فيها كفاية [25] وذكرها وذكر شيئا من شعره.
- **أبو عبد الله محمد بن محمد المعروف بابن الجنان** أديب له نظم ذكر له قصيدة دالية ذكرها كاملة مطلعها :

يا حادي الركب قف بالله ياحادي وارحم صبابة ذي نأي وإبعاد

قال عنه الغبريني ونثره ونظمه كله حسن...ونظمه غزير وأدبه كثير [26].

[24]) 4[2] عنوان الدراية 309،310

[25]) عنوان ص179،178.

[26]) عنوان الدراية ص371

- **أبو القاسم محمد بن أحمد ابن محمد الأموي** ت674 هـ ذكر الغبريني أن له معرفة بالعربية ..وكان حاذقا في عربيته وذكر له مناظرة وقعت له حول الفرق بين علم الجنس واسم الجنس[27].

الفئة الثالثة

- **أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمان الخزرجي الشاطبي** قال" كان له علم بالعربية.."[28]
- **وأبو بكر محمد بن أحمد الزهري يعرف بابن محرز** من أهل بلنسية اشتهر بتدريس اللغة وله أنظام ونثر وخطب لم يذكر له آثار لغوية أو أدبية[29].
- **أبو عثمان سعيد بن علي بن زاهر الأنصاري البلنسي** قال: "له حظ بالعربية" [30] لم يذكر له مؤلفات فيها.
- **أبو بكر بن سيد الناس الإشبيلي** وصفه باللغوي وقال أيضا يذكر لغة الحديث وعربيته[31]. لم يترك آثارا لغوية.

[27]) عنوان الدراية ص67.

[28]) عنوان الدراية 105.

[29]) عنوان الدراية ص299.

[30]) عنوان الدراية ص303

[31]) عنوان الدراية ص 304

- **أبو العباس أحمد بن عثمان ابن عجلان القيسي** ت 670هـ وصفه بأنه كان معتنيا بالقراءات وعلم العربية[32] لم يخلف آثارا لغوية أو أدبية.

- **أبو العباس أحمد بن عيسى بن عبد الرحمان الغماري** من أعلام بلنسية وصفه بأنه مشارك في علم الأدب[33].
- **أبو زيد عبد الرحمان بن علي القرشي الصقلي المعروف بابن الحجري** وصفه بالنحوي اللغوي[34].

***أثرهم اللغوي والأدبي في حاضرة بجاية من خلال كتبهم وإبداعاتهم وتلامذتهم:**

وعدة المؤلفات التي قيّدها الغبريني للنخبة الأندلسية الوافدة إلى بجاية في **مجال اللغة الأدب** أحد عشر كتابا جاءت كالآتي:

الحاوي في اللغة لعبد الحق الإشبيلي، **التقييد على المفصل** لابن فتوح النفزي، **شرح مقامات الحريري** للحضرمي القرطبي، **شرح فصيح ثعلب** للبلي وله أيضا **الإعلام بحدود قواعد الكلام**، **المقرب وشروح الجمل الثلاث** وشرح الإيضاح وشرح أبيات الإيضاح كلهم لابن عصفور.

---

[32]) عنوان الدراية ص93

[33]) عنوان الدراية ص85.

[34]) عنوان الدراية ص209.

وأمّا الآثار الإبداعية من نثر وشعرومسائل علمية فقد أورد لهم في كتابه مجموعة قصائد ورسائل وخطب لكل من: أبو عبد الله محمد الكناني، وأبوالخطاب بن دحية، وأبو مطرف بن عميرة المخزومي، وابن أبّار، وابن جنان، وأبو القاسم الأموي أورد له مسألة في علم النحو.

وما تبقى من الأدباء واللغويين فقد وصفهم بالأدباء واللغويين دون الإشارة إلى آثارهم وهم كلّ من: أبو عبد الله الخزرجي الشاطبي، أبو بكر ابن محرز، أبو عثمان بن زاهر البلنسي، أبو بكر ابن سيد الناس الإشبيلي، وأبو العباس بن عجلان القيسي، أبو العباس أحمد الغماري، أبو زيد عبد الرحمان الحجري.

***خاتمة:**

نخلص مما سبق:

– أن النخب الأندلسية الواردة ذكرها في مدونة الغبريني، غلب عليها الجانب اللغوي بشدة وأثّرت على النشء في بجاية من خلال بروز طبقة من أهل بجاية اعتنت واشتهرت بالنحو واللغة وعلومها، فكانت تعقد لهم مجالس خاصة بعلم اللغة والبيان والنحو وغيرها ونذكر هنا أبرز تلامذة النخبة الأندلسية من البجائيين كمحمد بن الحسن القلعي أحد تلامذة النخبة الأندلسية كأبي عميرة وابن محرز كان قويا في علم قال عنه الغبريني كان في علم العربية بارعا مقدما محكما لفنونها الثلاثة [35]

– تلاقح العلمي بين الوافد العالم والقاطن المتعلم

[35]) عنوان الدراية ص59.

-تكوين العنصر البجائي في مجال المعرفة اللغوية والأدبية من خلال الجلوس للإقراء والتدريس

-صوّر الغبريني حالة الثقافية في حاضرة بجاية من خلال توافد العنصر الأندلسي ومدى تأثيره على طلبة بجاية وتلامذتها

-استفادت بجاية من العنصر الأندلسي العالم في مجالات الإقراء والتدريس والقضاء.

أغلب النخب الأندلسية مكثوا في حاضرة بجاية واتخذوها موطنا لهم ومن كان لهم تأثير أقوى من العلماء الرحالة والذي مروا عليها فقط

المحاضرة السادسة: دولة الموحدين

دولة الموحدين: بدأ واضحا أن الضعف الذي أصاب دولة المرابطين في ايام عزها إرهاصا لقيام ثورة جديدة تبنى أسسها على إنقاذ الدولة المنتثرة، وكان زعيم هذه الثورة رجل من قبيلة "مصمودة " يسمى (محمد بن تومرت) حيث أشتهر بالزهد والشجاعة والجرأة والعلم فادعى المهدوية وذهب ابن تومرت في أول نشأته إلى المشرق لطلب العلم، وهنالك اطلعي على الخلافة العباسية التي كانت خاضعة لزعماء جيوش تركيا وعاينه معها الاحتضار الخلافة الفاطمية بمص، كما أدى فريضة الحج ، ودخل بغداد مقل الفيلسوف أبي حامد الغزالي، فأفاد من رحلته المشرقية، وخاصة في علم الكلام والأصول والسنة [5] ، وألتزم الطريقة الأشعرية في الكلام[6] ثم رجع إلى بلاد المغرب تحدوه رغبة شديدة في التغيير، فأخذ بعد عودته إلى المغرب سنة 512 هجرية في تأسيس حكومته على طريق شيخ القبيلة المتزعم وأفاض عليها صبغة المهدوية، وهي الطريقة التي نجح بها الفاطميون قبله لتأسيس دولتهم [1] وعندما دخل مراكش عاصمة المرابطين قضى عليه ابن يوسف بنفيه من المدينة خصوصا عندما بالغ في دعوته، وعندما علم أن السلطة تلاحقه وتذيق عليه الخناق قصد جبانة خارج مدينة مراكش وأقام خيمة بين القبور، فجاءته جماهير الناس من كل حدب وصوب مستمعة إلى مواضعه ومهتدية بهديه، وهو في ذلك يبصرها بنقائد الأمور ومساوئ الحكم ألمرابطي .

---

[5]–عصر المرابطين و الموحدين بالمغرب و الأندلس : محمد عبد الله عنان ، القاهرة 1964 ،ج :01 ص 163

–تاريخ ابن خلدون : عبد الرحمان ابن خلدون ، نشر مؤسسة الإعلى للمطبوعات ، بيروت لبنان ، 1959 ج: 6 [6]ص:466

[1]ينظر تاريخ الجزائر العام : ج 02 ، ص: 03 .

وأصدر بعدها علي بن يوسف أمرا بإلقاء القبض عليه و إعدامه لما علم بوفرة المتحمسين إلى فكرته و السالكين طريقه، فأنتقل ابن تومرت إلى بلاد السوس صحبة مؤزريه ودعى أصحابه بـ" الموحدين " تعريضا بخصومه المرابطين و طعنا في عقائدهم .

وأجتهد ابن تومرت في القضاء على دولة المرابطين بالمغرب الأقصى وأشهر عليهم سيفه وقلبه ولسانه، وبايعه جمع غفير من الناس بالإمارة المغربية، إلا انه توفي سنة 524 هجرية [2] وآلت مقاليد الأمور بعده إلى صديقه علي عبد المؤمن، حيث دخلت الدولة الموحدية في حكمه مرحلة جديدة بقضائه على المرابطين واستلائه على مراكش بعد وفاة السلطان علي بن يوسف .

ولقب أمير الموحدين بأمير المؤمنين ومرتبه لا يتجاوز مبلغ ما يتقاضا هأحد شيوخ الموحدين الذي هو عشرون ومائة دينار سنويا منجمة في أربع دفعات، وللجند والموظفين عند الموحدين أعطيات وغلات، ولم تتخذ هذه الدولة مذهبا من مذاهب تجبره على الناس .

وقسم الناس في عهدهم إلى ثلاث طبقات: السابقون الأولون وهم الذين بايعوا المهدي ابن تومرت ، ثم يليهم الأتباع ثم طبقة العامة.

ويطلق على أعضاء الأسرة المالكية من أبناء عبد المؤمن اسم "السيد" دون غيرهم فكان نظام دولتهم ارستقراطيا [3] .

---

[2] ينظر تاريخ الجزائر العام : ج 02 ، ص 4 0

[3] –ينظر تاريخ الجزائر العام :ج : 02 ، ص:05

وقد امتازت دولة الموحدين إلى جانب سابقتها بالجهاد ضد الأسبان بالأندلس، ففي سنة 555 هجرية انتقل عبد المؤمن بنفسه إلى الأندلس نزل بجبل طارق وأقام فيه حصنا عظيم الشأن، ووفدت جموع الناس عليه من كل حدب و صوب مباركة له ومهنئة على الانتصارات التي حققها، و"كان الهدف من هذه السفرة تحقيق هدفين أساسين هما:الاجتماع بطلبة الموحدين

والنظر في كيفية غزو الروم ونواحيها " [1] ثم عادة إلى مراكش و في نيته إعداد العدة للجهاد في الأندلس .

وقبل موته بقليل عزل ابنه الكبر عن ولاية العهد وأحل محله ابنه السيد أبا يعقوب يوسف الذي كان قائما بشؤون الأندلس، حيث أبدى براعة فائقة في الحرب وشؤون الإدارة [2] ، وقد كانت تنزلق الأمور بسبب تحاسد الإخوة، غير أن سياسة يوسف المحنكة و سماحته التي شملت أخويه كانت حائلا دون ذلك.

وقد اجتمع لهذه الدولة من الجند ما يفوق الأربعمائة وثمانين ألف جندي، يتزايد عددهم أحيانا إلى المليون في فترات الحرب، وهو مختلط ممزوج من العرب والبربر والإفرنج

[1]–تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين :ابن صاحب الصلاة ،تحقيق :عبد الهادي التازي،دار الأندلس للطباعة و النشر ، بيروت الطبعة الأولى 1964، ص : 147 .

[2]–تاريخ الأندلس في عهد المرابطين و الموحدين : أشياخ يوسف ، ترجمة : محمد عبد الله عنان ، مؤسسة الخانجي ، القاهرة ، الطبعة الثانية 1958 ،
ص :314

والمماليك [3]، كما شاع في وقت الموحدين الزهد والتقشف في ملذات الحياة والرضى بالقليل، ثم تلاشت هذه النزعة مع بعض الأمراء الأوائل .

و"تغيرت مكانة المرأة في عهد الموحدين فأقصيت من شؤون الحكم وأمور السياسة "[4] نظرا للمبادئ التي قامت عليها دولة الموحدين، وتوجهت إلى ميدان آخر أكثر ملائمة لطبيعتها ألا وهو ميدان التربية والتعليم، وكانت رائدة هذا المجال السيدة (زينب) ابنة يوسف بن عبد المؤمن، و " السيدة (خيرونة) التي كان لها يد في نشر عقيدة الأشاعرة بين نساء أهل فأس "[5]، وامتد سلطان هذه الدولة من المحيط الأطلسي غربا إلى بونة وطرابلس شرقا، ومن جبال الشارات (البرانس) شمالا إلى تخوم صحراء إفريقيا الكبرى جنوبا، وتعد بذلك أعظم مملكة شهدها الإسلام بالمغرب العربي.

وبعد وفاة الأمير أبي يعقوب سنة 575 هجرية خلفه ابنه "يعقوب ابن المنصور الذي بلغت دولة الموحدين في أيامه إلى منتهى العظمة والقوة، وكان عهده العهد الذهبي للمغرب سواء من حيث العمران و ازدهار الحضارة أو من ناحية استقرار النظام وانتشار العدالة ..." [1] بعد وفاته سنة 595 هجرية خلفه ابنه محمد الناصر الذي خاض موقعة العقاب مع الممالك

---

[3]–تاريخ الجزائر العام : عبد الرحمان الجيلاني ، ج 2 ، ص : 05

[4]–الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي : عبد الله علي علام ، دار المعارف ، مصر ،1971 ، ص :245–246 .

[5]–النبوغ المغربي لعبد الله كنون ، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني للطباعة و النشر ، بيروت ،1961 :ج :1 ، ص : 144

[1] – لبنبوغ لبمغريس في الأدب العربي : عبد الله كنون ، ج : 1، ص: 107

النصرانية وأخفق فيها، "فكانت بداية النهاية في تاريخ المحودين بالأندلس[2]،

وينقسم بعد ذلك أفراد البيت الموحدي على أنفسهم ويتنافسوا على الخلافة تنافس محموما، فدبا الضعف إلى هذه الدولة حتى أضمحل ملكها وسقطت على يد المراميين سنة 668 هجرية[3]

بعد أن تصدع شمل الموحدين وأدنت أيامهم بالذهاب خرج عنها ولاة النواح، وظهر العصيان من رؤساء العشائر واستبدوا بالإدارة، وبرزت إلى الوجود ثلاث إمارات أو دول مغربية هي:

1-3 الدولة الحفصية : تنسب هذه الدولة إلى رجل من خاصة ابن تومرت و أحد مريديه يكنى بأبي حفص، وانتقلت مدينة تونس إلى بنيه في عهد الخليفة الموحدي محمد الناصر ابن يعقوب، وأسمر بنوه في ولايتهم على تونس إلى أن أفضت إمارتها إلى أبي زكريا يحي ابن الشيخ أبي محمد بن عبد الواحد سنة 627 هجرية، وكان ملكا عادلا عالما، أديبا، فأعلن استقلاله على الموحدين رافضا بدعوتهم، وأتخذ تونس عاصمة لهذه الدولة، ووصلت سلطة هذه الدولة إلى مدينة الشلف وغليزان غرب الجزائر، كما اتجهت هذه الدولة

[2]– ديوان ابن سهل الإسرائيلي : تحقيق : إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت، لبنان ، 1967 ، ص : 09

[3]– ينظر تاريخ الجزائر العام : ج : 02 ، ص :31 .

إلى محاربة القراصنة الأوربيين الذين كانوا يستغلون الحركة التجارية للمسلمين، وكان من أمبر لذلك هو أهل بجاية .

إضافة إلى ذلك فقد اتسمت فترة حكمهم بالحرية الدينية والمذهبية، إذا ما برح المسلمون في المغرب ينضرون إلى علماء الإسلام وأئمة مذاهبه والمجتهدين منهم وإلى اختلاف أقوالهم وأرائهم في أحكامه وشرائعه إلى مذهب واحد وإمام واحد من غير نكير ولا تعصب ولا اعتراض.

ولا تزال معالم الحضارة الحفصية قائمة إلى اليوم من قلاع ومساجد و ديار كتب وحمامات وهي تمتاز بفن المعمار الصنهاجي والشكل الأندلسي، وأستمر حكم هذه الدولة إلى سنة 943 هجرية [1] .

ومن شعرائهم نذكر:

الشاعر عفيف الدين التلمساني:

هو"أبو الربيع عفيف الدين سليمان بن علي بن عبد الله، بن علي بن يس، العابدي الكومي التلمساني، وهو المعروف عند القدماء بالعفيف التلمساني."

بهذا النسب ينتهي إلى قبيلة بربرية تقيم قرب تلمسان في المنطقة المعروفة بندرومة، وهي منطقة " عبد المؤمن بن علي" مؤسس الدولة الموحدية بالمغرب العربي، اختلف في سنة

[1]– ينظر تاريخ الجزائر العام : ج:02 ، ص: 79.

ميلاده فمنهم من حددها بسنة 610هـ،1213 ميلادية، ومنهم من حددها بسنة 613هـ، 1216ميلادية.[1]

وفي ربوع تلمسان نشأ العفيف وهناك تلقى بذور التصوف وطريقة الصوفية، ثم رحل عن بلاده وطاف في ديار المسلمين باحثا عن شيخه حتى لقيه ببلاد الروم... وكان هذا الشيخ هو تلميذ ابن عربي الأشهر: صدر الدين القونوى المتوفى سنة672هجرية.

وكان لقاء التلمساني بصدر الدين القونوي تحولا خطيرا في مساره الروحين فقد تعرف من خلال شيخه على عالم فسيح وهو عالم " ابن عربي" الذي تعمق بالتجربة الصوفية حتى اخترق الفقه والفلسفة وعلم الكلام وغيرها من علوم هذه الحقبة، ليقدم في النهاية نمطا مميزا من التصوف الجازف الذي تجلت آفاقه في مؤلفات ابن عربي، وفي اتجاهات مدرسته من بعده.[2]

يذهب مترجموه إلى تقسيم حياته إلى أربعة مراحل:

1 -وهي مرحلة الشباب التي أجمعوا على غموضها تقريبا، وهي التي انتقل فيها إلى المشرق العربي حيث نزل أول أمر بمصر.
2 -وكان ذلك سنة 1263م، وهو متزوج ومنجب لولده، أقام هناك في خانقاه المعروف " سعيد السعداء" لصاحبه" شمس الدين الإيلي"، وبذلك يكون في العقد الثالث من عمره يوم ذاك – إن صحت هذه الواقعة–
3 -وهي التي قيل إنه انتقل فيها إلى بلاد الروم، حيث أقام أربعين خلوة ويخرج من واحدة ويدخل أخرى، وتدوم كل خلوة على عادة المتصوفة أربعين يوما.

[1] العربي دحو، ديوان أبي الربيع عفيف الدين التلمساني الصوفي (610هـ/1213م) (690هـ/ 1291م)، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، ط2، 1994، ص10.

[2] يوسف زيدان، ديوان عفيف التلمساني ج1، دار الشروق، دط، دت، ص12.

4 -وهي المرحلة الأخيرة في حياته والتي استقر فيها في دمشق، حيث يبدو أنه هاجر التصوف أو أن شيئا حدث في حياته، وفي هذه الفترة أقام منزله المعروف في ظاهر دمشق إلى اليوم وتمتع بحياته، إذ أنه قبل الوظيفة حسب رأي الشيخ الحافي" كان عفيف الدين مباشرا استيفاء الخزانة بدمشق..."

وظل كذلك حتى وافاه الأجل 5 رجب 690هـ، 4 جويلية 1291م ودفن في مقابر الصوفية بدمشق.[3]

في هذه الفترة التي عاشها الشاعر أو في عصره ذلك إن عدنا إلى مغربنا العربي الذي هو مسقط رأسه لنقول شيئا عن وضعه الثقافي، فإننا نجد أن الشاعر قد ظهر في العصر الزياني (633هـ/1235م) (962هـ/ 1554م) ميلادية، وهي دولة مستقلة عن دولة الموحدين، وهذه الفترة كانت مزدهرة ثقافيا إلى أبعد حدود، فهي التي عرفت الأديب (أبو حمو موسى) الأول، هذا السلطان أو الأمير الذي أنشأ مدرسة بتلمسان ثم تلتها مدرسة التاشفينية فضلا عن الجامع الأعظم بتلمسان، وكذلك تميزت هذه الفترة بالاهتمام بالعلوم الدينية بالخصوص الأصول منها، وهذا الاهتمام الذي لاحظه الشاعر في بيئته المغربية تلكن لاشك أنه كان ذا حضور في توجهه الصوفي الذي اختص به والذي أتعبه عند القدماء حتى رماه البعض بالنصيريه، ونسبوا إليه أقوالا خطيرة على حد تعبير بعضهم من أمثال " الذهبي"و "ابن العماد"، فضلا عن ذلك فإن التيارات الصوفية كانت من جهتها حاضرة في هذه الفترة في المغرب حضورا قويا، وكذلك الأمر بالنسبة للمشرق العربي الذي عرف في هذه الفترة حكم المماليك، حيث كثر الربط والزوايا وكانوا يكرمون كذلك شيوخ التصوف ويقدرونهم.[4]

---

[3] العربي دحو، ديوان أبي الربيع عفيف الدين التلمساني الصوفي، ص10-11.

[4] نفس المرجع السابق، ص11-12.

من الأسماء البارزة التي عرفتها الجزائر التي منها الشاعر في مجال التصوف نذكر "أبو مدين بن شعيب" توفي سنة 954هـ، و"ابن سبعين المرسي" سنة 669هـ، و"البدوي المعروف "ب الملثم سنة 662هـ، و"أبو الحسن الشاذلي" توفي سنة 613هـ، و"أبو إسحاق" الطيار سنة 700هـ، وفي المشرق لمعت أسماء " السهروردي"، و" جلال الدين الرومي"، و"صدر الدين محمد القونوي" الذي التقى بالشاعر وأثنى عليه، بل أعجب به وغيرهم كثير.[5]

مؤلفاته:

كان للتصوف الأثر الجليل على الأعمال الأدبية والشعرية للتلمساني عكس فيها نظرته الاجتماعية والدينية، حيث خلق لنا عددا من الكتب المخطوطة وكانت كما يلي:[6]

1 -شرح كتاب منازل السائلين إلى الحق المبين للهروب.

2 -شرح كتاب المواقف للنفري.

3 -شرح تائية ابن الفارض المسماة نظم السلوك.

4 -شرح كتاب فصوص الحكم لابن عربي.

5 -شرح قصيدة العينية لابن سينا وسماه الكشف والبيان في معرفة الإنسان.

6 -شرح الأسماء الحسنى.

7 -رسالة في علم العروض.

من استعراض مؤلفات التلمساني يبدو أنه كان شغوفا بهذه النصوص الصوفية ذات الطابع الرمزي، فقد عكف على العديد منها محاولا تحديد المعاني المتوارية خلف الرمز الصوفي ومظهرا تلك الحقائق كما يراها أهل الطريق الصوفي.

---

[5] نفس المرجع السابق، ص12-13.

[6] ينظر يوسف زيدان، ديوان عفيف الدين التلمساني، ص21-33.

فإذا كانت مؤلفات التلمساني الشارحة ذات قيمة تفسيرية كبيرة لآراء السابقين، فإنها أيضا تعبر عن موقفه الخاص باعتباره واحد من مشايخ أهل الطريق.

5 الديوان:

لم يتحدث القدماء بمفهومنا الحديث لذلك يمثل ما تحدث عنه المعاصرين، فمن القدماء من ذكر أن له نظما، تاريخ الأدب العربي، حيث قال عنه أنه مرتب أبجديا وأشار إلى بعض النسخ بأرقامها دون تحليل كالموجودة في المتحف البريطاني وبوليفيا والأوسكوريال وغيرها، كما أشار إلى النسخة المطبوعة في القاهرة في سنتي 1281للهجرة، وكذلك سنة1287للهجرة، والمطبوعة في بيروت سنة 1885 ميلادية مشيرا إلى الترجمة التي قدمت عن ديوان إلى الفرنسية.

والذي يلاحظ على ما ذكره عنه"بروكمان" هو أنه لم يعط أي وصف لأية نسخة من الديوان، الأمر الذي جعلنا نسجل بعض التساؤلات عن ذلك منها أن طبعتي القاهرة للديوان سنتي 1281و 1287 المذكورتين سابقا لم يعثر طلبتها على أي نسخة منهما في مكتبة جامعة القاهرة، وأن نسخة بيروت سنة 1885أيضا لم يعثر عليها هناك، ولكن التي عثر عليها هي نسخة ابنه المعروف بالشباب الظريف بالنسبة لطبعة بيروت وهي نسخة متكونة من 76صفحة مذيلة بقصيدة "بانت سعاد"ل "كعب بن زهير" [7] وغير محققة مطبوعة طبعة حجرية وليست كاملة، كما أنه لم يلتفت إلى نسخ المخطوط الموجود في الأقطار العربية، سوريا والمغرب ولا إلى خصوصية أية مخطوطة من تلك المخطوطات.

وأما من المعاصرين العرب الذين اهتموا بالديوان اهتماما مميزا وبنسخه نجد"عمر موسى باشا" الذي تناول ذلك بإسهاب لكنه لم يتجاوز بروكلمان إلا بإضافة نسخ الظاهرية ذات الأرقام 5917 و 8097 و 4168 و 5982 والتي ذكر أنها توجد في المكتبة الأحمدية بتونس

[7] العربي دحو، ديوان أبي الربيع عفيف الدين التلمساني الصوفي، ص13– 14.

دون إعطاء رقمها أو خصائصها، أما ما عدا ذلك فقد اقتفى فيه أثر بروكلمان بخصوص النسخ الموجودة في البلدان الأوروبية وطبعات الديوان، بحيث أن خصوصيات النسخ لم يقدم شيئا يذكر عنها ما عدا تلك التي تخص عدد الأوراق ونوع الخط الذي كتبت به، وأسماء نساخ بعضها وتاريخ ذلك النسخ الموجودة في المكتبة الظاهرية(الأسد حاليا)، الأمر الذي يوحي أن المؤلف لم يشاهد النسخ الأخرى غير الموجودة في الظاهرية، كذلك الشأن بالنسبة للنسخ التي قيل عنها مطبوعة فقد أوردها بترتيب (بروكلمان) مما يؤكد اعتماده على النقل ليس إلا من تاريخ الأدب العربي لبروكلمان.[8]

يعتبر ديوان التلمساني هو أكثر أعماله تعبيرا عن شخصيته وآفاق تصوفه، فإذا كانت سائر مؤلفات التلمساني– باستثناء رسالته في العروض– هي شروح على ما كتبه السابقون عليه،فإن هذا الديوان هو المؤلف المستقل الذي لم يتقيد فيه العفيف بعبارة غيره، بأن انطلق بحسه الشعري المرهف ليعبر عما يراه هو من حقائق المحبة وغيرها من ملامح الطريق الصوفي.

والديوان هو أشهر مؤلفات التلمساني على الإطلاق ولا توجد شكوك في نسبته له، إذ ذكره مع معظم المترجمين والمفهرسين للتلمساني واقتبس منه المؤرخون أبياتا كثيرة نالت شهرة واسعة في حياة التلمساني وبعد وفاته وإن تضاربت حول جودتها الآراء.[9]

ومن الآراء المتضاربة حول شعر التلمساني قول الدكتور عمر فروخ:" أما شعره فسهل ينوء أحيانا بالصعق"، في حين يقول ابن العماد:" وأما شعره ففي الذروة العليا من البلاغة" ويقول ابن الشاكر: " وشعره جيد إلى الغاية" وهو ما نجده أيضا عند ابن تغري بردي حيث يصف التلمساني بأنه:" من الشعراء المجيدين".

---

[8] نفس المرجع السابق، ص14– 15.

[9] يوسف زيدان، ديوان عفيف الدين التلمساني، ص34.

عموما فإن إصدار الحكم على جودة الشعر غالبا ما يخضع لمعايير مختلفة وذلك كما يقول الآمدي لا خلاف أذواق الناس وقدر قبولهم لشاعر دون آخر، إذا فان قيمة شعر التلمساني التي تظهر لنا إلا بعد مطالعة ديوانه وبعد تحديد موقع هذه المطالعة من أذواقها، وديوان التلمساني في معظمه يدور حول تلك الأفكار الصوفية التي ظهرت عند ابن عربي وابن السبعين وأتباعهما.[10]

[10] نفس المرجع السابق، ص35.

المحاضرة السابعة: المرابطون والموحدون الحالة السياسية والاجتماعية:

نعني بالمغرب الإسلامي البلاد الممتدة في شمال إفريقيا من غرب مصر إلى المحيط الأطلسي ، أطلق عليها اليونان قديما إسم" ليبيا "ثم أطلق عليها الرمان فيما بعد بإسم (البربر)، وأحفظ العرب من بعدهم بهذه التسمية وكان المغرب عندهم يشمل إفريقيا و الأندلس غير أننا في هذه الدراسة نعني بالمغرب الدول المغاربية اليوم وهي: ليبيا وتونس الجزائر و المغرب ، الصحراء الغربية وموريتانيا إذ كانت بلادا واحدة و إذ حكمتها إيمارات عدة في وقت واحد أو توارت في حكمها عبر حقبات زمنية متعاقبة .

وسكان المغرب ينحدرون من أصلين : عربي و بربري، أما العرب فقد وفدوا إلى البلاد منذ الفتح العربي ، وأما البربر فهم سكان الشمال الإفريقي منذ القدم .

وقد قام المغرب الإسلامي بدور هام في الحفاظ على هاذين الإرثين ، فكان أهله أشد الناس إخلاصا للعروبة و الإسلام ، فقد هبوا لنصرة إخوانهم بالأندس حينما أحدق بهم خطر النصارى ، وكانوا يتقدون حمية إذا تعرضا بنو ملتهم ما يزعجهم .

ففي القرنين السادس و السابع الهجريين شهد المغرب الإسلامي عددا من الدول الإمارات ممن رفع راية الجهاد و الإصلاح على كل مستويات الحياة الاجتماعية و السياسة و الدينية وكذا الأدبية ، ومن الدول التي حكمت المغرب إبان تلك الفترة :

1-1-دولة المرابطين : حيث قامت هذه الدولة على أساس ديني، ولا أدل على ذلك من إسمها (المرابطون)، فـ "المرابطة ملازمة ثغر العدو، وأصله أن يربط كل واحد من الفرقين خيله ثم صار لزوم الثغر رباطا " [1]، كما وردت هذه الكلمة في القرآن الكريم لقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا أصبوا وصابرو ورابطو وأتقو الله لعلكم تفلحون) "آل عمران :200 .

ثم أستعيره الرباط إلى مسكن العباد وأهل الطرق الصوفية ، فقيل لمن يقيم في هذا الربط المعدة للعبادة والطاعات (مرابط) لملازمة الرباط و انقطاعه فيه للعبادة

وكان شعار المرابطين توحيد المسلمين و إقامة شعائر الإسلام و توطيدها، فقاموا بترسيخ هذه المبادئ من إلقاء المغارم والمكوس الجائرة التي فرضها الحكام على عامة الناس، ودعوا إلى التمسك بالقرآن والسنة فاستقر أمرهم في قلوب الناس لما في ظاهر دعوتهم من الحق والعدل .

إضافة إلى أن قواد هاه الحركة زيادة على ما يتسمون به من صلاح فإنهم أهل علم و معرفة، فوجد فيهم 3جيل من الفقهاء اشتهروا بالورع والتقوى وإنكار ال ذات خلصت نباتهم وزكت نفوسهم" [1] فعملوا بمبادئ الدين وكسروا شوكة العدو.

[1]-تاريخ الجزائر العام: عبد الرحمان بن محمد الجيلاني ، ديوان المطبوعات لجامعية ، بن عكنون، ج : 1:ص 308:

[1]- قيام دولة المرابطين : محمد حسن أحمد ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، 1957 ، ص: 364 .

وبلغت هذه الدولة عز أيامها في عهد الأمير يوسف بن تاشفين عاهل لمتوتة ورافع عماد الدولة المرابطية، وامتد ملكهم من تخوم المغرب الأقصى إلى أسوار مدينة الجزائر.

وقد أجمع المؤرخون على عدالة هذه الدولة وقيامها بشؤون الراعي والرعية كما يوجبه الإسلام ويقتضيه فقه الإمام مالك [2] ،وبلغ عدد جيش المرابطين في اول أمره إلى مائة ألف جندي، ولم يحفظ لجندي من جنودهم فرار من زحف، كما دام أهل المغرب بتفكير كل من ظهر عليه الخوض في شيء من علم الكلام، وقرر الفقهاء بمحضر علي بن يوسف بن تاشفين تقبيح الفلسفة وعلم الكلام والنظر فيهما وكراهية السلف لهما، وهجروا كل من ظهر عليه شيء من ذلك قائلين ببدعيتها، وحملوا الأمير عليا على نشر أوامره في البلاد بالتشديد والتوعيد بكل من يشتغل بهذا العلم، وأحرقت كتب الغزالي وهدد كل من يوجد عنده كتاب منها.

كما نبغ بالمغرب في أيام المرابطين كثير من ذوي القرائح و أرباب الحرف والصناعات والمهندسين، فأنشأ علي بن يوسف بن تاشفين في جمادي الثانية سنة 530 هجرية المسجد الجامع بتلمسان، ومحلة تلمسان، واستمر هذا المعهد يقوم بعمله الثقافي كمركز من مراكز الثقافة الغربية الإسلامية طيلة القرون التالية، وأضحى عاصمة من عواصم الفقه المالكي، والأمر نفسه للجامع الأعظم بالجزائر.

[2]– تاريخ الجزائر العام : ج 1 ، ص : 310 .

وإذا كانت بداية دعوة المرابطين ثابتة موطدة لدعائم الدين والعدل قد أخذ فيها الفقهاء ورجال الدين الصدارة في الدولة الناشئة حينذاك، إذ كان الأمير يوسف " يدني الفقهاء من مجلسه ويقربهم إليه و يستمع إلى نصائحهم و يعمل بموجب ما يأمرون به" [1] حتى شاع الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر، غير أن تكالب بعض هؤلاء الفقهاء على نفوذ وجمع المال و التضييق على الناس جعل منهم حمل نقمة الشعب المغربي ، فهجاهم بعض الشعراء منهم الشاعر أبو بكر محمد الإشبيلي بقوله [2] :

أهل الرياء لبستم ناموسكم كالذئب يدلج في الظلام العاتم

فملكتم الدنيا بمذهب مالك وقسمتم الأموال بابن القاسم

وركبتم شهب البغال ب"أشهب" وب"أصبغ"صبغت لكم في العالم

وبدأت تنحرف هذه الدولة عن المبادئ التي رسمتها لنفسها في بادئ أمرها وخاصة في عهد تاشفين بن علي، فقد ركن بعض الأمراء إلى الدعة والراحة وأهملوا شؤون الرعية فانعدم الأمن وكثرت الفتن والقلاقل .

و"استولى النساء على الأحوال وأسندت إليهن الأمور، فصارت كل امرأة من أكابر لمتوتة مشتملة على كل مفسد وشرير وقاطع سبيل وصاحب خمر وماخور ..." [3] فكثر

---

[1]– المعجم لتلخيص اخبار المغرب : عبد الواحد المراكشي ، تقديم : ممدوح حقي ، طبعة دار الكتاب (د.ت) المغرب ،ص : 241

[2]–نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب : أحمد بن محمد المقري ، تحقيق : إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، لبنان 1968 ج:3 ، ص 447

[3]–المعجم في تلخيص أخبار المغرب : ص :26

الفساد وعمت الفوضى، وتردت حالة المجتمع ، ففقد الناس ثقتهم بالحكم المرابطين والتفاف الناس بإبن تومرت بعد أن دام حكمهم ما بين سنة 472 و539 هجرية [4].

1-2-دولة الموحدين: بدأ واضحا أن الضعف الذي أصاب دولة المرابطين في ايام عزها إرهاصا لقيام ثورة جديدة تبنى أسسها على إنقاذ الدولة المنتثرة، وكان زعيم هذه الثورة رجل من قبيلة "مصمودة " يسمى (محمد بن تومرت) حيث أشتهر بالزهد والشجاعة والجرأة والعلم فادعى المهدوية وذهب ابن تومرت في أول نشأته إلى المشرق لطلب العلم، وهنالك اطلعي على الخلافة العباسية التي كانت خاضعة لزعماء جيوش تركيا وعاينه معها الاحتضار الخلافة الفاطمية بمص، كما أدى فريضة الحج ، ودخل بغداد مقل الفيلسوف أبي حامد الغزالي، فأفاد من رحلته المشرقية، وخاصة في علم الكلام والأصول والسنة [5] ، وألتزم الطريقة الأشعرية في الكلام[6] ثم رجع إلى بلاد المغرب تحدوه رغبة شديدة في التغيير، فأخذ بعد عودته إلى المغرب سنة 512 هجرية في تأسيس حكومته على طريق شيخ القبيلة المتزعم وأفاض عليها صبغة المهدوية، وهي الطريقة التي نجح بها الفاطميون قبله لتأسيس دولتهم [1] وعندما دخل مراكش عاصمة المرابطين قضى عليه ابن يوسف بنفيه من المدينة خصوصا عندما بالغ في دعوته، وعندما علم أن السلطة تلاحقه وتذيق عليه الخناق قصد جبانة خارج مدينة مراكش وأقام خيمة بين القبور، فجاءته جماهير الناس من كل حدب

[4]-ينظر تاريخ الجزائر العام : ج :01 ص: 316

[5]-عصر المرابطين و الموحدين بالمغرب و الأندلس : محمد عبد الله عنان ، القاهرة 1964 ،ج :01 ص 163

-تاريخ ابن خلدون : عبد الرحمان ابن خلدون ، نشر مؤسسة الإعلى للمطبوعات ، بيروت لبنان ، 1959 ج: 6 [6]ص:466

[1]ينظر تاريخ الجزائر العام : ج 02 ، ص: 03 .

وصوب مستمعة إلى مواضعه ومهتدية بهديه، وهو في ذلك يبصرها بنقائد الأمور ومساوئ الحكم ألمرابطي .

وأصدر بعدها علي بن يوسف أمرا بإلقاء القبض عليه و إعدامه لما علم بوفرة المتحمسين إلى فكرته و السالكين طريقه، فأنتقل ابن تومرت إلى بلاد السوس صحبة مؤزريه ودعى أصحابه بـ" الموحدين " تعريضا بخصومه المرابطين و طعنا في عقائدهم .

وأجتهد ابن تومرت في القضاء على دولة المرابطين بالمغرب الأقصى وأشهر عليهم سيفه وقلبه ولسانه، وبايعه جمع غفير من الناس بالإمارة المغربية، إلا انه توفي سنة 524 هجرية [2] وآلت مقاليد الأمور بعده إلى صديقه علي عبد المؤمن، حيث دخلت الدولة الموحدية في حكمه مرحلة جديدة بقضائه على المرابطين واستلائه على مراكش بعد وفاة السلطان علي بن يوسف .

ولقب أمير الموحدين بأمير المؤمنين ومرتبه لا يتجاوز مبلغ ما يتقاضا هأحد شيوخ الموحدين الذي هو عشرون ومائة دينار سنويا منجمة في أربع دفعات، وللجند والموظفين عند الموحدين أعطيات وغلات، ولم تتخذ هذه الدولة مذهبا من مذاهب تجبره على الناس .

وقسم الناس في عهدهم إلى ثلاث طبقات: السابقون الأولون وهم الذين بايعوا المهدي ابن تومرت ، ثم يليهم الأتباع ثم طبقة العامة.

[2] ينظر تاريخ الجزائر العام : ج 02 ، ص 4 0

ويطلق على أعضاء الأسرة المالكية من أبناء عبد المؤمن اسم "السيد" دون غيرهم فكان نظام دولتهم ارستقراطيا [3] .

وقد امتازت دولة الموحدين إلى جانب سابقتها بالجهاد ضد الأسبان بالأندلس، ففي سنة 555 هجرية انتقل عبد المؤمن بنفسه إلى الأندلس نزل بجبل طارق وأقام فيه حصنا عظيم الشأن، ووفدت جموع الناس عليه من كل حدب و صوب مباركة له ومهنئة على الانتصارات التي حققها، و"كان الهدف من هذه السفرة تحقيق هدفين أساسين هما:الاجتماع بطلبة الموحدين

والنظر في كيفية غزو الروم ونواحيها " [1] ثم عادة إلى مراكش و في نيته إعداد العدة للجهاد في الأندلس .

وقبل موته بقليل عزل ابنه الكبر عن ولاية العهد وأحل محله ابنه السيد أبا يعقوب يوسف الذي كان قائما بشؤون الأندلس، حيث أبدى براعة فائقة في الحرب وشؤون الإدارة [2] ، وقد كانت تنزلق الأمور بسبب تحاسد الإخوة، غير أن سياسة يوسف المحنكة و سماحته التي شملت أخويه كانت حائلا دون ذلك.

---

[3]–ينظر تاريخ الجزائر العام :ج : 02 ، ص:05

[1]–تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين :ابن صاحب الصلاة ،تحقيق :عبد الهادي التازي،دار الأندلس للطباعة و النشر ، بيروت الطبعة الأولى 1964، ص : 147 .

[2]–تاريخ الأندلس في عهد المرابطين و الموحدين : أشياخ يوسف ، ترجمة : محمد عبد الله عنان ، مؤسسة الخانجي ، القاهرة ، الطبعة الثانية 1958 ،
ص :314

وقد اجتمع لهذه الدولة من الجند ما يفوق الأربعمائة وثمانين ألف جندي، يتزايد عددهم أحيانا إلى المليون في فترات الحرب، وهو مختلط ممزوج من العرب والبربر والإفرنج والمماليك [3]، كما شاع في وقت الموحدين الزهد والتقشف في ملذات الحياة والرضى بالقليل، ثم تلاشت هذه النزعة مع بعض الأمراء الأوائل .

و"تغيرت مكانة المرأة في عهد الموحدين فأقصيت من شؤون الحكم وأمور السياسة "[4] نظرا للمبادئ التي قامت عليها دولة الموحدين، وتوجهت إلى ميدان آخر أكثر ملائمة لطبيعتها ألا وهو ميدان التربية والتعليم، وكانت رائدة هذا المجال السيدة (زينب) ابنة يوسف بن عبد المؤمن، و " السيدة (خيرونة) التي كان لها يد في نشر عقيدة الأشاعرة بين نساء أهل فأس "[5]، وامتد سلطان هذه الدولة من المحيط الأطلسي غربا إلى بونة وطرابلس شرقا، ومن جبال الشارات (البرانس) شمالا إلى تخوم صحراء إفريقيا الكبرى جنوبا، وتعد بذلك أعظم مملكة شهدها الإسلام بالمغرب العربي.

وبعد وفاة الأمير أبي يعقوب سنة 575 هجرية خلفه ابنه "يعقوب ابن المنصور الذي بلغت دولة الموحدين في أيامه إلى منتهى العظمة والقوة، وكان عهده العهد الذهبي للمغرب سواء من حيث العمران و ازدهار الحضارة أو من ناحية استقرار النظام

---

[3]–تاريخ الجزائر العام : عبد الرحمان الجيلاني ، ج 2 ، ص : 05

[4]–الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي : عبد الله علي علام ، دار المعارف ، مصر ،1971 ، ص :245–246 .

[5]–النبوغ المغربي لعبد الله كنون ، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني للطباعة و النشر ، بيروت ،1961 :ج :1 ، ص : 144

وانتشار العدالة ..." [1] بعد وفاته سنة 595 هجرية خلفه ابنه محمد الناصر الذي خاض موقعة العقاب مع الممالك

النصرانية وأخفق فيها، "فكانت بداية النهاية في تاريخ المحودين بالأندلس[2]، وينقسم بعد ذلك أفراد البيت الموحدي على أنفسهم ويتنافسوا على الخلافة تنافس محموما، فدبا الضعف إلى هذه الدولة حتى أضمحل ملكها وسقطت على يد المراميين سنة 668 هجرية[3]

بعد أن تصدع شمل الموحدين وأدنت أيامهم بالذهاب خرج عنها ولاة النواح، وظهر العصيان من رؤساء العشائر واستبدوا بالإدارة، وبرزت إلى الوجود ثلاث إمارات أو دول مغربية هي:

1-3 الدولة الحفصية : تنسب هذه الدولة إلى رجل من خاصة ابن تومرت و أحد مريديه يكنى بأبي حفص، وانتقلت مدينة تونس إلى بنيه في عهد الخليفة الموحدي محمد الناصر ابن يعقوب، وأسمر بنوه في ولايتهم على تونس إلى أن أفضت إمارتها إلى أبي زكريا يحي ابن الشيخ أبي محمد بن عبد الواحد سنة 627 هجرية، وكان ملكا عادلا عالما، أديبا، فأعلن استقلاله على الموحدين رافضا بدعوتهم، وأتخذ تونس عاصمة لهذه الدولة، ووصلت سلطة هذه الدولة إلى مدينة الشلف وغليزان غرب الجزائر، كما اتجهت هذه الدولة

[1] – لبنبوغ لبمغريس في الأدب العربي : عبد الله كنون ، ج : 1، ص: 107

[2]– ديوان ابن سهل الإسرائيلي : تحقيق : إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت، لبنان ، 1967 ، ص : 09

[3]– ينظر تاريخ الجزائر العام : ج : 02 ، ص :31 .

إلى محاربة القراصنة الأوربيين الذين كانوا يستغلون الحركة التجارية للمسلمين، وكان من أمبر لذلك هو أهل بجاية .

إضافة إلى ذلك فقد اتسمت فترة حكمهم بالحرية الدينية والمذهبية، إذا ما برح المسلمون في المغرب ينضرون إلى علماء الإسلام وأئمة مذاهبه والمجتهدين منهم وإلى اختلاف أقوالهم وأرائهم في أحكامه وشرائعه إلى مذهب واحد وإمام واحد من غير نكير ولا تعصب ولا اعتراض.

ولا تزال معالم الحضارة الحفصية قائمة إلى اليوم من قلاع ومساجد و ديار كتب وحمامات وهي تمتاز بفن المعمار الصنهاجي والشكل الأندلسي، وأستمر حكم هذه الدولة إلى سنة 943 هجرية [1] .

المحاضرة الثامنة: أعلام المرابطين والموحدين.

ومن شعرائهم نذكر:

الشاعر عفيف الدين التلمساني:

هو"أبو الربيع عفيف الدين سليمان بن علي بن عبد الله، بن علي بن يس، العابدي الكومي التلمساني، وهو المعروف عند القدماء بالعفيف التلمساني."

بهذا النسب ينتهي إلى قبيلة بربرية تقيم قرب تلمسان في المنطقة المعروفة بندرومة، وهي منطقة " عبد المؤمن بن علي" مؤسس الدولة الموحدية بالمغرب العربي، اختلف في سنة

[1]– ينظر تاريخ الجزائر العام : ج:02 ، ص: 79.

ميلاده فمنهم من حددها بسنة 610هـ،1213 ميلادية، ومنهم من حددها بسنة 613هـ، 1216ميلادية.[1]

وفي ربوع تلمسان نشأ العفيف وهناك تلقى بذور التصوف وطريقة الصوفية، ثم رحل عن بلاده وطاف في ديار المسلمين باحثا عن شيخه حتى لقيه ببلاد الروم... وكان هذا الشيخ هو تلميذ ابن عربي الأشهر: صدر الدين القونوى المتوفى سنة672هجرية.

وكان لقاء التلمساني بصدر الدين القونوي تحولا خطيرا في مساره الروحين فقد تعرف من خلال شيخه على عالم فسيح وهو عالم " ابن عربي" الذي تعمق بالتجربة الصوفية حتى اخترق الفقه والفلسفة وعلم الكلام وغيرها من علوم هذه الحقبة، ليقدم في النهاية نمطا مميزا من التصوف الجازف الذي تجلت آفاقه في مؤلفات ابن عربي، وفي اتجاهات مدرسته من بعده.[2]

يذهب مترجموه إلى تقسيم حياته إلى أربعة مراحل:

1 -وهي مرحلة الشباب التي أجمعوا على غموضها تقريبا، وهي التي انتقل فيها إلى المشرق العربي حيث نزل أول أمر بمصر.
2 -وكان ذلك سنة 1263م، وهو متزوج ومنجب لولده، أقام هناك في خانقاه المعروف " سعيد السعداء" لصاحبه" شمس الدين الإيلي"، وبذلك يكون في العقد الثالث من عمره يوم ذاك – إن صحت هذه الواقعة–
3 -وهي التي قيل إنه انتقل فيها إلى بلاد الروم، حيث أقام أربعين خلوة ويخرج من واحدة ويدخل أخرى، وتدوم كل خلوة على عادة المتصوفة أربعين يوما.

[1] العربي دحو، ديوان أبي الربيع عفيف الدين التلمساني الصوفي (610هـ/1213م) (690هـ/ 1291م)، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، ط2، 1994، ص10.

[2] يوسف زيدان، ديوان عفيف التلمساني ج1، دار الشروق، دط، دت، ص12.

4 -وهي المرحلة الأخيرة في حياته والتي استقر فيها في دمشق، حيث يبدو أنه هاجر التصوف أو أن شيئا حدث في حياته، وفي هذه الفترة أقام منزله المعروف في ظاهر دمشق إلى اليوم وتمتع بحياته، إذ أنه قبل الوظيفة حسب رأي الشيخ الحافي" كان عفيف الدين مباشرا استيفاء الخزانة بدمشق..."

وظل كذلك حتى وافاه الأجل 5 رجب 690هـ، 4 جويلية 1291م ودفن في مقابر الصوفية بدمشق.[3]

في هذه الفترة التي عاشها الشاعر أو في عصره ذلك إن عدنا إلى مغربنا العربي الذي هو مسقط رأسه لنقول شيئا عن وضعه الثقافي، فإننا نجد أن الشاعر قد ظهر في العصر الزياني (633هـ/1235م) (962هـ/ 1554م) ميلادية، وهي دولة مستقلة عن دولة الموحدين، وهذه الفترة كانت مزدهرة ثقافيا إلى أبعد حدود، فهي التي عرفت الأديب (أبو حمو موسى) الأول، هذا السلطان أو الأمير الذي أنشأ مدرسة بتلمسان ثم تلتها مدرسة التاشفينية فضلا عن الجامع الأعظم بتلمسان، وكذلك تميزت هذه الفترة بالاهتمام بالعلوم الدينية بالخصوص الأصول منها، وهذا الاهتمام الذي لاحظه الشاعر في بيئته المغربية تلكن لاشك أنه كان ذا حضور في توجهه الصوفي الذي اختص به والذي أتعبه عند القدماء حتى رماه البعض بالنصيريه، ونسبوا إليه أقوالا خطيرة على حد تعبير بعضهم من أمثال " الذهبي"و "ابن العماد"، فضلا عن ذلك فإن التيارات الصوفية كانت من جهتها حاضرة في هذه الفترة في المغرب حضورا قويا، وكذلك الأمر بالنسبة للمشرق العربي الذي عرف في هذه الفترة حكم المماليك، حيث كثر الربط والزوايا وكانوا يكرمون كذلك شيوخ التصوف ويقدرونهم.[4]

[3] العربي دحو، ديوان أبي الربيع عفيف الدين التلمساني الصوفي، ص10-11.

[4] نفس المرجع السابق، ص11-12.

من الأسماء البارزة التي عرفتها الجزائر التي منها الشاعر في مجال التصوف نذكر "أبو مدين بن شعيب" توفي سنة 954هـ، و"ابن سبعين المرسي" سنة 669هـ، و"البدوي المعروف "ب الملثم سنة 662هـ، و"أبو الحسن الشاذلي" توفي سنة 613هـ، و"أبو إسحاق" الطيار سنة 700هـ، وفي المشرق لمعت أسماء " السهروردي"، و" جلال الدين الرومي"، و"صدر الدين محمد القونوي" الذي التقى بالشاعر وأثنى عليه، بل أعجب به وغيرهم كثير.[5]

مؤلفاته:

كان للتصوف الأثر الجليل على الأعمال الأدبية والشعرية للتلمساني عكس فيها نظرته الاجتماعية والدينية، حيث خلق لنا عددا من الكتب المخطوطة وكانت كما يلي:[6]

1 -شرح كتاب منازل السائلين إلى الحق المبين للهروب.

2 -شرح كتاب المواقف للنفري.

3 -شرح تائية ابن الفارض المسماة نظم السلوك.

4 -شرح كتاب فصوص الحكم لابن عربي.

5 -شرح قصيدة العينية لابن سينا وسماه الكشف والبيان في معرفة الإنسان.

6 -شرح الأسماء الحسنى.

7 -رسالة في علم العروض.

من استعراض مؤلفات التلمساني يبدو أنه كان شغوفا بهذه النصوص الصوفية ذات الطابع الرمزي، فقد عكف على العديد منها محاولا تحديد المعاني المتوارية خلف الرمز الصوفي ومظهرا تلك الحقائق كما يراها أهل الطريق الصوفي.

---

[5] نفس المرجع السابق، ص12-13.

[6] ينظر يوسف زيدان، ديوان عفيف الدين التلمساني، ص21-33.

فإذا كانت مؤلفات التلمساني الشارحة ذات قيمة تفسيرية كبيرة لآراء السابقين، فإنها أيضا تعبر عن موقفه الخاص باعتباره واحد من مشايخ أهل الطريق.

5 الديوان:

لم يتحدث القدماء بمفهومنا الحديث لذلك يمثل ما تحدث عنه المعاصرين، فمن القدماء من ذكر أن له نظما، تاريخ الأدب العربي، حيث قال عنه أنه مرتب أبجديا وأشار إلى بعض النسخ بأرقامها دون تحليل كالموجودة في المتحف البريطاني وبوليفيا والأوسكوريال وغيرها، كما أشار إلى النسخة المطبوعة في القاهرة في سنتي 1281للهجرة، وكذلك سنة1287للهجرة، والمطبوعة في بيروت سنة 1885 ميلادية مشيرا إلى الترجمة التي قدمت عن ديوان إلى الفرنسية.

والذي يلاحظ على ما ذكره عنه"بروكمان" هو أنه لم يعط أي وصف لأية نسخة من الديوان، الأمر الذي جعلنا نسجل بعض التساؤلات عن ذلك منها أن طبعتي القاهرة للديوان سنتي 1281و 1287 المذكورتين سابقا لم يعثر طلبتها على أي نسخة منهما في مكتبة جامعة القاهرة، وأن نسخة بيروت سنة 1885أيضا لم يعثر عليها هناك، ولكن التي عثر عليها هي نسخة ابنه المعروف بالشباب الظريف بالنسبة لطبعة بيروت وهي نسخة متكونة من 76صفحة مذيلة بقصيدة "بانت سعاد"ل "كعب بن زهير" [7] وغير محققة مطبوعة طبعة حجرية وليست كاملة، كما أنه لم يلتفت إلى نسخ المخطوط الموجود في الأقطار العربية، سوريا والمغرب ولا إلى خصوصية أية مخطوطة من تلك المخطوطات.

وأما من المعاصرين العرب الذين اهتموا بالديوان اهتماما مميزا وبنسخه نجد"عمر موسى باشا" الذي تناول ذلك بإسهاب لكنه لم يتجاوز بروكلمان إلا بإضافة نسخ الظاهرية ذات الأرقام 5917 و 8097 و 4168 و 5982 والتي ذكر أنها توجد في المكتبة الأحمدية بتونس

[7] العربي دحو، ديوان أبي الربيع عفيف الدين التلمساني الصوفي، ص13– 14.

دون إعطاء رقمها أو خصائصها، أما ما عدا ذلك فقد اقتفى فيه أثر بروكلمان بخصوص النسخ الموجودة في البلدان الأوروبية وطبعات الديوان، بحيث أن خصوصيات النسخ لم يقدم شيئا يذكر عنها ما عدا تلك التي تخص عدد الأوراق ونوع الخط الذي كتبت به، وأسماء نساخ بعضها وتاريخ ذلك النسخ الموجودة في المكتبة الظاهرية(الأسد حاليا)، الأمر الذي يوحي أن المؤلف لم يشاهد النسخ الأخرى غير الموجودة في الظاهرية، كذلك الشأن بالنسبة للنسخ التي قيل عنها مطبوعة فقد أوردها بترتيب (بروكلمان) مما يؤكد اعتماده على النقل ليس إلا من تاريخ الأدب العربي لبروكلمان.[8]

يعتبر ديوان التلمساني هو أكثر أعماله تعبيرا عن شخصيته وآفاق تصوفه، فإذا كانت سائر مؤلفات التلمساني– باستثناء رسالته في العروض– هي شروح على ما كتبه السابقون عليه،فإن هذا الديوان هو المؤلف المستقل الذي لم يتقيد فيه العفيف بعبارة غيره، بأن انطلق بحسه الشعري المرهف ليعبر عما يراه هو من حقائق المحبة وغيرها من ملامح الطريق الصوفي.

والديوان هو أشهر مؤلفات التلمساني على الإطلاق ولا توجد شكوك في نسبته له، إذ ذكره مع معظم المترجمين والمفهرسين للتلمساني واقتبس منه المؤرخون أبياتا كثيرة نالت شهرة واسعة في حياة التلمساني وبعد وفاته وإن تضاربت حول جودتها الآراء.[9]

ومن الآراء المتضاربة حول شعر التلمساني قول الدكتور عمر فروخ:" أما شعره فسهل ينوء أحيانا بالصعق"، في حين يقول ابن العماد:" وأما شعره ففي الذروة العليا من البلاغة" ويقول ابن الشاكر: " وشعره جيد إلى الغاية" وهو ما نجده أيضا عند ابن تغري بردي حيث يصف التلمساني بأنه:" من الشعراء المجيدين".

[8] نفس المرجع السابق، ص14– 15.

[9] يوسف زيدان، ديوان عفيف الدين التلمساني، ص34.

عموما فإن إصدار الحكم على جودة الشعر غالبا ما يخضع لمعايير مختلفة وذلك كما يقول الآمدي لا خلاف أذواق الناس وقدر قبولهم لشاعر دون آخر، إذا فان قيمة شعر التلمساني التي تظهر لنا إلا بعد مطالعة ديوانه وبعد تحديد موقع هذه المطالعة من أذواقها، وديوان التلمساني في معظمه يدور حول تلك الأفكار الصوفية التي ظهرت عند ابن عربي وابن السبعين وأتباعهما.[10]

أبو مدين شعيب التلمساني(560هـ-594هـ):

توطئة:

لقد ارتأيت أن أخصص ترجمة لأبي مدين الغوث، لأنه يشكل علامة بارزة ومميزة، بل ومدرسة للمتصوفة الأندلسيين والمغاربة على حد سواء، ثم ترجمت لقطب آخر، والذي اعتبرته من أهل التصوف الفلسفي وهو: الششتري.

أبو مدين الغوث([11])

يعتبر هذا الصوفي الأندلسي الأصل، السني المذهب، رائد التصوف السلوكي، ولهذا ارتأيت أن أفرده بترجمة خاصة، باعتباره ملتقى لكل متصوف مغربي وأندلسي، ونقطة انطلاقة لكل واحد منهم، فهو بذلك يشكل مدرسة مستقلة.

ولادته ونشأته:

هو أبو مدين شعيب بن الحسين الأندلسي الانصاري([12])، ولد ببجاية وبها نشأ وأصله من قطنيانة وهي قرية تبعد ثمان كيلومترات عن مدينة اشبيلية، توفي بتلمسان ودفن بجبل العباد([13]) سنة 594هـ.

---

[10] نفس المرجع السابق، ص35.

([11]) هو الذي يغيث الله الناس بدعائه، وقد عرفه الجرجاني في التعريفات بأنه هو القطب حينما يلتجأ إليه ولا يسمى في غير ذلك الوقت غوثا، وقد كانت هذه الصفة تطلق على أبي مدين.

القطب الرباني هو" الشيخ الفقيه المحقق الواصل القطب شيخ مشايخ الإسلام في عصره، إمام العباد والزهاد وخاصة الخلصاء من فضلاء العباد"([14])

"من ناحية اشبيليا ومن حصين يقال له (منتوجب) فتح الله عليه بالمواهب قلبية وأسرار ربانية استنفادها بالتوجه والعمل وارتقى إلى غاية ما يؤمل" ([15]) ولقد اختلفت المصادر في التحديد الدقيق لتاريخ مولده، فذهب بعض المؤرخين إلى أن عام ولادته كان سنة (510هـ – 1116م) وقيل سنة (514 هـ – 1120 م) ، والأرجح أنه ولد سنة (509 هـ –1115 م) استنادا إلى رواية المؤرخ (محمد بن محمود البناني) حين تعرض لوفاته فقال:

" توفي سيدي أبو مدين شعيب بن الحسين الأندلسي في سنة أربع وتسعين خمسمائة، عن نحو خمس وثمانين سنة. "([16])

وقد كان منذ نشأته فتى كثير التأمل، تشغل فكره أسئلة كثيرة في مختلف القضايا، كانت نفسه الصغيرة تتوق للتدين والعبادة، وقد نشأ أبو مدين يتيما وكان والده الذي توفي في عهد مبكرة من حياة شيخنا صاحب غنم، ولم تكن الغنم من الكثرة بحيث تسمح باستئجار راع لها، وكان شعيب أصغر إخوته، فكلفوه على أن يقوم على رعيتها، وكانت هذه الأغنام تكلفه جهدا وتشق عليه ، لكن نفسه التواقة إلى العلم والعبادة ، كانت تدفعه للتماطل في رعيها أحيانا والامتناع أحيانا أخرى، فهو لا يجد رغبة أو ميلا في فعل ذلك، بل كان كما قال متحدثا عن نفسه: "كلما رأيت من يصلى أو يقرأ، أعجبني ودنوت منه، وأجد في نفسي

([12]) مصادر ترجمة أبي مدين كثيرة منها: التشوف، ص319، عنوان الدراية، ص 22 ، المستفاد، ج2، ص42، الذيل والتكملة بقية السفر الرابع، ص128، النجم الثاقب لابن صعد ق خ ع ك 1292، دائرة المعارف الإسلامية ، م 1، ص400.

([13]) العباد قرية بظاهر تلمسان من جهة الجبل. وهي مدفن لعدد كبير من العلماء والصالحين، ينفرد ابن الطواح بالقول بأن وفاة أبي مدين كانت سنة 621 هـ المخطوط الورق 3.

([14]) الغبريني: عنوان الدراية، ص56.

([15]) العربي بن مصطفى الشوار: ديوان أبي مدين شعيب، مطبعة الترقي، دمشق، سوريا، ط 1، 1938، ص44.

([16]) عبد الحليم محمود: أبو مدين الغوث، ص 81.

غما لأنني لا أحفظ شيئا من القرآن، ولا أعرف كيف أصلي فقويت عزيمتي على الفرار لأتعلم القراءة والصلاة ففررت فلحقني أخي وبيده حربة فقال لي: والله لئن لم ترجع لأقتلنك. فرجعت وأقمت قليلا لكن نفسه ظلت تهفو إلى مبتغاها، ولم تدم الإقامة طويلا حتى قويت عزيمته مرة أخرى على الفرار مجددا، يقول: " فأسريت ليلة وأخذت في طريق أخر فأدركني أخي بعد طلوع الفجر، فسل سيفه علي وقال لي: والله لأقتلنك وأستريح منك !فعلاني بسيفه ليضربني فتلقيته بعود كان بيدي فنكسر سيفه وتطاير قطعا ؛فلما رأى ذلك قال لي يا أخي اذهب حيث شئت. " ([17]).

من هذا الموقف الغريب تبدأ رحلة شيخنا في طلب العلم، رحلة شاقة مليئة بالمخاطر والصعاب، لكن كل تلك الصعوبات كانت تصطدم بإرادة صلبة، إرادة أبي مدين في حب العلم والمعرفة، فيواصل مسيرته الطويلة التي يلقي أثناءها شتى أنواع المخاطر التي تنهار أمامها كبار النفوس، لكن الشيخ كان أكبر نفسا وأقوى عزيمة، فيتوجه قاصدا المغرب يقول:

"فسرت ثلاثة أيام. أو أربعة أيام فلاحت لي كدية على البحر وعليها خيمة، فخرج منها شيخ وليس عليه إلا ما يستر به عورته، فنظر إلي وظن إني أسير فررت من أرض الروم، فسألني عن شأني فأخبرته. فأخذ حبلا وربط في طرفه مسمار فرمى به في البحر فأخرج حوتا فشواه لي فأكلته، فأقمت عنده ثلاثة أيام؛ كلما جعت رمى بالحبل والمسمار في البحر فيخرج به حوتا فيشويه وآكله، ثم بعد ذلك قال لي: أراك تروم أمرا، فارجع إلى الحاضرة فان الله لا يعبد إلا بالعلم. فرجعت إلى اشبيليا، ثم إلى شريس، ومن شريس إلى الجزيرة الخضراء، فجزت البحر إلى سبتة "([18]).

([17]) عبد الحليم محمود: أبو مدين الغوث، ص 81.

([18]) التادلي: التشوف إلى رجال التصوف، ص320.

خص ابن قنفد القسنطيني أبا مدين بتأليف سماه:" أنس الفقير وعز الحقير"([19]). تلقى أبو مدين تعليمه بالأندلس، ثم عبر البحر إلى المغرب ودرس في سبتة وفاس ومراكش، وسافر إلى المشرق وأدى فريضة الحج، ثم عاد إلى المغرب. وهو شيخ أهل المغرب، يسميه الصوفي محي الدين ابن عربي بشيخ الشيوخ كما يقول عنه في كتاب " روح القدس"([20]): كان أبو مدين رضي الله عنه لسان هذه الطريقة ومحييها ببلاد المغرب .

كما يقول عنه الغبريني في "عنوان الدراية" ([21]): شيخ الإسلام في عصره إمام العباد والزهاد وخاصة الخلفاء، من فضلاء العباد". ويصفه المقري في النفح ([22]): "بشيخ المشايخ، وسيد العارفين، وقدوة السالكين".

وأبو مدين دأب على قراءة كتاب الإحياء للغزالي ([23]) عاكفا عليه، ترد عليه الفتاوى في مذهب مالك فيجيب عنها في الوقت. كما كان كثير الأوراد، يخفي صدقته ويكرم الفقير ويذل الغني، ويسارع في قضاء حاجة الفقير بنفسه([24]).

وهو من أعلام العلماء، وحفاظ الحديث، خصوصا جامع الترميذي، الذي رواه عن شيوخه عن أبي ذر، الذي سمعه عن علي بن غالب ([25]).

([19]) ابن قنفد القسنطيني: أنس الفقير وعز الحقير، ص63

([20]) ابن عربي: روح القدس في مناصحة النفس، تح: حامد طاهر، الهيئة المصرية العامة، مصر، 2006، ص47.

([21]) الغبريني: عنوان الدراية، ص22.

([22]) المقري: نفح الطيب، ج7، ص136.

([23]) ابن صعد التلمساني: النجم الثاقب فيما لأولياء الله من مناقب، مكتبة مؤسسة الملك عبد العزيز، الدار البيضاء المغرب، ص 214.

([24]) ابن عربي: روح القدس في مناصحة النفس، ص270.

([25]) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، صور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972، ص 270.

قال ابن عبد الملك في "الذيل والتكملة" ([26])، راويا عن أبي عبد الله محمد بن ابراهيم الأنصاري : " خرج أبو مدين ألف تلميذ ظهرت على يد كل واحد منهم كرامة".

أساتذنه وشيوخه:

ومن أشهر شيوخ أبي مدين، أبو يعزى ([27]) المتوفي سنة 572هـ، وهو دفين قرية تاغيا بجبل ايرخان من عمل مكناسة الزيتون، وقد أقام له مدرسة خاصة بهذه الجهة ، وكان المريدون يهرعون إليه من سائر انحاء المغرب والأندلس.

كما تلقى علومه بفاس على الشيخ أبي الحسن بن حرزهم([28]) المتوفي سنة 559هـ، الذي لازمه وأخذ عنه " الرعاية " للمحاسبي، وأخذ كتاب السنن للترميذي على أبي الحسن بن غالب القرشي ([29]) المتوفي في حدود السبعين وخمسمائة، وهو من أهل قصر كتامة وبه دفن، وأخذ طريقة التصوف على أبي عبد الله الدقاق ([30])، وهو أحد أكابر الصوفية، كان يتردد بين فاس وسجلماسة ويقول: أنا أول من أخذ عنه الشيخ أبو مدين علم التصوف.

كما أخذ التصوف كذلك على أبي الحسن السلاوي ([31])، وأخذ العلوم الشرعية على أبي الحسن بن الصباغ([32]).

يقول ابن الزيات التادلي في " التشوف" نقلا عن أبي مدين ([33]):" وذهبت إلى فاس فلقيت بها الأشياخ، فسمعت رعاية المحاسبي على أبي الحسن بن حرزهم، وسمعت كتاب

([26]) المراكشي: الذيل والتكملة، ص128.

([27]) أحمد التادلي الصومعي: المعزى في مناقب الشيخ أبي يعزى، تح: محمد الجاوي، دار الكتب العلمية، المغرب، 2006، ص278.

([28]) التادلي: التشوف إلى رجال التصوف، ص 168. ابن قنفد القسنطيني: أنس الفقير وعز الحقير، ص14.

([29]) تلميذ الصوفي الشهير ابن العريف، ينظر: التادلي: التشوف إلى رجال التصوف، ص416.

([30]) التادلي: التشوف إلى رجال التصوف، ص141. محمد بن جعفر الكتاني: سلوة الأنفاس، ج3، ص102،

([31]) أحمد بابا التنبكتي: نيل الابتهاج بتطريز الديباج، مطبعة السعادة، مصر 1329 هـ، ص82.

([32]) أحمد التادلي الصومعي: المعزى في مناقب الشيخ أبي يعزى، ص 278.

السنن لأبي عيسى الترميذي على أبي الحسن بن غالب، وأخذت طريقة التصوف عن أبي عبد الله الدقاق وأبي الحسن السلاوي.

ومن بين شيوخ أبي مدين كذلك الشيخ عبد القادر الجيلاني([34]) الذي قرأ عليه في الحرم الشريف كثيرا من الحديث، وألبسه خرقة التصوف وأودعه كثيرا من أسراره، ولذلك كان أبو مدين يفتخر بصحبته ويعده أفضل مشايخه الأكابر.

رحلاته:

كانت بداية رحلته مليئة بالعجائب التي تنبئ على أن أبا مدين سيكون له شان عظيم، وفي سبته يقول: " كنت أجيرا للصيادين، ثم ذهبت إلى مراكش، فدخلتها وأدخلني الأندلس معهم في جملة الأجناد، فكانوا يأكلون عطائي، ولا يعطونني منه إلا اليسير، فقيل لي: إن رأيت أن تتفرغ لدينك فعليك بمدينة فاس فتوجهت إليها ولزمت جامعها، وتعلمت الوضوء والصلاة، وكنت أجلس إلى حلق الفقهاء والمذكرين فلا أثبت على شيء من كلامهم، إلى أن جلست إلى شيخ ثبت كلامه في قلبي فسالت من هو؟ فقيل لي: أبو الحسن ابن حرزهم فأخبرته إني لا أحفظ إلا ما سمعته من خاصته، فقال لي: هؤلاء يتكلمون بأطراف ألسنتهم فلا يجوز كلامهم الأذان، و قصدت الله بكلامي فيخرج من القلب ويدخل القلب "([35])

كان ذلك الشيخ الذي تأثر به أبو مدين كثيرا، وأثر في حياته ومستقبله بعد ذلك، هو الشيخ أبو الحسن علي ابن إسماعيل ابن محمد ابن عبد الله ابن حرزهم كان قد لقيهم في فاس وأعجب به الشيخ كثيرا فانكب على تحصيل العلوم والمعارف منه في أوقات

([33]) التادلي: التشوف إلى رجال التصوف، ص322.

([34]) ابن مريم محمد بن أحمد: البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، نشر محمد بن أبي شنب، تقديم عبد الرحمن طالب، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1988، ص110.

([35]) التادلي: التشوف إلى رجال التصوف، ص320.

دروسه، وفي نفس الوقت اخذ يعمل نساخا للكتاب لدى النساخين حتى يحصل على ما يعيل به نفسه ويقيم أوده ويصلح شؤونه المادية.

ولما رأى أبو مدين شعيب نفسه قد أخذ من علم الظاهر الكثير، تاقت نفسه لعلم الباطن (التصوف) وبخاصة أن التصوف كان رائجا وأعلامه كثيرين فأخذ طريقة التصوف عن أبي عبد الله الدقاق، وأبي الحسن السلاوي ومن علماء التصوف الذين أثروا كثيرا في أبي مدين وتأثر بهم الشيخ الزاهد المتصوف أبو يعزى ميمون التلمساني الأصل هذا العالم الذي كانت له مع أبي مدين حوادث مثيرة واختبارات صعبة فمنذ سمع الناس يتحدثون بكرامات أبي يعزى حتى تاقت نفسه لزيارته يقول: "فذهب إليه في جماعة توجهت لزيارته، فلما وصلنا جبل إروجان دخلنا على أبي يعزى وأقبل على الخلق دوني، فلما أحضر الطعام منعني من الأكل فقعدت في ركن الدار، فكلما أحضر الطعام وقمت إليه انتهرني فأقمت على تلك الحال ثلاثة أيام قام أبو يعزى من مكانه أتيت إلى ذلك المكان ومرغت وجهي فيه فلما رفعت رأسي نظرت فلم أرى شيئا فصرت أعمى، فبقيت أبكي طول ليلتي، فلما أصبحت استدعاني وقال لي: اقرب يا أندلسي فدنوت منه فمسح بيديه على عيني فأبصرت، ثم مسح بيده على صدري وقال للحاضرين: هذا يكون له شان عظيم، أو قال كلاما هذا معناه، فأذن لي بالانصراف" ([36])

كان الشيخ أثناء تعلمه لعلوم القرآن والحديث" لا ينتقل إلى آية أو حديث حتى يعمل بهما، فيخرج إلى موضع بعيد نقطع عن الناس قريب من الساحل، فإذا فتح الله له العمل بالآية والحديث عاد إلى فاس ليعمل على حديث وآية أخرى" ([37]) .

كما تنقل أبو مدين في بداية حياته في المدن الأندلسية، بين اشبيلية وشريس والجزيرة الخضراء، ثم عاد إلى سبتة التي تزوج فيها، وبنى بها زاويته، وألف فيها بعض كتبه. وقد

([36]) التادلي: التشوف إلى رجال التصوف، ص322.

([37]) التادلي: التشوف إلى رجال التصوف، ص321.

نزل أبو مدين ببجاية، يقول ابن الطواح في"سبك المقال" ([38]) أثناء ترجمته لعبد العزيز المهداوي:" ارتحل إلى بجاية للقاء شيخ المشايخ، معدن الأسرار، وقطب الأقطاب، أبي مدين رضي الله عنه والأخذ عنه ". بل ويذكر المقري في " النفح" بأن أبا مدين استوطن بجاية حينما خرج من فاس وكان يقول:" إنها معينة على طلب الحلال"([39]).

وفي بجاية كان يعقد حلقات للتدريس، يقول المقري ([40]) :" ومن كراماته أنه لما اختلف طلبة بجاية في حديث " إذا مات المؤمن أعطي نصف الجنة " وأشكل عليهم ظاهره: إذ بموت مؤمنين يستحقان كل الجنة، فجاءوا إليه وهو يتكلم على رسالة القشيري، فكاشفهم في الحال بلا سؤال، وقال لهم: المراد أنه يعطى نصف جنته هو، فيكشف له عن مقعده ليتعلم به وتقر عينه، ثم النصف الآخر يوم القيامة".

وبعد سنوات من الكد والإجهاد اكتسب خلالها أبو مدين كثيرا من المعارف الصوفية والحقائق الربانية استأذن شيخه أبا يعزى في السفر لأداء فريضة الحج فأذن له.

رحلته إلى المشرق :

استعد الشيخ لهذه الرحلة إلى الشرق والتي سيكون لها أثر واضح في مسيرته الصوفية فأخذ عن العلماء واستفاد من الزهاد والأولياء وتعرف في عرفة بالشيخ " سيدي عبد القادر الجيلاني" فقرأ عليه في الحرم الشريف كثيرا من أسراره وحلاه بملابس أنواره، فكان أبو مدين يفتخر بصحبته ويعد أفضل مشايخه الأكابر وقد استفاد الشيخ كثيرا من هذه الرحلة كما كان للقائه بالشيخ سيدي عبد القادر الجيلاني فضل كبير في بلورة شخصيته، رغم أن المصادر لم تحدثنا عن مدة إقامته بدقة" كما لم تحدثنا عن اتصالات وتنقلاته التي لا نشك أنها كثيرة ومتنوعة سمحت له بالحصول على أسرار طريقة الشيخ عبد القادر الجيلاني وعلى

([38]) ابن الطواح: سبك المقال لفك العقال، تحقيق مسعود جبران، دار الغرب الإسلامي، بيروت،(د.ت)، ص209.
([39]) المقري: نفح الطيب، ج141،7.
([40]) المقري: نفح الطيب، ج7، ص141.

علوم ومعارف أخرى ثقافية واجتماعية وسياسية وبعد هذه الرحلة الطويلة إلى المشرق والتي دامت أكثر من عقدين من الزمن، قفل أبو مدين شعيب راجعا إلى ديار المغرب العربي" ([41]) .

ورد في كتاب تاريخ " قضاة الأندلس"([42]) أن أبا جعفر بن سيد بونة حينما رحل إلى المشرق لتأدية فريضة الحج لقي جلة من الفضلاء أشهرهم وأكبرهم في باب الزهد والورع، وسني الأحوال، ورفيع المقامات، الشيخ الصالح أبو مدين شعيب، فصحبه كثيرا وارتوى من زلاله.

كما أكد ذلك صاحب "بيوتات فاس الكبرى"، حيث قال:" ثم سار لحج بيت الله الحرام فحج ورجع إلى فاس " ([43])..

كما كان لمؤلفات الإمام الغزالي دور كبير في تكوين شخصيته يقول: "طالعت أخبار من زمن أويس القرني إلى زمننا هذا فما رأيت أعجب من أبي يعزي، وطالعت كتب التذكير فما رأيت كالإحياء للغزالي"([44])

كان الشيخ أثناء تعلمه لعلوم القرآن والحديث" لا ينتقل إلى آية أو حديث حتى يعمل بهما، فيخرج إلى موضع بعيد نقطع عن الناس قريب من الساحل، فإذا فتح الله له العمل بالآية والحديث عاد إلى فاس ليعمل على حديث وآية أخرى" ([45]) .

عودته إلى بجاية:

([41]) التادلي: التشوف إلى رجال التصوف، ص322.

([42]) أبو الحسن النباهي الأندلسي: تاريخ قضاة الأندلس، تح: مريم قاسم الطويل، دار الكتب العلمية، ط 1، 1995، ص137.

([43]) ابن الأحمر إسماعيل: زهر الآس في بيوتات فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972، ص66.

([44]) التادلي: التشوف إلى رجال التصوف، ص321،320.

([45]) التادلي: التشوف إلى رجال التصوف، ص321.

"لما عاد أبو مدين من المشرق استقر في بجاية، هذه المدينة التي تناولتها الدراسات منذ فجر التاريخ ووصفتها على أنها مدينة للعلم والعلماء، وقد أفاض الغبريني في كتابه عنوان الدراية في تبيان فضل هذه المدينة ودورها العلمي المتميز، فسحرته بجمالها وبموقعها الاستراتيجي وسماحة سكانها " وكان يفضلها على كثير من المدن ويقول فيها: إنها معينة على طلب الحلال، واستمر به المقام في بجاية وكانت حاله تزداد سموا ورفعة، ويرد عليه الطلاب العلم من كل حدب وصوب، وعد من جملة علمائها وكبار فقهائها وأئمتها، مهيبا معظما مكرما مشهودا له بالخير، وكان أهل زمانه عموما وسكان بجاية خصوصا، يعتقدون أن كل من قرأ عليه ساد ونبغ في العلوم، وانساق إليه العلم والجاه والنعمة والثراء وكان الآباء يوجهون أبنائهم لحضور مجلسه والاقتباس من معارفه وأسراره، فظهر –رحمه الله تعالى–فضله على كثير من الناس" ([46])

ولما رأى إقبال الدنيا عليه وسطوع نجمه خاف من تغير حاله وتبدل أحواله و"عزم على الخروج للجبال والفيافي والقفار والبعد عن المدن والقرى والأمصار للعبادة والانقطاع إلى الله تعالى والتفكير في آياته وعظيم قدرته"([47]). فيكسر بذلك ميل نفسه إلى الدنيا ويخضعها لله سبحانه وتعالى ويسمو بها عن التكبر والغرور، واستمر الشيخ على هذه الحال" مشغولا بالتربية والإفادة والتعليم والعبادة والإقبال على الله تعالى في الظاهر والباطن وقد ألف بعض الفضلاء في كراماته" ([48]).

تلامذته:

([46]) يحيى بوعزيز: مدينة تلمسان عاصمة المغرب الأوسط، دار الغرب للنشر والتوزيع، ط2، 2003، ص81.

([47]) الطاهر علاوي: العالم الرباني سيدي أبو مدين شعيب، دار الأمة للطباعة والنشر، الجزائر، ط1، ،2004،ص22.

([48]) ابن قنفذ أبو العباس أحمد القسنطيني: أنس الفقير وعز الحقير، المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، المغرب، 1965، ص17.

سبق أن أوردنا ما قاله ابن عبد الملك، في بقية السفر الرابع من" الذيل والتكملة "([49]) راويا عن أبي عبد الله محمد بن ابراهيم الأنصاري " أن لأبي مدين ألف تلميذ ظهرت على يد كل واحد منهم كرامة "، ويؤكد ابن الزيات في " التشوف" أن الذين استفادوا من أبي مدين ألف تلميذ، أما إذا تصفحنا كتاب " روح القدس" لابن عربي، وكتاب " المستفاد في مناقب العباد"([50]) للفندلاوي، وكذا كتاب "سير الأولياء في القرن السابع الهجري"([51]) للأنصاري الخزرجي، فإننا سوف نجد بأن معظم المترجم لهم في هذه الكتب إن لم أقل كلهم ينص مؤلفهم بأنهم من أصحاب أبي مدين، وهذا التعبير كان يدل عندهم على التلمذة.

فمن أشهر تلامذة أبي مدين الغوث، عبد الرحيم القناوي المتوفي بمصر سنة 592هـ، قال عنه صاحب " المعزى "([52]) بأنه من أصحاب الشيخ أبي مدين.

ومن تلامذته أيضا: ابن عربي، رغم أنه يقول في كتاب " روح القدس" ([53])، بأنه لم يجتمع به وكان يتمنى ذلك. ويقول أبو مدين عن هذا كما ورد في " روح القدس" على لسان أبي عمران السيدراني – الذي جاء حاملا رسالة من أبي مدين لابن عربي –:" أما الاجتماع بالأرواح فقد صح بيني وبينك وثبت وأما الاجتماع بالأجسام في هذه الدار فقد أبى الله ذلك فسكن خاطرك، والموعد بيني وبينك عند الله في مستقر رحمته".

وقد خصص ابن عربي بابا في "الفتوحات المكية"([54]) لأبي مدين عنونه: بالباب السادس والخمسين وخمسمائة في معرفة حال قطب، كان منزله﴿ تبارك الذي بيده

([49]) المراكشي: الذيل والتكملة، ص128.

([50]) محمد بن عبد الكريم الفندلاوي: المستفاد في مناقب العباد، تح: محمد الشريف، جامعة عبد الملك السعدي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تيطوان، المغرب، 2002، ص63.

([51]) الأنصاري الخزرجي: سير الأولياء في القرن السابع الهجري، تح: مأمون ياسين وعفت وصال حمزة،

([52]) أحمد التادلي الصومعي: المعزى في مناقب الشيخ أبي يعزى، ص189.

([53]) ابن عربي: روح القدس في مناصحة النفس، ص70.

([54]) ابن عربي: الفتوحات المكية، دار صادر، بيروت، 1932،ج4، ص248.

الملك﴾([55])، وهو من أشياخنا درج سنة تسع وثمانين وخمسمائة رحمة الله، كان هذا الهجير والمقام لشيخنا أبي مدين.

وذكر ابن قنفد في " أنس الفقير "([56]) محمد بن إبراهيم الأنصاري: وقال عنه أنه من كبار تلاميذ أبي مدين الذين أكثروا الرواية عنه.

كما قال ابن الزيات في التشوف([57]) بأنه كان يحضر مجالس أبي مدين ببجاية.

ومن أشهر تلامذته كذلك أبو الحسن الششتري الذي تتلمذ عليه ببجاية([58])، وكان الششتري يحضر حلقات المدينية([59])، ولهذا سمي أيضا بالمديني، ومن شدة تأثره به نسب بعض موشحات أبي مدين إلى الششتري.

ومن أشهر تلامذة أبي مدين و الذين أخذوا عنه بدون واسطة، كما يقول جدنا الإمام محمد بن جعفر الكتاني في "سلوة الأنفاس" ([60]) أبو محمد صالح، وجعفر بن عبد الله بن محمد بن بونة([61]) الخزاعي الولي الشهير كما وصفه ابن الخطيب بذلك([62]) وهو من أهل شرق الأندلس توفي سنة 642ه ويعد من أخص أصحاب أبي مدين، كان يكنى أبا أحمد، أسس الطريقة البونية التي كان لها صدى كبير في الأندلس، وهي متفرعة عن الطريقة المدينية، وهو شيخ صوفي كبير وولي شهير، كثير الأتباع، قال عنه ابن الزبير في" صلة

([55]) سورة الملك، الآية1.

([56]) ابن قنفذ أبو العباس أحمد القسنطيني: أنس الفقير وعز الحقير، ص37.

([57]) التادلي: التشوف إلى رجال التصوف، ص320.

([58]) الغبريني: عنوان الدراية، ص239.

([59]) مقدمة ديوان الششتري، تح: علي سامي النشار، ص8.

([60]) محمد بن جعفر الكتاني: سلوة الأنفاس، ج 2، ص43.

([61]) نسبة إلى بونة وتسمى اليوم عنابة.

([62]) ابن الخطيب: الإحاطة، ج1، ص461.

الصلة([63]):" أحد أعلام المشاهير فضلا وصلاحا، قرأ ببلنسية، وكان يحفظ نصف المدونة وأقرأها ".

ومن تلامذته كذلك أبو محمد عبد العزيز بن أبي بكر القرشي المهدوي، ذكره ابن الطواح في "سبك المقال"([64]) وقال عنه :" ارتحل إلى بجاية لالتقاء شيخ المشايخ، معدن الأسرار، وقطب الأقطاب الشيخ أبي مدين". وقد جرت بينهما مكتبات ومراسلات أثبتها ابن الطواح في "سبك المقال".

ومن أشهر تلامذته أيضا أبو الصبر السبتي الذي استشهد في معركة العقاب سنة 609هـ، ترجم له ابن الزيات في " التشوف" ([65])، وقد لقيه وأخذ عنه كما أخذ عنه كما أخذ عن أبي يعزى، وأبو الصبر هو كبير مشايخ وقته كما وصفه بذلك التنبوكتي في " نيل الابتهاج"([66]).

وذكر ابن الخطيب في الإحاطة "([67])، بأن من تلامذة أبي مدين محمد بن محمد بن أحمد القرشي المقري، وهو جد صاحب " نفح الطيب".

([63]) ابن الخطيب: الإحاطة، ج1، ص462.

([64]) ابن الطواح: سبك المقال لفك العقال، ص 209.

([65]) التادلي: التشوف إلى رجال التصوف، 415.

([66]) التنبوكتي: نيل الابتهاج، ص17.

([67]) ابن الخطيب: الإحاطة، ج 2، ص191. يقول المقري معلقا على ايراده ترجمة أبي مدين: وإنما ذكرت ترجمة الشيخ أبي مدين للتبرك به ولكونه شيخ جدي، فأنا من بركته لقول جدي أنه دعا له ولذريته بما ظهر قبوله. ينظر: المقري: نفح الطيب، ج7، ص144.

ومن أشهر تلامذة أبي مدين كذلك، أبو علي حسن بن محمد الغافقي الصواف، صحب أبا مدين نحوا من ثلاثين سنة([68])، وردت الإشارة إليه عدة مرات في " التشوف" لابن الزيات.

ومن تلامذته أيضا يوسف بن خلف الكومي المتوفي سنة 576ه وكان ابن عربي قد التقى به في إشبيلية ([69])، وأثنى عليه وقال بأنه زاهد كبير ملامتي.

ونؤكد على ما أورده ابن الزيات في" التشوف"([70]) من أنه كان لأبي مدين ألف تلميذ ظهرت على يد كل واحد منهم كرامة.

كراماته: فكثيرة تدل على علو مقامه وعظيم شأنه، وقد بدأت تظهر عليه منذ كان صبيا صغيرا، وقد ذكر التادلي وغيره من المؤرخين أن رجلا " جاء إلى الشيخ أبى مدين ليعترض عليه فأراد القارئ أن يقرأ عليه الكتاب فسكته أبو مدين وقال له: اسكت، ثم التفت إلى الرجل وقال له لما جئت؟ فقال له الرجل جئت لأقتبس من أنوارك، فقال له ما الذي في كمك؟ فقال له مصحف، فقال له أبو مدين، أخرجه! فأخرجه من كمه، فقال له: اقرأ أول سطر. ففتحه وقرأ أول سطر منه فإذا هو ﴿**الذين كذبوا شعيبا كان لم يغنوا فيها الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين**﴾ ([71]) فقال له أبو مدين: أما يكفيك هذا؟»([72]).

ومن الكرامات التي تروى عن الشيخ أنه دخل يوما في بعض سياحته على عجوز في مغارة، فقام عندها، فجاء ابنها آخر النهار فسلم عليه فقدمت العجوز سفرة فيها صحن وخبز، فقعد الشيخ والابن يأكلان فقال الابن، تمنيت أن لو كان هذا كذا. فقال له الشيخ: سم

([68]) التادلي: التشوف إلى رجال التصوف، ص33-214-321-323-326-416.

([69]) ابن عربي: الفتوحات المكية، ج1، ص327.

([70]) ابن عربي: الفتوحات المكية، ج1، ص321.

([71]) سورة الأعراف، الآية 92.

([72]) عبد الحليم محمود: أبو مدين الغوث، ص 88.

الله وكل ما تمنيت، فلم يزل يعد التمني وهو يقول مقالته الأولى واللون الواحد ينقلب ألوانا كثيرة، ويجد طعم ما يتمنى وما يدل على علو مرتبته وعظيم شأنه ما يرويه الشيخ العارف ابن عربي أن الشيخ أبا مدين" إذا خطر له خاطر في نفسه يجد جوابه مكتوبا في ثوبه الذي عليه، فخطر له يوما أن يطلق امرأته وكان بحضور العارف" أبي العباس الخشاب، فرأى مخطوطا في ثوب الشيخ" أمسك عليك زوجك"([73])

هذه بعض أمثلة من كرامات الشيخ، وهي– كما سبقت الإشارة إلى ذلك– كثيرة ومثيرة لكن، لا الوقت ولا المجال يتسعان لبسطها وإيرادها جميعا، وحسبنا بما نعتقد أنه يظهر ولاية الشيخ وعلو مقامه. وكرامة الأولياء حق، وقد أشار إلى ذلك القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، على عكس ما يتبادر إلى أذهان بعض المشككين الذين يردون ذلك إلى ضرب من السحر والشعوذة أو إلى أمراض نفسية وهلوسات وتخيلات تصيب المريبين خاصة، ومن يعتقدون في تلك الكرامات من الأتباع. والكرامة كما يقول ابن قنفذ" ليست من شرط حصول الولاية فقد تحصل الكرامة، لكن إن وقعت من ولى فهي دالة على صدق عبادته وعلو مكانه بشرط إتباعه لحقيقة ما أمر به النبي صلى الله عليه وسلم، وإلا فهي خذلان من الشيطان"([74])

معنى ذلك أنه ليس كل الأولياء تظهر لهم الكرامات، وأن ليس كل من ظهرت له الكرامة يعتبر وليا، وبالتالي لا يستدل على البداية للكرامة لاحتمال أن تكون من الشيطان وإنما يستدل على صدق الكرامة بصحة الولاية ولا ينكر الكرامة إلا معاند محروم سيئ الاعتقاد وكثير الانتقاد إذن فالكرامة الحقة الصادقة التي تهدي الضال الحيران وتعين المرء على دينه تلك التي تصدر عن ولي طائع لله تعالى.

([73]) التادلي: التشوف إلى رجال التصوف، ص311.

([74]) ابن قنفذ أبو العباس أحمد القسنطيني: أنس الفقير وعز الحقير، ص18.

"فمن امتثل أوامر الله تعالى واجتنب نواهيه ورزق الخوف من الله تعالى، لا من خلقه واجتهد في طاعته جلّ وعلا والبحث عن أمر كسبه والوقوف عند ما حدّ له ورجع عن كل ما لا يعلم حكمه فهو الصالح وأعلى درجة من هذا حصول الورع التام وترك الطمع وبغض الدنيا ومن التمسك بها والفرار من دواعيها ومن أهلها والقناعة باليسير منها، ودرجات الصالحين تختلف بالترقي في ذلك على حسب العناية من الله تعالى ."([75]) .

ولقد جاهد الشيخ أبو مدين جهادا مضنيا ارتقى به إلى أعلى المقامات وتحلى بأكرم الصفات فاستحق لقب الولاية والقطبية فقد كان منذ نشأته يتحلى بالصفات الجليلة قلما تتوفر في خواص الخليقة ومنها إيثار الحق على النفس والالتزام بميزان الشرع والغيرة على حرمة الدين ومقدساته، فكان يقول لأصحابه: أعلنوا بالطاعة حتى تكون كلمة الله هي العليا."

والفضل في وصول الشيخ أبي مدين إلى هذه المرتبة العليا يعود إلى الله أولا وأخيرا وإلى استعداداته الفطرية والخلقية، فقد سبقت الإشارة إلى ميله الشديد إلى التدين وحبه المفرط للتعلم ومجالسة أهل العلم، فكان المشايخ الذين تتلمذ عليهم فضل كبير، وهم كثيرون، كلهم من الخيرة ما أنجبت هذه الأمة فضلا وعلما وتقى وورعا، وعرفوا بصفاء عقيدتهم وصدق حالهم وصلاح سيرهم وسار أبو مدين على نهجهم واقتفى آثارهم. ونهل من علومهم واقتبس من أنوار همومه قد ذكر التدلي في التشوف الكثير مهم مع إيراد تعريفات لهم ولبعض مشايخهم، نكتفي بذكر الشيخ الفقيه الصالح أبي الحسن علي بن حرزهم والشيخ الصالح أبي يعزى بن ميمون، والشيخ الفقيه الصالح أبي عبد الله الدقاق، والشيخ الفقيه الصالح أبي الحسن علي بن غالب القرشي.

كما أورد ابن قنفد في كتابه أنس الفقير وعز الحقير تراجم الكثير من العلماء ورجال التصوف ممن كانت له بهم صلاة وثيقة وهم كثيرون أيضا أشهرهم الشيخ أبو زكرياء

([75]) الغبريني: عنوان الدراية، ص58.

يحي بن أبي علي الزواوي، والشيخ الفقيه الصالح أبو عبد الله التولي والشيخ الشهير العالم المحدث أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمان الإشبيلي.

فإذا كان هؤلاء هم مشايخه ومعلموه، وأولئك هم إخوانه وصحبه، فكيف يكون تلامذته؟ وقديما قيل: كل إناء بما فيه ينضح، وليس في إناء شيخنا إلا علم وتقى وورع فقد تخرج على يديه ألف تلميذ وظهرت لكل واحد منهم كرامة وبركة كما وصل إلى تربيته اثنا عشر ألف مريد، واستفاد من علمه وزهده جماعة من كبار العلماء العارفين. وأشهر أولئك التلاميذ الشيخ الأكبر محي الدين العربي الحاتمي الطائي الذي تعلم على يدي الشيخ وظل وفيا لذكراه، فحفظ لنا الكثير من أقواله وأفاض في ذكر وقائعه وكراماته في كتبه "الفتوحات المكية، مواقع النجوم، محاضرة الأبرار وخاصة في موسعته الصوفية الضخمة الفتوحات المكية" ([76])

التي لا يخلو سفر من أسفارها السبعة والثلاثين من ذكر أبي مدين بشكل أو بآخر ومن تلامذته الشيخ أبو عبد الله محمد بن حماد الصنهاجي القلعي، والشيخ الفقيه أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الأنصاري وغيرهم كثيرهم.

عاش الشيخ أبو مدين شعيب حياة حافلة مليئة علما وفكرا اكتسب خلالها كثيرا من العلوم العقلية والنقلية وخاض الكثير من التجارب في مجالات متنوعة صقلت موهبته .إلا أن مؤلفاته قياسا بذلك النشاط وتلك الحياة الحافلة تبقى قليلة، لأن الشيخ قد أمضى شطرا طويلا من حياته في مجال الدعوة كما تصدر إلى إعداد وتأهيل أجيال من الطلبة والمريدين، هذا ما عاق اتجاهه إلى التأليف. وعلى قلة تلك المؤلفات التي وصلت إلى يد القارئ إلا أنها شكلت مجالا خصبا للباحث العربي في مجال التصوف خاصة، وهي حسب علمنا لا تتعدى ستة مؤلفات وأكثرها لا يزال مخطوطا وهي: أنس الوحيد و نزهة المريد في علم التوحيد، وهو

([76]) ابن عربي: الفتوحات المكية،ج1، ص6.

من أهم مؤلفاته، ومفاتيح الغيب لإزالة الريب وستر العيب، تحفة الأريب ونزهة اللبيب عقيدة أبي مدين، حكم أبي مدين، رسالة أبي مدين. قد تكون هناك مؤلفات أخرى لا تزال مخطوطة هنا أو هناك.

ظلت حياة الشيخ أبي مدين شعيب جذوة تنير حياة التائهين، ونبعا يطفئ ظمأ العطشى لنور الحقيقة، ظل إلى آخر يوم من حياته يعلم تلامذته ومريديه إلى أن وشى به بعض علماء الظاهر عند يعقوب المنصور وقال إنه يخاف منه على دولتكم فإن له شبها بالإمام المهدي، وأتباعه كثيرون في كل بلد. فوقع في قلبه وأهمّه شأنه فبعث إليه في القدوم عليه ليختبره، وكتب لأمير بجاية بالوصية والاعتناء به وأن يحمله خير محمل فلما أخذ في السفر "وقد استدعاه الخليفة الموحدي يعقوب المنصور، هو والشيخ أبا زكريا المغيلي"([77]) شق على أصحابه وتغيروا وتكلموا معه فأسكتهم وقال لهم: إن منيتي قربت وبغير هذا المكان قدرت ولابد لي منه، ولقد كبرت وضعفت ولا أقوى على الحركة فبعث الله لي من يحملني إليه برفق ويسوقني إليه أحسن سوق، وأنا لا أرى السلطان وهو لا يراني، وطابت نفوسهم وعلموا أنها من كراماته فارتحلوا به على أحسن حال حتى وصلوا حوز تلمسان، فبدت رابطة العباد فقال لأصحابه: ما أصلحه للرقاد قال أبو علي الصواف رحمه الله، لما احتضر الشيخ أبو مدين استحييت أن أقول له أوصني فأتيته بغيري وقلت له: هذا فلان فأوصه، فقال سبحان الله وهل كان عمري معكم كله إلا وصية؟ وأي وصية أبلغ من مشهد حالي؟ قال: وقال بعضهم: آخر ما سمع منه الحق، وقال بعضهم آخر ما سمع منه الله الحق، وقال بعضهم الله الحي. قلت: وأيا ما كان في خاتمة حسنة ومرتبة عليه مستحسنة ظهر فيها صدق قول رسول الله (صلى الله عليه وسلم): **(يموت المرء على ما عاش عليه)**.

([77]) التادلي: التشوف إلى رجال التصوف، ص296.

هكذا كانت نهاية القطب الرباني الشيخ أبي مدين شعيب حياة حافلة بالعمل والاجتهاد والإخلاص لله إلى آخر يوم. فلم يغرغر حتى قطب رضي الله عنه، كما روى تلميذه ابن عربي. فرحمه الله تعالى.

ومن شعره:

*يا من علا فرأى ما في الغيوب وما= تحت الثرى، وظلام الليل منسدل

أنت الغياث لمن ضاقت مذاهبه= أنت الدليل لمن حارت به الحيل

إنا قصدناك والآمال واثقة= والكل يدعوك ملهوف ومبتهل

فَإن عفوتَ فذُو فضلٍ وذو كرم= وإن سطوْتَ فأنتَ الحاكمُ العَدْلُ*

قلت: إضافة إلى شهرة الشيخ في الآفاق عند أهل العلم والمعرفة، فإنا نستشف من كلماته هذه التي تعبر عن طريقته في علم السلوك، أنه كان صاحب سنة ينفر من البدعة والمبتدعة وقد أشاد بعلو مرتبته عند الأشياخ، وباستقامة طريقته ومنهجه شيخ الإسلام ابن تيمية، وحسبك بشيخ الإسلام حكما عدلا، ومنصفا عارفا فيما يحكم، فذكره في مواضع من كتبه مستشهدا به، قال ابن تيمية في" مجموع الفتاوي ":" مشايخ الإسلام وأئمة الهدى الذين جعل الله تعالى لهم لسان صدق في الأمة مثل سعيد بن المسيب والحسن البصري وعمر بن عبد العزيز ومالك بن أنس والأوزاعي وإبراهيم بن أدهم وسفيان الثوري والفضيل بن عياض ومعروف الكرخي والشافعي وأبي سليمان وأحمد بن حنبل وبشر الحافي وعبد الله بن المبارك وشقيق البلخي ومن لا يحصى كثرة. إلى مثل المتأخرين: مثل الجنيد بن محمد القواريري وسهل بن عبد الله التستري وعمر بن عثمان المكي ومن بعدهم– إلى أبي طالب المكي إلى مثل الشيخ عبد القادر الجيلاني والشيخ عدي والشيخ أبي البيان والشيخ أبي مدين والشيخ عقيل والشيخ أبي الوفاء والشيخ رسلان والشيخ عبد الرحيم والشيخ عبد الله اليونيني والشيخ

القرشي وأمثال هؤلاء المشايخ الذين كانوا بالحجاز والشام والعراق ومصر والمغرب وخراسان من الأولين والآخرين".([78])

وقال أيضا:" وهذا هو سماع المؤمنين وسلف الأمة وأكابر المشايخ كمعروف الكرخي والفضيل بن عياض وأبي سليمان الداراني ونحوهم. وهو سماع المشايخ المتأخرين الأكابر كالشيخ عبد القادر والشيخ عدي بن مسافر والشيخ أبي مدين وغيرهم من المشايخ – رحمهم الله –"([79])

وقال أيضا:" وكذلك أكابر الشيوخ المتأخرين مثل: الشيخ عبد القادر والشيخ عدي والشيخ أبي مدين والشيخ أبي البيان وغير هؤلاء، فإنهم لم يحضروا " السماع البدعي " بل كانوا يحضرون" السماع الشرعي" سماع الأنبياء وأتباعهم كسماع القرآن. والله أعلم".([80])

قال الذهبي في سير أعلام النبلاء:" قال محيي الدين بن العربي: كان أبو مدين سلطان الوارثين، وكان جمال الحفاظ عبد الحق الأزدي قد آخاه ببجاية، فإذا دخل عليه، ويرى ما أيده الله به ظاهرا وباطنا، يجد في نفسه حالة سنية لم يكن يجدها قبل حضور مجلس أبي مدين، فيقول عند ذلك: هذا وارث على الحقيقة.

قال محيي الدين: كان أبو مدين يقول: من علامات صدق المريد في بدايته انقطاعه عن الخلق، وفراره، ومن علامات صدق فراره عنهم وجوده للحق، ومن علامات صدق وجوده للحق رجوعه إلى الخلق، "فأما قول أبي سليمان الداراني (لو وصلوا ما رجعوا) فليس بمناقض لقول أبي مدين، فإن أبا مدين عني رجوعهم إلى إرشاد الخلق."([81])

([78]) أحمد بن تيمية: مجموع فتاوي ابن تيمية، م 1، طباعة المكتب التعليمي السعودي، الرباط، المغرب، (د.ت)، ص197.

([79]) أحمد بن تيمية: مجموع فتاوي ابن تيمية، م1، ص293.

([80]) أحمد بن تيمية: مجموع فتاوي ابن تيمية، م3، ص4.

([81]) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج21، ص219.

أولا ـ التعريف بالشاعر

1) المولد والنشأة:

أبو الربيع سليمان بن عبد الله بن عبد المؤمن الزناتي الكومي الموحد، هو أمير ابن أمير وحفيد خليفة عظيم من الخلفاء الذين زهي بهم عالم الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها المظفر عبد المؤمن بن علي التاجري الندرومي الجزائري.

يقول المستشرق هويسي ميراندا في كتابه (التاريخ السياسي للموحدين):(و في 555هـ كان عبد المؤمن يبعث ولده عبد الله على بجاية واليا عليها، وكانت سنه آنذاك 15سنة أو16 سنة، ولا بد أنه قد تزوج نحو هذا السن، فيكون ابنه أبو الربيع قد ولد في عام 552 هـ أو553هـ إن صح هذا الافتراض)[82].

(وأغلب الظن أن مولده كان ببجاية التي قضى فيها أبوه حياته واليا إلى أن توجه منها نحو مراكش لمبايعة يوسف[83] فتوفي في طريقه بجبل زكاربمليانة ودفن به سنة560هـ)[84]، فتولى الخليفة أبو يعقوب أهل المتوفي وبنيه برعايته وعطفه و لا شك أن أبا الربيع شملته هذه العناية التي ظل يتمتع بها، و فيها التهذيب و التعليم و التثقيف، وكان يتلقى ذلك مع ابن عمه يعقوب الذي أصبح شاعرنا فيما بعد منقطعا إليه مخلصا في حبه كما تشعر بذلك و أنت تقرأ قصائد المدح العديدة فيه. وما دام قد نشأ في بيت الرياسة و الملك الذي كان قائما في عهد الموحدين على دعائم العلم و القوة ذلك أن رجالهم كانوا على الإطلاق علماء وأدباء آخذين على عاتقهم تربية النشء تربية علم و رياضة و فروسية ، فأخذ شاعرنا من هذا كله بنصيبه الأوفى، وظهر فضله وقدره فيما بعد، فلم يكن في أمراء الموحدين مثله ، حيث كان متميزا في قومه كاتبا وشاعرا وأديبا ماهرا وأميرا وفيا وفارسا مغوارا.

---

(82) ديوان الأمير أبي الربيع سليمان بن عبد الله الموحد، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي و محمد بن تاويت التيطواني و سعيد أعراب و محمد بن عباس القباج، منشورات كلية الآداب، جامعة محمد الخامس، المغرب ص04.

(83) هو أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن عم الشاعر.

(84) الديوان ص 4.

2) ثقافتـه:

لا شك أن والده كان على أثارة من علم حيث رباه تربية علمية، فتلقى ثقافته الأولى على خيرة العلماء والمربين، ثم تمكن من الثقافة الدينية والأدبية، وحمل الحديث عن شيوخ وقته بالأندلس والمغرب، وتلقى إجازة وردت عليه من الإسكندرية حيث أجازه منها الإمامان: أبو طاهر بن عوف السلفي وأبوسعيد بن جارة، ولا يمكن أن نغفل كاتبي أبيه أبي يعقوب يوسف بن سليمان و أبي العباس بن مضاء كانا ممن لقنا شاعرنا دروسه الأولى ثم تولى تربيته وتعليمه عمه أبو يعقوب يوسف بعد وفاة أبيه فأتم صقل مواهبه و توسيع مداركه و تلقينه خبرات الحياة من علماء الموحدين الذين كانوا يتصفون بالعلم الغزير والورع الجم، فكان شبلا من تلك الأسود.

رجع أديب المغرب الشيخ أحمد بن محمد المقري التلمساني في الكلام عن الأميرأبي الربيع سليمان بن عبد الله في كتابه نفح الطيب إلى أخبار السرخسي[85]، في رحلته لما ذكر السيد أبا الربيع سليمان بن عبد الله بن عبد المؤمن بن علي ، وكان في تلك المدة على مدينة سجلماسة وأعمالها:(اجتمعت به حين قدم إلى مراكش بعد وفاة المنصور يعقوب لمبايعة ولده محمد فرأيته شيخا بهي المنظر، حسن المخبر، فصيح العبارة باللغتين العربية والبربرية[86]).

وجاء في المغرب في حق السيد أبي الربيع ما ملخصه: (لم يكن في بني عبد المؤمن مثله في هذا الشأن الذي نحن بصدده " الشعر" وكان يقوم على مملكتي سجلماسة و بجاية ، وكان كاتبا شاعرا وأديبا ماهرا و شعره مدون و له ألغاز[87]).

وذكر محقق الديوان أن أبا الربيع كان في آخر حياته يرافق ملك مراكش في حروبه. وكان يسمى بسلطان المغرب الأوسط لأن حكمه كان شبه مستقل، وله ديوان يحتوي على1532 بيت

---

[85] هو تاج الدين أبو محمد عبد الله بن عمر بن محمد بن حمويه السرخسي الخرساني الأصل الدمشقي المولد و الوفاة، و فد على المغرب و هو شيخ شيوخ دمشق عام593هـ فأكرم المنصور و فادته، و ظل في المغرب في ضيافة البيت الملكي إلى600 هـ و قد كتب في هذه الأثناء رحلة قيمة تعد حتى الآن المرجع الأول في تراجم بعض المعاصرين التي اجتمع بهم المؤلف و على رأس هؤلاء الموحدين الذين كان منهم شاعرنا و في كتاب نفح الطيب كثير من المنقول عنه.

[86] أديب المغرب و حافظه الشيخ أحمد بن محمد المقري التلمساني المتوفي عام 1041هـ، نفح الطيب من غصن أندلس الرطيب و ذكر وزيرها لسان الدين الخطيب، ج04، تحقيق و ضبط غرائبه و علق حواشيه محمد محي الدين عبد الحميد، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، ص 103.

[87] ابن سعيد ، المغرب في حلي المغرب، تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف، مصر 1964،ص02

تتوزع على الأغراض التالية: المدح والرثاء والنسيب والعتاب والشكوى والألغاز والزهد والتشبيه وهذا جدول يوضح قصائد الديوان ومقطوعاته وأبياته.

الأبـــواب	عـدد القصـائد	عدد المقطوعات	عـدد الأبيـات
المـدح	14	08	267
الرثـاء	07	06	124
النسـيب	56	36	634
الألغـاز	04	52	250
التشبيـه	01	23	81
العتـاب	04	11	91
الزهـد	06	12	105
المجمـوع	92	148	1532

وجاء في الموسوعة الشعرية (قرص مضغوط) أن ديوانه يحتوي على1641 بيت و241 قصيدة[88].

(و من كلامه في جواب رسالة إلى ملك السودان بغانة ينكر عليه تعويق التجار قوله: نحن نتجاور بالإحسان، وإن تخالفنا في الأديان ونتفق على السيرة المرضية ونتألف على الرفق على الرعية، ومعلوم أن العدل من لوازم الملوك في حكم السياسة الفاضلة، والجور لا تعانيه إلا النفوس الشريرة الجاهلة، وقد بلغنا احتباس مساكين التجار ومنعهم من التصرف فيما هم بصدده، وتردد الجلابة إلى بلد مفيد لسكانها، ومعين على التمكن من استيطانها، ولو شئنا لاحتبسنا من في جهاتنا من أهل تلك الناحية لكنا لا نستصوب فعله، ولا ينبغي لنا أن ننهى عن خلق ونأتي مثله و السلام)[89]

[88] الموسوعة الشعرية، إنتاج المركز الثقافي السعودي سنة 2003

[89] نفح الطيب من غصن الأندلس الطيب و ذكر وزيرها لسان الدين الخطيب، ج3، ص103.

ووقع إلى عامل له كثرة الشكاوي منه:(قد كثرت فيك الأقوال، وإغضائي عنك رجاء أن تتيقظ فتنصلح الحال، وفي مبادرتي إلى ظهور الإنكار عليك نسبة إلى شر الاختيار وعدم الاختبار، فاحذر فإنك على جرف هار)[90]

ومن شعره المشهور قصيدة يمدح فيها ابن عمه المنصور يعقوب:

هبت بنصركم الرياح الأربع — وجرت بسعدكم النجوم الطلع

و استبشر الفلك الأثير تيقنا — أن الأمور إلى مرادك ترجع

و أمــدك الرحمان بالفلك الـــذي — ملأ البسيطة نوره المتشعشع

لم لا و أنت بذلت في مرضاته — نفسا تفديها الخلائق أجمع

و مضيت في نصر الإله مصمما — بعزيمة كالسيف بل هي أقطع

لله جيشك و الصوارم تنتضى — و الخيل تجري و الأسنة تلمع

من كل من تقوى الإله سلاحه — ما إن له غير التوكل مفزع

لا يسلمون إلى النوازل جارهم — يوما إذا أضحى الجوار يضيع

ومنها يصف انهزام العدو:

(90) الديوان، ص.05

إن ظن أن فراره منج له فبجهله قد ظن ما لا ينفع

أين المفر و لا فرار لهارب و الأرض تنشر في يديه و تجمع

أخليفة الله الرضا هنيته فتح يمد بما سواه و يشفع

فلقد كسوت الدين عزا شامخا و لبست منه أنت ما لا يخلع

هيهات سر الله أودع فيكم و الله يعطي من يشاء و يمنع

لكم الهدى لا يدعيه سواكم و من ادعاه يقول ما لا يسمع

إن قيل من خير الخلائق كلها فإليك يا يعقوب تومي الأصبع

خذها أمير المؤمنين مديحة من قلب صدق لم يشنه تصنع

و اسلم أمير المؤمنين لأمة أنت الملاذ لها وأنت المفزع

فالمدح مني في علاك طبيعة و المدح من غيري إليك تطبع

وعليك يا علم الهداة تحية يفنى الزمان و عرفها يتضوع

91

(91) نفح الطيب، ص104.

وقال السرخسي في رحلته: (قال لي الفقيه أبو عبد الله محمد القسطلاني: دخلت إلى السيد أبي الربيع بقصر سجلماسة وبين يديه أنطاع عليها رؤوس الخوارج الذين قطعوا الطريق على السفار بين سجلماسة وغانة، وهوينكت الأرض بقضيب من الأنبوس ويقول:

ولا غرو أن كانت رؤوس عداته جوابا إذا كان السيوف رسائله

ومات بعد الستمائة، رحمه الله تعالى انتهى.

وقال: لما هجره أمير المؤمنين يعقوب المنصور، ووافق ذلك أن وفد على حضرة الخلافة مراكش جمع من العرب والغز من بلاد المشرق ونزلوا ظاهر مراكش، واستأذنوا في وقت الدخول إلى المنصور:

يا كعبة الجود التي حجت لها عرب الشام و غزها و الديلم

طوبى لمن أمسى يطوف بها غدا و يحل بالبيت الحرام و يحرم

فعفا عنه وأحسن إليه وأمره بالدخول بهم والتقدم عليهم[92].

و هو القائل في جارية اسمها ألوف:

خليلي قولا أين قلبي و من به و كيف بقاء المرء من بعد قلبه

و لو شئتما اسم الذي قد هويته لصفحتما أمري لكم بعد قلبه

وله الأبيات المشهورة التي منها:

أقول لركب أدلجوا بسحيرة قفوا ساعة حتى أزور

[92] المصدر السابق، ص105.

ركابها

و أملأ عيني من محاسن وجهها و أشكو إليها إن طالت عتابها

فإن هي جـادت بالوصـال و أنعـمت و إلا فحسبـي أن رأيـت قبابهـا

وقال يخاطب ابن عمه يعقوب المنصور:

فلأملأن الخافقين بذكركم ما دمت حيا ناظما و مرسلا

و لأبذلن نصحي لكم جهدي و ذا جهد المقل و ما عسى أن أفعلا

و لأخلصن لك الدعاء و ما أنا أهل له و لعله أن يقبلا [93]

وله مختصر كتاب الأغاني.

رجع- وذكر السرخسي أيضا في رحلته السيد أبا الحسن علي بن عمر بن أمير المؤمنين عبد المؤمن، وقال في حقه أنه كان من أهل الأدب والطرب ولي بجاية مدة، ثم عزل عنها لإهماله وإغفاله وانهماكه في ملاذه، أنشدني محمد بن سعيد المهدي كاتبه قال: كتب الأمير أبوالحسن إلى أمير المؤمنين يعقوب يمدحه ويستزيده ويطلب منه ما يقضي به ديونه:

(93) نفح الطيب، ص105

وجوه الأماني بهم مسفرة و ضاحكة لي مستبشرة

و لي أمل فيكم صادق قريب عسى الله أن يوسره

علي ديون و تصحيفها و عندكم الجود و المغفرة

وحدثني الشيخ أبوالحسن بن قشتال الكاتب وقد أنشدته:

أوحشتني ولو اطلعت على الذي لك في ضميري لم تكن لي موحشا

فقال: أنشدته هذا البيت في مجلس السيد أبي الحسن، فقال لي ولمن حضر، هل تعرفون لهذا البيت ثانيا؟ فما فينا من عرفه، فأنشدنا:

أترى رشيت على اطراح مودتي و لقد عهدتك ليس تثنيك الرشا (94)

وقال في المغرب في حق السيد المذكور، ما ملخصه كان هذا السيد أبوالحسن قد ولي مملكة تلمسان و بجاية وله حكايات في الجود برمكية، ونفس عالية زكية، كتب إليه السيد أبوالربيع يوم الجمعة:

اليوم يوم الجمعة يوم سرور ودعة

و شملنا مفترق فهل ترى أن نجمعه

فأجابه بقوله:

اليوم يوم الجمعة و ربنا قد رفعه

و الشرب فيه بدعة فهل ترى أن ندعه

(94) المصدر السابق، ص105

و لفظة السيد في المغرب بذلك العصر لا تطلق إلا على بني عبد المؤمن بن علي لأن حكمه كان شبه مستقل.[95]

3) حكمه لبجاية وتلمسان:

لم يكن أبو الربيع يهتم بالأدب فحسب، بل كان متصلا بالولاية والسياسة ولا عجب في ذلك فقد كان أبوه واليا وهو حفيد عبد المؤمن بن علي موحد المغرب العربي، حيث تولى ولاية بجاية ولم يمكث في ولايته لها طويلا إذ فاجأه أسطول المرابطين تحت إمارة الميورقي علي بن غانية، ودخل المدينة وصادف يومئذ خاو المدينة من الحامية وغياب عاملها أبي الربيع في جيشه خارج البلاد، فانتهز الميورقي كل ذلك لفتح قصبة المدينة وتركيز علمه الأسود فيها، بادر أبو الربيع بالعودة إلى مركز الولاية فسار سيرا حثيثا إلى بجاية وكان في قل من الفرسان، وانتشب القتال بين الطائفتين فتقاعس جند الموحدين عن المقاومة وانهزم أبو الربيع وتحصن بتلمسان تحسبا للظروف، وكان ذلك سنة580هـ. يقول المؤرخ عبد الرحمان الجيلالي في كتابه تاريخ الجزائر العام: (في سنة561هـ عين الخليفة أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن أخاه أبا زكريا على ولاية بجاية، وجعل له تفقد أمر إفريقية والنظر في مظالمها أيضا فقمع المناوئين والمحاربين، ثم تولى بعده أخوه أبو موسى عيسى سنة 576هـ ثم أبو الربيع سليمان بن عبد الله بن عبد المؤمن إلى استيلاء بني ابن غانية الميورقيين عليها سنة 580هـ فانتقل منها إلى تلمسان)[96] ثم (بقي أبو حفص على ولايته تلمسان إلى سنة الأخماس555هـ فاستقدمه والده إلى حضرته وولي مكانه أبا عمران موسى بن عبد المؤمن المتوفي بالطاعون بمراكش سنة571هـ وتولاها أيضا السيد أبو الحسن علي بن عمر بن عبد المؤمن ثم جعلت بعد انتقاله منها إلى بجاية إلى حفيد عبد المؤمن السيد أبي الربيع بن عبد الله)[97].

4) وفاته و آثاره:

(95) نفح الطيب، ص106-107

[96] عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج02، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت لبنان، ط02، 1965، ص: 324.
[97] المرجع السابق، ص 325.

(وكان مترجمنا واليا على بجاية ويوصف بأنه من أهل الأدب والطرب والمجالسة والمعاقرة وفي عام580هـ قرر علي بن غانية مهاجمة مدينة بجاية قاعدة الحكم في المغرب الأوسط فسيطر عليها وانهزم والي المدينة (أبوالربيع سليمان) فتوجه إلى تلمسان وتحصن بها تحسبا للظروف، وبقى واليا على تلمسان وسجلماسة إلى أن وافاه الأجل في 14 صفر 604 هـ ولا ندري مكان وفاته)[98] (و كانت وفاته هو وأبو الحسن المتقدم الذكر في سنة واحدة أي 606هـ)[99].

وجاء في كتاب تاريخ الجزائر العام للشيخ عبد الرحمان بن محمد الجيلالي[100] ما يلي: كان عبد المؤمن بن علي عاهل أفريقيا وأميرها الأوحد وهو عبد المؤمن بن علي التاجري الكومي الندرومي الجزائري، ولد بضيعة من أعمال تلمسان نعرف بـ (تاجرا) بنواحي ندرومة سنة 1096م وتوفي سنة1163م وقد ترك ستة عشر ذكرا وبنتين ومن أحفاده الأمير أبي الربيع سليمان بن عبد الله بن عبد المؤمن الموحد الذي من آثاره:

1- ديوان شعر تحت عنوان (نظم العقود ورقم الحلل والبرود)

2- له مختصر صنف فيه كتاب الأغاني للأصفهاني

3- ويرى بعض المؤرخين أن الأمير أبا الربيع كان في المغرب كابن المعتز في بني العباس

4- وصنف كتابا في (الشيوخ بني وهب ومناقبهم)

5- وكان يشير على العلماء بالتأليف والترجمة كدعوته لابن طفيل وابن رشد وابن بشكوان للتأليف وقد اقترح على ابن رشد شرح ألفية ابن سينا في الطب.

6- قام أبو الربيع عند حكمه لبجاية بتجديد الرياض الرفيع والرياض البديع حتى جعل منها مدينة عظيمة تؤم إليها جماعات طلاب من جهات العالم كله.

(98) عبد الواحد دنون طه، خليل إبراهيم السامرائي، ناطق صالح مطلوب، تاريخ المغرب العربي، دار الكتب الوطنية، بن غازي ليبيا، ط 1، سنة: 2004.

(99) تاريخ الجزائر العام، ص325.

(100) المرجع السابق، ص325.

المحاضرة التاسعة: الدولة الزيانية:

تنتسب دولة بني عبد الواد يدو بني زيان إلى قبيلة بني عبد الواد، إحدى بطون زناتة، وكان بنو عبد الواد يرتادون منطقة الأوراس، وينتزعون إقليم زاب قسنطينة، والظاهر أن بني عبد الواد قد شاركوا في جيش عقبة بن نافع الفهري سنة 62 هـ/ 682م.أثناء حملته الثانية المشهورة بالمغربين الأوسط والأقصى، فقد شملت هذه الحملة أراضيهم في الأوراس، ومعاقلهم في الزاب.

وكانوا بنو عبد الواد إلى الموحدين انحياشا وأصبحوا من أخلص قبائل زناتة ولاء لهم، وانصياعا لأوامرهم، فاتخذوهم أنصارا وحماة.

وفي سنة 627 هـ/1230م.ومنذ ذلك التاريخ أصبحت تلمسان وإقليمها في يد بن عبد الواد وتحت سيطرتهم، وهي المرحلة الأولى من تأسيس الدولة العبد الوادية.

بدأ أبو يحي يغمراسن مهامه كحاكم لإقليم تلمسان، وجعل قاعدته مدينة تلمسان ومقر إدارته سنة 633 هـ/1236 م.

ينتمي بنو زيان إلى بني عبد الواد أحد فروع قبيلة زناتة العظيمة وكانوا بنوا عبد الواد يعيشون على الرعي والقنص في موطنهم الممتد من جبال سعيدة إلى وادي ملوية، واشتهر رجالهم بالفروسية وشيوخهم بالحكمة والدهاء، وفي عهد الموحدين استقروا بنواحي تلمسان[1].

الموقع: تقع مدينة تلمسان على ارتفاع 830م عن سطح البحر وتحيط بها الجبال والهضاب الصخرية من الجهة الجنوبية، ويحدها من الشمال الغربي مرتفع ترارة وجبل فلاوسن، أما من الشمال الشرقي فتوجد مرتفعات السبعة شيوخ و تاسلة.

[1]– يحي بن خلدون أخ عبد الرحمان بن خلدون:بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد.

يتوفر موقع مدينة تلمسان، على المسطحات المائية، بحكم التكوينات الجيولوجية التي تخزن كميات هائلة من مياه الأمطار، بالإضافة إلى وادي متشكاتة الذي يمر بجنوب المدينة وبشرقها.

_ تأسيس الدولة الزيانية:(العبد الوادية 633 هـ/1235 م.)

لما دخل بنو زيان في خدمة الدولة الموحدية، خدموا بإخلاص، وساعدوها في حروبها فأبلو ا بلاءًا حسنًا كما شاركوا في إقامة عظمتها ومجدها، واعترفت بفضلهم عليها فأقطعتهم جهات تلمسان وأمرتهم عليها، وكان ذلك في عهد شيخهم(جابر بن يوسف)، وكان الاعتراف بجابر بن يوسف أميرا على تلمسان سنة 627هـ/1230م، نواة لقيام الدولة الزيانية، وحيث أنه زعامة القبيلة إلى البطل العظيم (يغمراسن) بن زيان ورأى تدهور أحوال الموحدين وانفصالهم بني حفص.

ومن بين القبائل البربرية عامة والزناتية على وجه الخصوص، وكان القبائل الأشد كرها لهم من أبناء عمومتهم وهي:قبائل مغراوة، وتوجين وصنهاجة.

أما القبائل التي ناصرت بني عبد الوادى، وآزرتهم فهي كثيرة نذكر منها:بني واسين أولاد منديل، كومية، بني يلومي، بني مانو، بني تغدين، وهوارة([1]).

_ حدود الدولة الزيانية:

كانت الدولة الزيانية بينهما تمتد وتتقلص حسب الظروف ولكنها في الغالب كانت تمتد من الجرجرة شرقا إلى وادي ملوية غربا.

_ نظام حكمها وعاصمتها:

كان حكم بني زيان ملكيا وراثيا مطلقا، ويلقب مالكها بأمير المؤمنين، وغالبا ما يتولى العرش([2]).

[1]– يحي بن خلدون أخ عبد الرحمان بن خلدون:بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد.

[2]– محمد بن عبد الله التنسي،تاريخ بني زيان من كتاب نظم الدر و العقيان في بيان شرف بني زيان.

ومن أهم العوامل المساعدة على قيام الدولة الزيانية:

1) ضعف الموحدين بعد الهزيمة الكبرى أمام الإنسان وحلفائهم سنة 1212م، مما أدى إلى عجزهم عن قمع الحركات الإنفصالية.

2) قوة قبيلة بني عبد الواد وتماسكها بفضل دهاء زعمائها ومرونتهم.

3)كان انفصال الحفصيين بتونس عن الموحدين مشجعا ودافعا لايغمراسن للإقتداء بهم في سبيل كسب المجد لأسرته.

4) صناعة تلمسان عاصمة الإمارة وهي من العوامل الهامة في قيام الدولة الزيانية[1].

- شعراء بني زيان آثارهم الأدبية نذكر منهم:

الشاعر أبي حمو موسى الثاني الزياني:

ـ ولادته: ولد بالأندلس سنة 723هـ، كان مولده بغرناطة بالأندلس، وقد نشأ في تلمسان متمتعا بحياة الترف ككثير من الأمراء، وقرأ على أبرز علماء المغرب في عصره، فنال حظا وافرا من العلوم الدينية واللغوية والأدبية.

ـ تاريخه: عينه أبوه حاكما على سجلماسة وأصبح واليا على تلمسان بالجزائر حاليا، عندما استولى المرينيون على المدينة تلمسان سنة 753هـ، فر أبو حمو موسى الثاني من تلمسان، واتجه نحو تونس، فاستقبل بحفاوة من طرف الحفصيين، في عام 760هـ، تمكن أبو حمو موسى الثاني من الدخول إلى تلمسان على رأس جيش كبير بقيادة صغير بن عامر بن الذواودة صولة بن يعقوب بن علي وزيان بن عثمان بن سباع و شبل ابن أخيه، ومن بادية رياح دغار بن عيسى بن رحاب بقومه من سعيد و لقيتهم جموع السويد.

وقد كان أبو حمو موسى شاعرا مجيدا وكاتبا بارعا، ومن آثاره العلمية:كتاب"واسطة السلوك في سياسة الملوك"، وفيه عرض آراءه السياسية، وله كثير من قصائده الشعرية[2].

---

[1]- يحي بن خلدون أخ عبد الرحمان بن خلدون:بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد.

[2]- أبو حمو موسى الزياني:حياته وآثاره،عبد السيد حاجيات،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،الجزائر:1982،3،ص:71 .

منها تلك التي نظمها في مدح النبي . صلى الله عليه و سلم . بمناسبة ذكرى المولد الشريف. وقد وصل من شعر أبي حمو إحدى وعشرون قصيدة نظمها في أغراض مختلفة منها:الفخر والحماسة والرثاء، ومدح النبي . صلى الله عليه و سلم .

وكان أبو حمو موسى من أكثر شعراء المديح النبوي في الأدب المغربي وله أكثر من عشر مولديات (قصائد في مدح النبي . صلى الله عليه وسلم . تنظم بمناسبة ذكرى مولده الشريف).ولما استولى بنو مرين على تلمسان عام 737هـ، غادرها أبي حمو مع كثير من أقاربه، واتجه إلى مدينة فاس، فقضى فيها عدة سنوات من شبابه، ثم عاد إلى وطنه وأقام بمدينة ندرومة حيث تزوج وولد ابنه "أبو تاشفين" خليفته.

ثم رحل إلى تونس سنة 753هـ، حيث قضى مدة من الزمن وكان في هذا الوقت يخطط لاسترجاع ملك أسلافه، وبقي ينتقل في الجنوب جامعا الأمطار لتحقيق هذا الهدف وفي سنة 760هـ، دخل تلمسان فاتحا، واستولى على الكرسي الحكم، فأعاد بذلك عرش أسلافه وبفضل ذكائه وشجاعته استطاع أن يحي دولة بن زيان ويدعم أركانها ويجعل من تلمسان مركزا للإشعاع العلمي والاقتصادي والحضاري.

_ المنافسة بين أبناء أبي حمو الثاني:

كان لأبي حمو أبناء كثيرون، ذكر أغلبهم:يحي بن خلدون فقال:"وأبو تاشفين أكبر أولاد مولانا الخليفة..."الذين هم محمد المنتصر، ومحمد أبو زيان، ويوسف وعمر، والناصر وعثمان، وفارس وعبد الله وأحمد والسعيد، وعلي، ويعقوب، وأبو بكر، وداود، وريان(ولم يكن هؤلاء كلهم من أم واحدة بل تزوج أبو حمو نساء عديدات)[1].

ـ رجوع أبي حمو إلى تلمسان:

وأصبحت الدولة الزيانية تعيش حربا أهلية، حيث أدى التهافت على الحكم إلى صراع مؤلم بين السلطان أبي حمو، وولي عهده، وانحاز إلى جانب أبي حمو أقوام من عرب ناحية

[1]– أبو حمو موسى الزياني:حياته وآثاره،عبد الحميد حاجيات،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،الجزائر1982،

متيجة والشلف، ومن بني عامر، بينما كان أبو تاشفين مؤيدا من طرف سويد وقبيلة بني عبد الواد بما بذل فيهم من العطاء، وقسم من الأموال، وسلك أبو حمو وأنصاره طريق الجنوب، متجهين نحو المنطقة الغربية، إلى أن بلغوا قرية تامة الواقعة غرب تلمسان.

وفاته :

لما اتصل أبو حمو خبر زحفهم إلى تلمسان، غادرها مع أتباعه بني عامر والخراج من قبيلة المعقل، وقصد جبل بني ورنيد، الواقع جنوب المدينة والمطل عليها، وأقام بما كان من ورائه يدعى الغيران، ورد موسى بن يخلف إلى تلمسان واستولى عليها مقيما بها دعوة الأمير أبي تاشفين فأرسل إليه أبو حمو ابنه عمير، فأسره بعد أن أسلمه سكان المدينة وحمله إلى أبيه، فأمر بتعذيبه وقتله([1]).

ثم تمكن حلفاء أبي تاشفين من معرفة مقر أبي حمو فقصدوه وباغتوه في الغيران، والتحم القتال بين الفريقين وأدركه بغض أصحاب أبي تاشفين فقتلوه بالرماح، وجاؤوا برأسه إلى ابنه أبي تاشفين والوزير ابن علال، أول ذي الحجة 791 هـ .

وهكذا كانت وفاة أبي حمو الثاني خاتمة هذه المأساة، التي شهدت اصطدام السلطان الزياني بفلذة كبده وولي عهده وتطاحنهما وتناحرهما فلقي حتفه في جبال تلمسان، بطعنات رماح بعض رعاياه المنحازين إلى ابنه وقد بلغ من العمر 68 سنة وفاضت روحه بين الصخور والأعشاب، بعد حياة مليئة بالحوادث، ذاق منها الحلو والمر فلم يذهب بله زخرفها ولم تقضي عليه عواصفها. وكانت وفاة أبي حمو عام 791هـ([2])

ترك حمو أبو موسى الزياني آثار أدبية قيمة، تعكس الثقافة السائدة في عصره آنذاك، تنم عن ثقافته الواسعة وميله الملحوظ إلى الآداب، وهذا أمر طبيعي مادام قد نشأ من بيئات ثقافية تهتم بالعلوم وتقدرها بدءا بتلمسان ففاس وتونس حيث أخذ منها الكثير. ومن آثاره

---

[1] ذ- عبد السيد حاجيات: أبو حمو موسى الزياني:حياته وآثاره،الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر،ط 3،1982،ص:71.

[2] - أبو حمو موسى الزياني:حياته وآثاره ،عبد السيد حاجيات الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982،ص:71

الأدبية كتابة "واسطة السلوك" في سياسة الملوك" ألفه سنة 765 هـ([1]) يعظ فيه ابنه "أبو تاشفين" ويدعوه إلى التحلي بالأخلاق الحميدة وعموما فقد استعمل كتابه بمقدمة بين فيها الغرض من تأليفه ليقسمه إلى أربعة أبواب:

الباب الأول: يحتوي على نصائح عامة ينبغي للملك مراعاتها مثل إقامة العدل وملازمة التقوى وحفظ المال والعناية بالجيوش .

الباب الثاني: يعتبر من أهم الأقسام والحديث عن قواعد الملك وأركانه الأربع: العقل، السياسة، والعدل والاعتناء بجمع المال والجيوش .

الباب الثالث: قدم فيها تحليلا للأوصاف المحمودة التي يستقيم بها الملك كالشجاعة .

الباب الرابع: اشتمل على دراسة نفسية لهيئة الناس والاستدلال بمظاهرهم عما يجول في ضمائرهم .

ختم كتابه بنصائح لابنه وتحفيزه على إحياء ليلة المولد النبوي ودعوته لنظم المولديات

- شعره:

ترك "أبو حمو موسى" العديد من القصائد الشعرية التي وردت في كتاب "واسطة السلوك" وكتب المؤرخين لدولة بني زيان مثل "بغية الرواد" "وزهر البستان" ليجمعهما [2] الأستاذ عبد الحميد حاجيات في كتاب واحد عنوانه "أبو حمو موسى الزياني، حياته وأثاره، فوصلنا من شعره[3] ما يقارب ألف بيت منظما في إحدى وعشرين قصيدة موزعة على أغراض مختلفة كالفخر والحماسة والرثاء ومدح الرسول عليه الصلاة والسلام، وقد قيلت قصائده في مناسبات خاصة، أراد أبو حمو أن يعبر عن عواطفه، كبعض المواقف السياسية التي كان

1- ينظر :"أبو حمو موسى الزياني حياته وآثاره، عبد الحميد حاجيات، ص187 .

[2]- ينظر "بنية الخطاب في شعره أبو حمو موسى الزياني"، أمنه نورى، ص23

[3]- المصدر نفسه، ص24 .

يحقق فيها الانتصارات أو عندما تخالجه ذكرى أبيه فيرثيه، كما نظم أبيات بمناسبة الاحتفال بالمولد النبوي الشريف .

ونميز في قصائده الشعر "الغث والسمين والرديء والجيد" وربما يرجع ذلك إلى عدم تنقيح الشاعر لقصائده فيضيف إليها ما يراه ناقصا، أو يحذف منها مالا يروق له من الأبيات، كما كان يفعل الفحول من الشعراء وفيما يأتي نستعرض لذكر بعض القصائد الشعرية لأبو حمو موسى .

1- الفخر والحماسة:

يمتاز شعر أبى حمو بالاعتدال والتوازن، ويظهر ذلك في فخره خاصة فهو يعتمد غالبا على الواقع ولا يتجاوز الحد المقبول عادة في المبالغة والفخر، يدور حول ما قام به من أعمال بطولية في الميدان السياسي خاصة، حيث أنه ينظم الشعر كلما جاشت نفسه بالإحساسات والعواطف المؤثرة فكان شعره سجلا للمواقف التي عاشها .

ويشتمل الشعر السياسي (الفخر والحماسة) على عدة موضوعات وهي مرتبة نسبيا في قصائده السبعة على النحو التالي: **موضوع الطلل والغزل والبين والرحلة والحرب والحكمة**

نجد أبو حمو موسى يقول لما شرع في حركته لإحياء الدولة الزيانية:

حَالِي يَطُولُ وَمِحْنَتِي لاَ تَنْقَضِي كَمْ لِي بِمَيْدَانِ الوَغْيِ مِنْ مِحْفَلُ

لاَبُدَ مِنْ سُوقِ النُّجُوعِ مَعْزِبَا حَتَى لِكُلِ مُثُونهَا بِالأَجْمَلِ([1])

ويربط أبو حمو الدين بالسياسة في فخره فهو مكلف بنشر العدل والأمن في البلاد، فلا يخشى الأعداء ولا يهاب جيوشهم، فتراه يقول مخاطبا أحد وزراء بنى مرين:

تَخوضُ البَحْرَ ولاَ تَخْشَى عَوَاقِبَهُ ولَيْسَ تَسْلُكُ لُجَ البَحْرِ بِالتَعَبِ

عَائِدَاتُ وَيْحَكَ مَنْ أَعطاهُ خَالَفَهُ ومَنْ سَمَا ذِكْرَهُ فِي العِلْمِ وَالكُتُبِ

[1]- ينظر : "أبو حمو موسى الزياني حياته وآثاره، عبد الحميد حاجيات، ص211 .

ويرجع أكثر شعر في الفخر والحماسة إلى السنوات الخمسة الأولى من عهده وكانت فترة قوة أحرزت فيها الإمارة الزيانية على عدة انتصارات كبرى وتمكنت([1]) من طرد بنى المرين من جميع أنحاء المغرب الأوسط. وقد نظم قصيدة لأحد الأفراد المرنيين يدعى **"محمد البسيع"** قائلا:

فَمَا سِوَى العَلْيَاءُ هَمُنَا جَلاَلَةٌ إِذْ هَامَ قَوْمُ بِالحِسَانِ النَواعِمُ

بُرُوقِ السُيُوفَ المُشْرِفَاتِ وَالغِنَا أَحَبُ إِلَيْنَا بُرُوقُ المَبَاسِمِ

2_الرثاء:

لم يكثر أبو حمو من الرثاء ولم ينظم في هذا العرض إلا إثر وفاة أبيه، وكان شاعرنا يولي والده كثيرا من البر والعناية، وقد تأثرا بالغا لوفاته فلجأ إلى الشعر للتعبير عن لوعته وتفجعه، وللتخفيف من ألمه ولا يخلو رثاء أبي حمو من الدقة والعاطفة فياضة تنبئ عن صدق المشاعر وقوتها، فتراه يتحدث عن أبيه ويتذكر الأيام الجلية التي قضاها بجانبه([2]):

مَدَدْتُ فِي ظِلِّ نُعْمَاهُ يَدِي زَمَنًا وَنِلْتُ مِنْ رَفْدِهِ فِي دَهْرِهِ التُحُفَا

يَا كَابِدَ الدَّهْرِ فِي الثْرَى لِيُكْسِبَنِي وَيَبْتَنِي لِي فِي نَيْلِ العُلَى غُرَفَا

يَسُرُّهُ أَن رَآنِي سِرْتُ فِي تَرَفٍ وَيَسْتَزِيد عَلَى الأَعْدَاءِ بِي صَلفَا

وَ إِنَ عَرانِي مَا أَخْشَاهُ مِنْ دَنَفٍ بَكَى وَ رَقَّ وَ أَضْحَى يَشْتَكِي لَهَفَا

وإننا نلمس من خلال هذه الأبيات حنان الابن وعطفه على أبيه وانشغال باله بذكر الوالد الراحل .

وصف كذلك حزنه وبكاءه، ويطيل في ذلك كأنه يرى في تلك الإطالة وسيلة للتعبير عن عمق عاطفته وشدة ألمه فيقول:

فَبكَيْتُ مِنْ أَسَفٍ لِذَلِكَ كَمَا بَكَتْ حُزنًا عَلَيْهِ مَنَازِلِي وَرُبُوعِي

---

[1]– المصدر نفسه، ص214 .

[2]– ينظر : "أبو حمو موسى الزياني حياته وآثاره، عبد الحميد حاجيات، ص217 .

وَجَزَعْتُ مِن أَلَمِ الفُرَاقِ وَلَم أَكُنْ يَوْمَ الكَرِيهَةِ فِي الوَغَى بِجَزُوعِ

لَم تُنْصِفْ الأَيَامُ حَرَّ فُرَاقِهِ لَكِنَهُ قَدْ أَنْصَفَتْهُ دُمُوعِي

عَجَبَا لأَجْفَانِي سَخَتْ بِدُمُوعِهَا وَالقَلْبُ مُحْتَرِقٌ بِنَارِ ضُلُوعِي([1])

ثم يوجه الشاعر شكواه إلى الزمان وكأنه يعاتبه على ما أصابه من رزينة فيقول:([2])

أَفْجَعَتْنِي يَا زَمَان اليَوْمِ فِي خُلدِي مَا أَسْرَعَ المَوْتُ فِي الأَحْبَابِ حِينَ تَوَفَى

صَارَتْ مَسَاكِنَهُمْ تَحْتَ التُّرَابِ وَقَدْ تَمَزَّقَ الدُود مَا قَدْ كَانَ مُؤْتَلِفَا

المَاءُ والنَّارُ مَجْمُوعَانِ فِي كَبِدِي فَاعْجَبْ لِضِدّيْنِ فِي قَلْبٍ قَدْ ائْتَلَفَا

نَارٌ تَشُبُّ وَأَكْبَاد تَذُوبُ بِهَا وَيَحُ المُعَذِّبِ بِالجِنْسَيْنِ يَا لَهَفَا

حقا أن هذا الشعر ينفذ إلى أعماق النفوس ويتغلغل في الأحشاء، لما يمتاز به من سهولة وخفة، ولما يحمله في طياته من زفرات وتلهف وشعور مرهف وتفجع .

3_المولديات:

تحتل المولديات مكانة هامة في شعر أبي حمو موسى الثاني، وقد أورد منها صاحب (بغية الرواد) 11 قصيدة، نظمها أبو حمو بين سنتي 760هـ و771هـ، كما أشار المؤرخون لدولة بني زيان إلى اهتمامه بالاحتفال بليلة المولد الشريف، شأنه في ذلك شأن بني الأحمر بالأندلس، وبني مرين بفاس وغيرهم من السلاطين[3] .

وكانت القصائد التي تنظم في هذه المناسبات كثيرا ما تطرق موضوعات مختلفة اعتاد الشعراء أن يجعلوها مادة لقريضهم، كالاستهلال بذكر فضل شهر ربيع الأول أو فضل ليلة المولد الشريف وقد يستهل الشاعر قصيدته بذكر الأحبة وما يعانيه من اشتياق وحنين، ثم

[1]– عبد الحميد حاجيات، "أبو حمو موسى الزياني حياته وآثاره، ص211 .

[2]– المصدر نفسه، ص219 .

[3]– عبد الحميد حاجيات، أبو حمو موسى الزياني حياته وآثاره، عالم المعرفة لنشر والتوزيع، الجزائر، ط5، 2011، ص220 .

يبين أن أحبته يقطنون بالبقاع المقدسة، وأنه يود اللحاق بهم، وزيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم .

وقد يشير الشاعر إلى انهماكه في حياة اللهو والملذات وإلى ندمه على ما فاته من ذنوب، وضرورة توبته وإقلاعه([1])، عن زخرف الحياة الدنيا، ورجائه لشفاعة الرسول صلى الله عليه وسلم يوم القيامة .

وفي دراسة القصيدة المولدية يلحظ النمط الفني الأكثر تشبثا ببناء القصيدة المادحة وسار بذلك تقليدا فنيا احتذته المولديات وراعت فيها طبيعتها ويمكن أن نلمس هذا البناء في العناصر التالية:

1- الوقوف عند الأطلال:

الطلل تقليد من تقاليد القصيدة العربية بعامة، والقصيدة الجاهلية بخاصة، يقف الشاعر فيه على الأطلال الدراسة لأحبته الظاعنين، يذكر مواقعها ويصف أثرها الباقية .

ولقد انتقل الطلل بخواصه الشكلية والدلالية إلى القصيدة المولدية فعبر عنها أبو حمو موسى عن حبه للرسول الكريم من خلال اشتياقه للمكان الطاهر الذي تواجد فيه نبي الأمة صلى الله عليه وسلم سواء في حياته أو في مماته بطريقته المتميزة والخاصة. وقد نجد ذلك موضحا في مطلع إحدى مولدياته[2]:

قِفَا خَبْرَانِي عَنْ رُسُومِ النَوَاهِجِ وَعَنْ مُعَلِمَاتِ طَيِبَاتِ الأَرَائِجِ

وَعَنْ أَرْضِ نَجْدً والعَذِيبُ وَبَارِقُ ولاَ تُخْبِرَانِي عَنْ ذَوَاتِ المَالِحِ

الشاعر في هذا المطلع حذا حذو الشعراء القدامى وخاصة الذين عرفوا في العصر الجاهلي أمثال امرؤ القيس الذي يقول في معلقته[3]:

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلً بَسْقَطِ اللّوَى بَيْنَ الدُخُولِ فَحُومَلِ

---

[1]- المصدر نفسه، ص220 .

[2]- عبد الحميد حاجيات، أبو حمو موسى الزياني حياته وآثاره، ص375 .

[3]- امرؤ القيس، الديوان، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ط4، 1984، ص8 .

2- المقدمة الغزلية:

إن الشعر كان منذ القديم متنفسا للشعراء يعبرون من خلاله عن مشاعرهم، ولقد قدم شعراء المولديات قصائدهم بمقدمات غزلية كعادتهم في خطابهم الشعري المعتاد، حيث اتخذها الشعراء وسيلة للتعبير عن مشاعرهم وتحريك مشاعر المتلقين ومن مثل ذلك مقاله الأمير السلطان أبو حمو موسى الثاني في إحدى مولدياته([1]):

وَقُلْ لِسُلَيْمَةَ لَسْتُ أَسْلُو بِحُبِهَا وَإِنَّ طَرِيقَ الغَيُ لَسْتُ بِنَاهِجٍ

ويقول في مقدمة مولدية أخرى([2]):

نَزَلْتُمْ مِنْ فُؤَادِي مَنْزِلاً حَسَنَا وكُلُ مَا سَاءَنِي فِي حُبُكُمْ حَسَنَا

بِنْتُمِ فَلَمْ اَتَخِذْ مِنْ بَعْدِكُمْ سَكَنَا وَحُبُكُمْ فِي صَمِيمِ القَلْبِ قَدْ سَكَنَ

وفي المقدمة الغزلية كثيرا ما يجسد شاعرنا حبه للمصطفى صلى الله عليه وسلم في أحبة نساء فتطول عنده هذه المقدمة وتستغرق ما يقرب من نصف القصيدة أو يزيد أحيانا، ومن مثله قول الشاعر([3]):

الحُبُ أَضْعَفَ جِسْمِي فَوْقَ مَا وَجَبَا والشَوقُ رَدَ خَيَالِي بِالسِقَامِ هَبَا

_نص تطبيقي:

_ متن القصيدة:

1. كتمت حبي فأفشى الدمع كتماني وزاد شوقي على قيس وغيلان
2. يا جيرة الحي إني قد فتنت بكم كم تهجروني كأني مذنب جاني
3. ناديتهم ودموع العين هامـية بأي ذنب رضيت اليوم هجراني
4. يا فتنة القلب كم لي في هواك وكم أطلت هجري وحالي صار ضدان
5. الماء والنار تشكو من فراقـكم وحبكم قد رمى قلبي بنيران

[1]- عبد الحميد حاجيات، أبو حمو موسى الزياني حياته وآثاره، ص376 .

[2]- عبد الحميد حاجيات، أبو حمو موسى الزياني حياته وآثاره، ص348 .

[3]- المرجع السابق، ص371 .

6. كم تهجروني وهجري لا يحل لكم الموت أهون من بعدي وهجراني
7. وإن عزمتم على بعدي فوا أسفا بان الزمان بحالي أي تبيان
8. ياأحسن الناس مالي عنك مصطبر وكيف صبري وصبري اليوم أعياني
9. أنا جلبت الهوى حتى بليت به وخاض بحر الهوى قلبي وجثماني
10. نازعت عيني على ماكان من نظر فقالت العين إن القلب ابلاني
11. مهما نظرت الى شيء أراقبه يميل نحوكم سرى وإعلاني
12. وهذه حالتي يا جيرتي ولكم تضاعف الوجد من شوقي وأشجاني
13. إني فتنت بذات الخال يا خولي وعذبت بجفاها العاشق العاني
14. يا قرة العين كم ترضى تفارقني رفقا علي أما يكفيك هجراني
15. رقت لحالي وما قد بان من شغفي واعطفت بعد ذاك الهجر سلواني
16. قالت:وحق هواك اليوم ما نظرت عيناك عيني إلا ذبت من شاني
17. الحب من شيمتي والوجد معرفتي والصبر نافلتي يا آل زيان
18. إني شغفت بكم منذ زمان مضى وأنت لم تدر ما قد كان أجفاني
19. رقت حشاشة قلبي من هواك وقد تضاعف السقم في روحي وأبداني
20. إني وحق حياة الحب ما اكتحلت والله بعدكم بالنوم أجفاني
21. ولاشغف بحسن غير حسنكم ولا أخذت عليكم في الهوى ثاني
22. ولاشربت لذيذ الماء من عطش إلا رأيت خيالا منك خالاني
23. ولا جلست إلى قوم أحدثهم إلا حديثك مع قاص ومع داني
24. إن كنت مثلي فنعم الحب منقسما فافعل بفضلك ما أرضاك أرضاني
25. ضمتها حين زارتني ببهجتها وقلبها عندما أدعوه لباني
26. بتناوبات نعيم الدهر يأنسنا والعيش صاف وروض الوصل ريان
27. ولا رقيب ولا واش يطوف بنا إلا الحسان بأصوات وألحان

28. من كل غانية رقت شمائلها تزهو على ناعمات القضب والبان

29. وكل عاطرة فاحت نواسمها من عنبر ومسكي وريحان

30. هم سبوني وكم أسبوا الذي خطر من الملوك وحبي اليوم برهاني([1])

([1])أبو حمو موسى الزياني:حياته وأثاره،تأليف عبد الحميد حاجيات أستاذ التاريخ في كلية الآداب بالجزائر،ص: 312-313-314

المحاضرة العاشرة: كتاب "المستطرف في كل فن مستظرف" شهاب الدين محمد بن أحمد بن منصور الأبشيهي

بطاقة فنية لكتاب

"المستطرف في كل فن مستظرف"

اسم الكتاب: المستطرف في كل فن مستظرف

المؤلف: شهاب الدين محمد بن أحمد بن منصور الأبشيهي

الناشر: عالم الكتب – بيروت

الطبعة: الأولى 1419هـ

عدد الصفحات: 566

- **نبذة عن المؤلّف:**

الأبشيهي وهو أديب مصري سمّي بهذا الاسم نسبة إلى قرية **"أبشيه"** من قرى الغيوم، أقام في المحلة ورحل إلى القاهرة غير مرّة واستمع إلى دروس "جلال الدين البلقيني"، درس الفقه والنّحو وولي خطابة بلدته بعد أبيه، توفي سنة 852 هـ وقيل 850 هـ.

- **أعماله:**

المستطرف، تذكرة العارفين وتبصرة المستبصرين، أطراف الأزهار على مدور الأنهار. كما شرع في تأليف كتاب في صنعة الترسل والكتابة.

غلبت الطرافة على أعماله وأيضًا ضعف اللّغة.

- **نبذة عن الكتاب:**

هو عبارة عن كتاب مستوعب لحضارة العرب والإسلام في كل فنون المعرفة التي توصّلوا إليها، وجاء في هذا الجمع (الكتاب)، ويرجع هذا الشمول فيه نتيجة لنظرة الإسلام الشمولية للحياة بشتى نواحيها ومختلف أمورها.

نجد أن الكتاب فيه آثار للجاحظ من خلال توزيع الموضوعات واتّساعها وروح النكتة وحتى في تضمين الكتاب لبذيء الكلام، وكذلك لا ننسى ما كان للأدب الشعبي من صدى في الكتاب، ويتمثّل ذلك في القصص الخرافي البعيد عن الواقع العلمي.

أيضًا تضمين الكتاب الأمثال العامّيّة وحتى القصص الشعبي للعامّة.

والذي دفع الأبشيهي للقيام بهذا الجهد هو ما لحق بالأمة من تخلّف في تلك الفترة والذي كان من أسبابه:

1 -**الذاتي:** وهو تبلد العقل بعد رحلة حضارية طويلة لدى المسلمين، فقد تكاسلوا ولم يعملوا على حفظ تراثهم وحمايته من الضياع، بل إنهم أسهموا في ضياعه إما عن جهل منهم وإما عن شعور بالنّقص. فإذا هم يبيعون جلّ ما تبقّى من تراثهم للمستشرقين الأوروبيين بأكياس الخيش وهم لا يعرفون قيمة ما يبيعون.

2 -**سقوط العاصمة العباسية بغداد:** وهذا على يد المغول الذين دمّورا الحضارة الإسلامية لجهلهم ورموا إنتاج سبعة قرون في نهر دجلة مثل ما حدث مع الصليبيين الذين أحرقوا منتجة طرابلس.

3 -**حكام وسلاطين ليسوا بعرب:** فهؤلاء لم يهتمّوا بالتراث العربي ولا حتّى بالسّكّان المحلّيّين إلا بالقدر الذي يستفيدون منه.

فعصرالانحطاط هو الذي غيّب الابتكار والإبداع والإبداع والتجديد إلى ما يسمّى بالتجميع فصار عصرًا يسمّى بعصر الموسوعات والأبشيهي هنا واحد من الذين جمع الفنون في كتاب واحد ألا وهو المستطرف.

- **خصائص كتاب المستطرف:**

1 -كتاب شامل وجامع للفنون الأدبية المختلفة.

2 -البساطة والوضوح في عرض محتويات الكتاب مما أدّى إلى انتشاره بين شريحة كبيرة بين المتلقّين.

3 -تقسيم الكتاب بطريقة يسهل بها على المتلقّي العثور على الموضوع الذي يرغب بقراءته.

4 -اللجوء إلى الاستطراد بهدف إضفاء جو من المتعة وإبعاد الملل عن القارئ.

5 -الترابط والوحدة بين أجزاء الكتاب وعدم تشتت الأفكار فيه بالرّغم من تنوّع موضوعاته وتعدّدها.

- **أبرز الموضوعات في كتاب المستطرف:**

1 -الحديث عن أركان الإسلام الخمسة وفضائلها بطريقة سلسة قريبة إلى القلب والاستشهاد عليها بآيات من القرآن الكريم إلى جانب إيراد مجموعة من الأشعار التي تحمل تلك المعاني الإسلامية الفريدة.

2 -الفضل الكبير الذي يحمله القرآن الكريم مع بيان الثواب والأجر الذي يحصل عليه القارئ لآياته الطريمة بالاستشهاد على ذلك بعدد من الأحاديث النبوية الشريفة.

3 -الأمثال السائرة التي جرت على الألسن مما جاء في الشعر العربي وأشعار العامّة والمولّدين بالإضافة إلى الأمثال من الشّعر المنظوم مرتّبة وفقًا لترتيب حروف المعجم والأمثال السائرة بين الرّجال والنّساء مرتّبة أيضًا.

4 -علوم البلاغة والفصاحة والبيان وتعريفها وذكر ما ورد من أقوال السّابقين وذكر من عُرفوا واشتهروا بهذه العلوم من الرجال والنّساء.

5 -القضاء وأحكامه والأمور المتعلّقة بالقصاص بالإضافة إلى ذكر لأبرز القضاة.

6 -أخبار العرب أيام الجاهليّة والعديد من قصصهم بالإضافة إلى ذكر الغريب من عاداتهم وما ورد من قصص وحكايات شائعة.

- **مقتطفات من الكتاب:**

الأيام الخمسة: يوم مفقود، ويوم مشهود، ويوم مورود، ويوم موعود، ويوم محدود.

1 -**المفقود:** أمسك الذي فاتك مع ما فرّطت فيه.

2 -المشهود: يومك الذي أنت فيه فتزوّد فيه من الطّاعات.

3 -المورود: هو غدك ولا تدري هل هو من أيامك أو لا.

4 -الموعود: هو آخر أيّامك من الدّنيا فاجعله نصب عينيك.

5 -المحدود: هو آخرتك وهو يوم لانقضاء له، فاهتمّ له، فإنّه إمّا نعيم أو عذاب مخلد.

الأشعار: قد قسم الناس خمسة أقسام للشّعر:

- **مرقم:** كقول أبي جعفر:

والشّمس لا تشرب خمر النّدى في الروض إلا من كؤوس الشقيق

- **ومحلّى:** كقول زهير:

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك بالأخبار من لم تزوّد

- **ومسموع مما يقام به الوزن دون أم يمجه الطّبع:** كقول ابن المعز:

سقى المطيرة ذات الظّل والشّجر ودير عبدون هطّال من المطر

- **ومتروك وهو ما كان كَلًّا على السمع والطّبع:** كقول الشاعر:

تقلقلت بالهمّ الذي قلقل الحش قلاقل همّ كلّهنّ قلاقل

مما قيل في الألغاز:

في الغزال:

اسم من قد هويته ظاهر في مروغه
فإذا زال ربعه زال يأتي حروفه

وفي طاحون:

ومسرعة في سيرها طول دهرها عراها مدى الأيام تمشي ولا
وفي سيرها من تقطع الأكل ساعة وتأمل مع طول المدى ولا تشرب

وفي القلم:

وأهيف مذبوح على صدر غيره يترجم عن ذي منطق وهو أبكم
تراه قصيرا كلما طال عمره ويضحي بليغًا وهو لا يتكلّم

النوادر:

نوادر المعلّمين: عاد بعضهم نحويًّا فقال ما الذي تشكوه؟ قال حمى جاسية، نار حامية، من الأعضاء واهية، والعظام بالية، فقال له لا شفاك الله بعافية، يا ليتها كانت القاضية.

المحاضرة الحادية عشر: عيار الشعر ابن طباطبا

عنوان الكتاب	عيار الشعر
اسم المؤلّف واسم المحقق	• محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم طباطب • عباس عبد الساتر
سنة النّشر	1402هـ - 1982م
الطبعة	الأولى
دار النّشر	دار الكتب العلمية
بلد النّشر	بيروت – لبنان
عدد الصّفحات	171 صفحة

الوصف الخارجي:

جاء عنوان الكتاب في منتصف أعلى غلاف المؤلَّف، مكتوبًا بخطِّ فارسي غليظ وكبير تحتاسم **"عيار الشعر"**، فالعيار كما جاء في لسان العرب: **"ما عايرت به المكاييل، فالعيار صحيح تام وافٍ، تقول: عايرتَبه أي سويته... وعيّرتُ الدّنانير، وهو أن تلقي دينارًا دينارًا فتوازن به دينارًا ديرنارًا"**،[1] ومنه نستكشف فحوى الكتاب، فهو ميزان للشعر في جميع مجالاته. كذلك هو حال اسم صاحب المنشورات، حيث جاء أسفل الكتاب بخط فارسي صغير الحجم، أمّا اسم المؤلّف والمحقّق والمراجع وكذلك اسم دار النّشر فكتبت بخط النّسخ، وكتبت كلمات **"دار الكتب العلمية"** بالخط الكوفي.

[1] ابن منظور، لسان العرب، دار صادر – بيروت -، الكبعة الثالثة، 1414هـ، الجزء 4، ص 623.

أتى غلاف الكتاب بلون أخضر تخلّلته زخرفة جاءت تحت اسمي المحقق والمراجع، بلغت عدد صفحات الكتاب **171** صفحة، ضمت سبعة وعشرين بابا، من بينها قضايا كانت حديث عصرهم، والسّبب الغالب في تأليف كتبهم، وهي **مفهوم الشّعر، واللفظ والمعنى، والسرقات أو كما ذكرها ابن طباطبا فب كتابه هذا بالمعاني المشتركة، وقضية النظم.**

مؤلف الكتاب هو محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم طباطب، الحسني، العلوي، أبو الحسن: شاعر مغلق وعالم بالأدب، مولده ووفاته بأصبهان، له كتب، منها **"عيار الشعر – ط"** و**"تهذيب الطّبع"** و**"العروض "**، قيل: لم يسبق إلى مثله، وأكثر شعره في الغزل والآداب.[1] (ت 322هـ).

طُبِعَ هذا الكتاب في دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان - سنة 1402هـ - 1982م، للطبعة الأولى، شرحه وحقّقه عباس عبد السّاتر، وراجعه نعيم زوزور. حوى الكتابفي آخره على ثلاثة فهارس، أولها عن القوافي والشعراء، والثاني عن مراجع التحقيق، والثالث للموضوعات.

الوصف الداخلي:

بدأ المؤلف كتابه بباب عنوان الشعر وأدواته، جعله لبنة للكتاب كلّه، وتبيانا لمحتواه، فيه عرّف بالشّعر وسماته وأدواته، فتوسّع في ذلك توسّعًا كبيرًا مستفيضا على غير عادة بعض أدباء عصره، فقال: **"الشعر -أسعدك الله- كلام منظوم، بائن على المنثور الذي يستعمله الناس في مخاطباتهم، بما خص به من النظم الذي إن عدل عن جهته محبة الأسماع، وفسد على الذوف، ونظمه معلوم محدود، فمن صحّ طبعه وذوقه لك يحتج إلى الاستعانة على نظم الشّعر بالعروض التي هي ميزانه، ومن اضطرب عليه الذّوق لم يستغن من تصحيحه وتقويمه بمعرفة العروض والحذق به، حتى تعتبر معرفته المستفادة كالطّبع الذي لا تكلف معه"** .[2] وجعل على رأس تلك الأدوات كمال العقل، يقول: **"ةجماع هذه الأدوات كمال العقل الذي تتميز به الأضداد، ولزوم العدل وإيثار الحسن، واجتناب**

[1] خير الدين الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، الطبعة 15، 2002م، الجزؤ 5، ص 308.
[2] ابن طباطب، عيار الشّعر، شرح وتحقيق عباش عبد السّاتر، دار الكتب العلمية،بيروت- لبنان، الطبعة 1، 1402 هـ، ص 9.

القبيح، ووضع الأشياء مواضعها" [1]. فتفصيله هذا عجيب، إذ نجد غيره من الأدباء والنقاد السابقين تخبطوا وتفرقوا في القضايا الأخرى المنتشرة آنذاك، ثم يردف بابًا في صناعة الشّعر، حيث جعل من المعاني والألفاظ والقوافي والأوزان أساسًا لصناعة الشعر، فيقول: **"إذا أراد الشاعر بناء قصيدة مخّض المعنى الذي يريد بناء الّشعر عليه في فكره الذي يسلس له القول"** .[2] وما إن أكمل هذا الباب إلّا ونراه قد انبرى لقضية اللّفظ والمعنى التي شغلت النّقّاد القدامى، حيث شهدت انقسامًا لهم على ثلاثة مذاهب، وما ابن طباطبا إلّا من أنصار الموفقين بينهما، فلا يرى فضلًا للفظ على معنى، ولا فضل لمعنى على لفظ، بل يشتركان في إخراج الكلام والشّعر في أبهى صورة، وأشرح معنى، يقول: **"وللمعاني ألفاظ تشاكلها فتحسن فيها وتقبح في غيرها، فهي لها كالمعرض للجارية الحسناء التي تزداد حسنًا في بعض المعارض دون بعض، وكم من معنى حسن قد شين بمعرضه الذي أبرز فيه، وكم معرض حسن قد ابتذل على معنى قبيح ألبسه"** .[3] إلّا أنه في هذا الباب لم يستشهد بأبيات تبيّنُ رأيه في اللفظ والمعنى، بل اكتفى بتجلية ما كنه القضية، وكأنّه هنا ينظّر فحسب، لتتوالى الأبواب بعدها في شتّى مجالات الشّعر وضروبه، فبدأ بشعر المولدين وتبيان طريقتهم في التّشبيه، ثم ما كان عليه شعر العرب من مدح وهجاء في أخلاقهم، وخصّص بابًا ذكر فيه أسباب حسن الشّعر، وفي معرض حديثه عنها ذكر أسباب قبحه أيضًا، ولا يزال في ذكر الأبواب وما حوته من أقسام للشّعر مستشهدًا بما قالته العرب، حتّى وصل لقضيّة أخرى هي من أكثر القضايا احتدامًا وكذا قدما، ألا وهي قضية السرقات الشعرية، فلم يعب على المتأخّر أخذه عن السّابق إن أجاد فيه وأحسن، يقول: **"وإذا تناول الشاعر المعاني التي قد سبق إليها فأبرزها في أحسن من الكسوة التي عليها لم يعب بل واجب له فضل لطفه وإحسانه فيه"** ،[4] واستدل على هذا القول بعدد من الأبيات والقصائد، نذكر منها قول أبي نوّاس:

وإن جرت الألفاظُ منا بمدحة لغيرك إنسانًا فأنت الذي نعني

[1] المصدر نفسه، ص 10-11.
[2] م. ن، ص 11.
[3] المصدر السابق، ص 14.
[4] م. ن، ص 79.

أخذه من الأحوص إذ يقول:

متى ما أقل في آخر الدّهر مدحة فما هي إلّا لابن ليلى المكرّمِ [1]

وممّا نلحظُهُ في هذا الكتاب تكرار قضيّة اللّفظ والمعنى في بابين مستقلّين، حيث جعل للّفظ الحسن والمعنى الواهي بابًا، أعقبه بباب سّاه الشّعر الصحيح المعنى، الرّث الصياغة، إلّا أنه جاء بالقضيّة مستشهدًا على كل ضرب بما قيل في مثله بأبيات، فاستشهد في ضرب اللفظ الحسن والمعنى الواهي بالعديد من الأبيات كما هي عادتهم، نذكر منها قول قيس بم ذريح:

خليلي هذي وفرة قد غلبتها فما لي بأخرى مثلها قد أطلّتِ
وبي زفرات لويد من قتلنني تسوق التي تأتي التي قد تولّت [2]

ومن الأمثلة التي ساقها في هذا الباب قول القائل:

ولما قضينا من منى كل حاجة ومسّح بالأركان من هو ماسح
وشدّت على حدب المهاري رحالنا ولا ينظر الغادي الذي هو رائحُ
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطيّ الأباطحُ [3]

وإيراده لهذه الأبيات ليس تضمينها في هذا الضّرب من القضية، بل هو ردّ على ما كان منتشرًا من النقد حينها عن هذه الأبيات، فابن قتيبة ذكر هذه الأبيات في كتابه الشّعراء، فقال: **"وضرب منه حسن لفظه وحلا، فإذا أنت فتشته لم تجد هناك من المعنى، كقول القائل:"** ثم ساق الأبيات، وقال بعدها: **"هذه الألفاظ كما ترى، أحسن شيء مخارج ومصالح ومقاطع، وإن نظرت إلى ما تحتاجها من المعنى وجدته: ولما قطعنا أيام منى، واستلمنا الأركان، وعالينا إبلنا الأنضاء، ومضى النّاس لا ينتظر الغادي الرائح، ابتدأنا في الحديث، وسارت المطي في الأبطح، وهذا الصنف في الشعر كثير".**[4]

فكان رأي ابن قتيبة لهذه الأبيات يضعها في الضرب الذي حسن لفظه وتأخر معناه، أما ابن طباطب، فيرى فيها اكتمال المعنى على جودة ألفاظها، فيقول معلّقًا على الأبيات:

[1] م. ن، ص 79.
[2] المصدر السابق، ص 88.
[3] م. ن، ص 88.
[4] ابن قتيبة، الشعر والشعراء، دار الحديث – القاهرة، الجزء 1، ص 67-68.

"هذا الشّعر هو استشعار قائله لفرحة قفوله إلى بلده وسروره بالحاجة التي وصفها، من قضاء حجه وأنسه برفقائه، ومحادثتهم ووصفه سيل الأباطح بأعناق المطيّ كما تسيل بالمياه، فهو مستوفى على قدر مراد الشّاعر".[1]

وأما في ضرب الصحيح المعنى، الرّثّ الصياغة، نعرض أبياتا قلائل، منها قول الآخر:

قدرت على نفسي فأزمعت قتلها فأنت رخيّ البال والنّفس تذهبُ
كعصفورة في كفِّ طفل يسومها ورود حياض الموت والطّفل يلعب [2]

وما إن انتهى من هذا الباب، حتى جاء باب يحمل عنوان المعنى البارع في المعرض الحسن، جمع فيه بين الضربين السّابقين، وجعل فيه مثالًا واحدًا لمسلم بن الوليد الأنصاري، فقال: **"فأمّا المعنى الصحيح البارع الحسن، الذي قد أبرز في أحسن معرض وأبهى كسوة، وأرقّ لفظ، فقول مسلم بن الوليد الأنصاري:**

وإنّي وإسماعيل بعد فراقه لكالغمد يوم الرّوع ... النّصل
فإن أغش قومًا بعده أو أزرّهم فكالوحوش يدنيها الأنس المحل [3]

هذا ومن الأبواب التي جاءت بعيد هذا الباب، ما أسماه الشعر الرديء النسج، والذي يندرج ضمن قضية أخرى وهي **نظرية النّظم**، فقسّمها في بابين على طريقة ما رأينا معه في قضيّة اللّفظ والمعنى، وقال فيه: **ومن الأبيات المستكرهة الألفاظ القلقة القوافي، الرديئة النسج فليست تسلم من عيب يلحقها في حشوها أو قوافيها، أو ألفاظها، أو معانيها، فقول أبي العيال الهذلي:**

ذكرت أخي فعاودني صُداع الرّأس والوصبُ
فذكر الرأس مع الصّداع فضل.[4]

أمّا القسم الثاني من نظرية النّظم، فقد جاء به بعد هذا في باب وأسماه الشّعر المحكم النّسج، فذكر فيه الكثير من الأشعار، منها قول الحطيئة:

[1] ابن طباطب، عيار الشّعر، مصدر سبق ذكره، ص 88.
[2] المصدر الساسبق، ص 91-92.
[3] م. ن، ص 92.
[4] م, ن، ص 105.

من يفعل الخير لا يُعدم جوازيه ... لا يذهب العرف بين الله والنّاس
دع المكارم لا ترحل لبغيتها ... واقعد فإنّك أنت الطاعم الكاسي
فقوله: ((الكاسي)) عجيبة الموقع.[1]

ولا يزال في ذكر الشواهد إلى أن انتقال إلى باب آخر وهو التّخلّص، وفيه ذكر حسن تخلّص وانتقال الشّعراء إلى المعاني التي أرادوها، ثم يأتي عقب الباب الموالي لهذا الباب باب ملاءمة معاني الشّعر لمبانيه، والذي له صلة بقضيّتي اللّفظ والمعنى والمنظّم، ليتبعه بالأبواب الآتية منهيا بذلك كتابه وهي: **((مفتتح الشّعر -مطلعه- تأليف الشعر، القوافي))**.

- وهكذا كان نهج ابن طباطبا في كتابه هذا، فهو يستدلّ على كل الموضوعات والقضايا التي تكلّم عنها مستشهدًا بالكثير من أشعار العرب، بما يكفي لتجلية آرائه وإيضاح مبتغاه
- كانت طريقة عرض المؤلّف لأفكاره وآرائه وللقضايا المطروحة في الكتاب جدّ واضحة، بل شاملة، إذ كان له من التأصيل والتّفصيل الشيء العجيب، فلا يكتفي بصفة واحدة لشرح فكرة أو إبداء رأي في شيء، بل يستدعي من الأفاظ والمرادفات ما يكفي ويزيد ويتعدّى حدّ الفهم، كذلك الأمر بالنسبة للاستشهادات التي يسوقها كثيرة وعديدة، الأمر الذي يبين مدى تمكّن ومقدرة ابن طباطبا من علوم اللغة العربية ومجالاتها الواسعة.
- جاءت القضايا والموضوعات التي ذكرها ابن طباطبا على توافق وصلة، تكمل إحداها الأخرى معطية بذلك صورة كاملة شاملة عن الشّعر وضروبه، مبينة أهمية الكتاب ودوره في إثراء التراث العربي.
- سُبِقَ ابن طباطبا في معالجة تلك القضايا والأفكار، وذلك راجع لتأخُّر ميلاده، ومن الذين سبقوه ابن قتيبة كما رأينا في كتابه الشعر والشّعراء.

[1] المصدر السابق، ص 113.

المحاضرة الثانية عشر: كتاب معجم البلدان لـ: ياقوت الحموي

مميزات الكتاب ومنهجه

لقد حاز كتاب معجم البلدان على اهتمام الباحثين من القدامى والمحدثين وإعجابهم ، ولا شك أن كل قارى، لهذا الكتاب سيجد في نفسه صدى لهذا الإعجاب، نظرا لما يحتويه هذا الكتاب من مادة معرفية متنوعة يجد فيها كل قفائ ما يسترعي اهتمامه.

ولأن هذا الكتاب هو محور الدراسة عن ياقوت الحموي مؤرخاً، فإني سوف أقدم دراسة عن هذا الكتاب تكشف سير الاهتمام به، وقيمته العلمية.

وسأبدأ بالإشارة إلى سبب تأليفه وطريقة ترتيبه، ثم أتحدث عن مميزاته، ومنهجه، وأخصص مبحثا مستقلاً عن موارده في السيرة والتاريخ.

سبب تأليف الكتاب:

ذكر في المقدمة أنه سئل بمرو سنة 615 هـ في مجلس شيخه الإمام فخر الدين أبي المظفر عبد الرحيم بن سعد السمعاني عن اسم حباشة لمن موضع ورد في الحديث النبوي، وهو سوق من أسواق العرب في الجاهلية، فقال ياقوت : أرى حباشة يضم الحاء قياسا على أصلها في اللغة، لأن الحباشة الجماعة من الناس من قبائل شتى فخالفه أحد المحدثين، وقال : حباشة بالفتح، وأصر على رأيه وكابر، فلما انقضى المجلس أخذ ياقوت يبحث عن هذه الكلمة في دواوين اللغة وغريب الحديث، حتى وجدها بعد جهد جهيد، وكانت موافقة لقوله إنها بالضم، عند ذلك علم أن الناس بحاجة إلى مثل هذا الكتاب الله فشرع في تأليفه، قال : فألقي حينئذ في روعي افتقار العالم إلى كتاب في هذا الشأن مضبوط، وبالإتقان وتصحيح الألفاظ وبالتقييد مخطوطا، ليكون في مثل هذه الظلمة هاديًا، وإلى ضوء الصواب داعيا، ونبهت على هذه الفضيلة النبيلة، وشرح صدري لنيل هذه المنقبة التي غفل عنها الأولون للها. ولم يهتد . لها الغابرون كا فقد أ أبان في هذا النص عن سبب التأليف وهو ضبط أسماء الأماكن ومواقعها والحاجة الملحة إلى وجود مؤلف يعتني بذلك.

ترتيبه:

لقد رتب ياقوت مواد كتابه على حروف المعجم، وضبطها بالحروف خشية من التصحيف والتحريف، ثم يذكر سبب التسمية والاشتقاق اللغوي للمادة إن أمكن ذلك، ثم يبين نوع ذلك الموضع هل هو جبل أو ماء أو عين أو مدينة أوبلدة أو صنم أو أقليم .... إلخ. ثم يحدد موقع هذا المكان على خطوط الطول والعرض بحسب الزيجات وكتب

الفلك الموجودة في عصره ويوضح بعده عن المواضع آخر أكثر شهرة، ثم يختم ذكر الموضع بأسماء الإعلام المشهورين المنسوبين إليه .

مراحل تأليف الكتاب:

بدأ تفكير ياقوت في تأليف الكتاب عام 615 هـ حسبما اتضح في بيان سبب تأليف الكتاب، فالذي يظهر أنه بدأ مباشرة في جمع مادة الكتاب في تلك السنة، كما يدل عليه ظاهر كلامه السابق . ثم أخذ في تسويد ما جمعه من مادة سنة الكتاب في العشرين . من شهر صفر عام 631 هـ لها . وبعد عودته من مصر في إحدى وعشرين من شهر محرم - 625 هـ تلقتها، بدأ في تبيض معجم البلدان مرة أخرى ولم يتوقف ياقوت عن إضافة معلومات جديدة إلى كتابه حتى فترة متأخرة من حياته حيث يشير إلى أنه أضاف مادة حول " حوراء " في سنة 632 هـ يقول ياقوت" : وقد خبرني من رأها في سنة 632هـ وقد ذكر أنها ماءة ملحة وبها أثر قصر مبني بعظام الجمال وليس بها أحد ولا زرع ولا ضرع .

وبهذا يتضح أن تأليف المعجم قد استغرق عشر سنوات . وما إن فرغ حتى شعر بالجهد الذي بذله وكان يود مضاعفة حجمه وزيادة فوائده ولكنه كان قد تطاول به الزمن، وأحس أن الاستيعاب شيء لا يفي به طول العمر ، فاكتفى بما جمعه فقال : ولما تطاولت في جمع هذا الكتاب الأعوام، وترادفت في تحصيل فوائده الشهور والأيام، ولم أنته منه إلى غاية أرضاها، وخشيت بغتة الموت، فبادرت بإبرازه الفوت .. وأما الاستيعاب فشيء لا يفي به طول الأعمار، ويحول دونه مانعا العجز والبوار، فقطعته والعين طامحة، والهمة إلى طلب الازدياد جامحة، ولو وثقت بمساعدة العمر وامتداده وركنت إلى توفيقي لرجا ﷺ فيه واستعداده لضاعفت حجمه أضعافا وزدت في فوائده متين بل آلافا.

ثم يعتذر للقارىء عن كبر حجم الكتاب، وأنه لا يقصد في تأليفه الشهرة، يقول ياقوت" : ولو التمست نفاق هذا الكتاب وسيرورته، واعتمدت إشاعة ذكره وشهرته، لصغرته بقدر الهمم العصرية، ورغبات أهل الطلب الدنية، ولكني انقدت فيه لنهمتي، وجرتي رسن الحرص إلى بعض بواعث همتي .

مميزات الكتاب :

قد يتخيل القاري، أن معجم البلدان ليس إلا معجما جغرافيا بحتًا، إلا أنك عندما تتغلغل في ثنايا صفحاته تجد نفسك أمام موسوعة معرفية، تتسم بتنوع المادة العلمية التي تقدمها ما بين لغوية وأدبية وتاريخية واجتماعية وثقافية وهذا التنوع في مادة الكتاب أعطاه قيمة تتجاوز الغاية الجغرافية منه.

ومن خلال قراءتي المتكررة له، ومعايشتي له مدة طويلة استوقفني في هذا الكتاب عدد من المميزات التي تكشف عن جانب من القيمة العلمية لهذا الكتاب ولعل من أبرز هذه المميزات ما يلي:

1- سهولة استخراج المعلومات لترتيبه على حروف المعجم:

حرص ياقوت على تسهيل قراءة كتابه، ولهذا فقد عمد إلى ترتيبه على حروف المعجم، لكي يصل القارىء إلى مبتغاه بيسر وسهولة . وهذه الميزة أشار إليها بقوله في المقدمة" : ورتبته على حروف المعجم، ووضعته وضع أهل اللغة المحكم وأبنت عن كل حرف من الاسم : هل هو ساكن أو مفتوح أو مضموم أو مكسور وأزلت عنه عوارض الشبه وجعلته تبراً بعد أن كان من الشبة الكفها إلى أن يقول: والغرض من هذا الترتيب تسهيل طريقة الفائدة من غير مشقة .

2-اهتمامه بضبط أسماء الأماكن:

اهتم ياقوت بضبط أسماء المواضع اهتماما كبيرا، وقد اعتمد على المصادر اللغوية والأدبية، ودواوين الأدب والرواة وتفاريق الكتب وما سمعه من أهل تلك الأماكن، فكان كتابه موسوعة لغوية في ضبط أسماء بلدان العالم الإسلامي وما جاورها . وهو يفسر هذا الاهتمام بالضبط، بأن ذلك يستجيب لحاجة العلماء والذين يحتاجون إلى ذكر الأماكن حتى لا يخطئوا في ضبط المكان، خاصة وأن هناك أماكن تتشابه أسماؤها.

كما أنه لم يتردد في تصحيح أخطاء المؤلفين في ذلك.

كما بين أهمية معرفة ضبط الأسماء لكل من أهل السير والأخبار والحديث والتواريخ والآثار وأهل الحكمة والتفهم والتنجيم وأهل الأدب.

كما أن معرفة مواقع البلدان والمواضع أمر مهم لأهل السير والأخبار والحديث والتواريخ والآثار وقل أن تخلو من ذكرها صفحة بل سطر من كتبهم .

وكذلك أشار ياقوت إلى أهمية كتابه الأهل الأدب، إذ يقول : وأما أهل الأدب فناهيك بحاجتهم إليها، لأنها من ضوابط اللغوي ولوازمه، وشواهد النحوي ودعائمه، ومعتمد الشاعر في تحلية جيد شعره بذكرها، وتزيين عقود لآلىء نظمه يشترها، فإن الشعر لا يروق، ونفس السامع لا تشوق، حتى يذكر حاجر وزرود والدهناء و هبود، ويتحنن إلى رمال رضوى. فيلزمه تصحيح لفظ الاسم وأين صفعه، وما اشتقاقه ونزهته، وقفره وحزنه وسهولته . فإنه إن زعم أنه واد وكان جبلا، أو جبل وكان صحراء، أو صحراء وكان نهرا، أو نهر وكان قرية أو قرية وكان شعبا، أو شعب، وكان حزما، أو حزم، وكان روضة. أو روضة وكان صفصفا أو صفصف، وكان مستنقعا، أو مستنفع وكان جلدا، أو جلد وكان

سبخة، أو سبخة وكان حرة، أو حرة وكان سهلا، أو سهل وكان وعزاء، أو يجعله شرقيا وكان غربيا، أو جنوبيا وكان شماليا .

3- الاستشهاد بالقرآن والأحاديث النبوية:

حين يعرف ياقوت ببعض الأماكن يورد الآية القرآنية التي تناسب المكان وأحيانًا أكثر من آية في الأماكن المقدسة أو التي ذكرت في القرآن أو عند حديثه عن أخبار الأنبياء، أما الأحاديث فهو يستعين بها كثيرا في تعريفه للمكان مثال : وعن النبي ﷺ : لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : مسجدي هذا والمسجد الحرام ومسجد البيت المقدس .

ولقد حرص ياقوت على الاستشهاد بالأحاديث في أكثر المواضع مع حذف الأسانيد حتى لا يضخم حجم كتابه وهو يروي معنى الحديث لا لفظه ل . إضافة أن ياقوتاً قد يريد أن تكون معلوماته مرتبطة، فالإسناد عادة يفقد هذا الترابط في المعلومات .

ولعل من اهتمامه بالأحاديث نقده الرجال السند ل . كذلك رفضه للأحاديث المنسوبة للرسول ع عن فضائل بعض المدن إذ يرى أنها أحاديث لا تصح عند أئمة المحدثين الحفاظ النقاد .

وكتب عن أماكن مناسك الحج كالوقوف بعرفة والسعي بين الصفا والمروة والطواف بالبيت، كما تحدث عن الأماكن التي وردت في القرآن الكريم كسد يأجوج ومأجوج وبابل والمود، وأصحاب الأخدود، وغيرها.

وربط ياقوت موضوع كتابه بالدين حينما أشار إلى أن هذه البلدان والمواضع لا يستغني عن معرفتها أولو البصائر لأن بعض هذه الأماكن مواقيت للحجاج والمعتمرين، وبعضها معالم للصحابة والتابعين رضوان الله عليهم أجمعين، وبعضها مشاهد للأولياء الصالحين، وبعضها مواطن الغزوات سيد المرسلين، وبعضها كانت فيه فتوح الخلفاء الراشدين .

4- تسجيله لنشأة المدن الإسلامية وتطوراتها العمرانية:

اهتم ياقوت بذكر بناء المدن منذ أقدم العصور وحتى عصره، مما أعطانا فكرة موسعة عن تطور الحضارة العمرانية منذ أقدم العصور، كما تحدث عن نشوء المدن الإسلامية من بداية عصر الراشدين وحتى عصره في القرن السادس الهجري، إضافة إلى كونه تناول دور هذه المدن باعتبارها مراكز سياسية وعسكرية، واقتصادية . كما أشار إلى ما بها من آثار قديمة وخاصة الآثار الإسلامية مثل المساجد، حيث وصف المسجد الأقصى .

5- ذكره معظم المعالم الجغرافية للعالم الإسلامي وما جاوره من البلدان:

شكلت المادة الجغرافية التي ذكرها ياقوت في كتابه معجم البلدان أغلب أسماء البلدان والجبال والأودية والقرى والبحار والأنهار وغيرها لها من المعالم الجغرافية المعروفة آنذاك، وخاصة في العالم الإسلامي إذ لم يرد ياقوت لكتابه أن ينحصر في إقليم بعينه أو مدينة معينة مثل كتاب صفة جزيرة العرب لمؤلفه الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني، أو كتاب عرام بن الأصبغ السلمي عن أسماء جبال تهامة، وكتاب البيروني عن الهند تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، وكتاب معجم ما استعجم للبكري عن الجزيرة العربية والبلدان المجاورة لها ولكنه شمل أجزاء من العالم لم يصل إلينا عنها إلا ما كتبه ياقوت.

6- حفظه بعض المادة العلمية عن مصادر مفقودة في تراثنا القديم:

ذكر ياقوت في كتابه كثيراً من المصادر العربية القديمة، وقد كان يعمد إلى الاقتباس منها . والعديد من مصادره مفقود في وقتنا هذا، مثل خطط مصر للقضاعي، ومصنفين آخرين مفقودين المؤلفين من صقلية هما : أبو علي الحسن وابن صقلية النها. ومثل كتاب بغداد للصابي . وكتاب تاريخ البصرة للمساجي القطاع وهو يعتمد عليهما عن جزيرة وهذا ما يجعله مصدرا للباحثين عن المادة العلمية التي تناولتها المصادر السابقة.

7- وصف الحياة الاجتماعية في المجتمعات الإسلامية:

لياقوت اهتمام واضح بالمجتمعات التي يتنقل بينها إذ كان يسعى إلى معرفة جوانب مختلفة مما كان ينتشر فيها من عادات وتقاليد وقيم وسلوكيات مختلفة، وقد سجل في كتابه جانبًا مما عرفه أو اطلع عليه في مؤلفات غيره أو سمعه ممن شاهده مما جعل من هذا الكتاب مصدرًا للراغبين في معرفة الحياة الاجتماعية في العالم الإسلامي أنذاك.

الومن ذلك وصفه لأهل مدينة أذربيجان" : وفي أهلها لين وحسن معاملة، إلا أن البخل يغلب على طباعهم . وهي بلاد فتنة وحروب، ما خلت قط منها، فلذلك أكثر مدنها خراب، وقراها يباب ".

وقال عن أسفيجاب بلدة من بلاد ما وراء النهر وصف أهلها بعد أن غزاهم التتر بقوله : وقد كان أهل تلك البلاد أهل دين متين وصلاح مبين ونسك وعبادة، والإسلام فيهم غض المجنى حلو المعنى يحفظون حدوده ويلتزمون شروطه، لم تظهر فيهم بدعة استحقوا بها العذاب والجلاء، ولكن يفعل الله بعباده ما يشاء ويحكم ما يريد".

وقال عن الجبول" : بلدة قرب حلب أهلها معروفون بقلة الدين والمروءة والكذب والاختلاف والتعصب على المحال، حدثني من أثق به" والله أعلم.

وقال عن أهل سجستان" إحدى بلدان المشرق ولم تزل لقاحًا على الضيم ممتنعة من الهضم منفردة بمحاسن والبالغ العارف وهم بخلاف هذه الصفة، ثم مسارعتهم إلى إغاثة الملهوف ومداركة الضعيف، ثم أمرهم بالمعروف ولو كان متوحدة بمآثر لم تعرف لغيرها من البلدان، ما في الدنيا سوقة أصح منهم معاملة ولا أقل منهم مخاتلة، ومن شأن سوقة البلدان أنهم إذا باعهم أو اشترى منهم العبد أو الأجير أو الصبي كان أحب إليهم من أن يشتري منهم الصاحب المحتاط والبالغ العارف، وهم بخلاف هذه الصفة، ثم مسارعتهم إلى إغاثة الملهوف ومداركة الضعيف، ثم أمرهم بمعروف ولو كان فيه جدع الأنف".

8-اهتمامه بالجوانب الأدبية:

استطاع ياقوت أن يضمن كتابه مادة أدبية متنوعة أراد من خلالها أن يعطي لكتابه جاذبية المقارئ، تخفف من جفاف مادته، وتتمثل هذه المادة فيما يأتي:

أ-استشهاد بالشعر:

وقد أكثر منه ما بين قصائد طويلة وقصيرة ومقطوعات شعرية، تتسم بتنوع الأغراض التي عبرت عن علاقتها بالمكان، والذي كان دافعًا لياقوت للاستشهاد بها، وقد زاد مجموع الأشعار المستشهد بها في المعجم على خمسة عشر ألف بيت، وهذا جعل من كتاب معجم البلدان مصدرًا للعديد من النصوص الشعرية التي لم يقف عليها الباحثون في مصادر أخرى، إذ إن معجم ياقوت هو المصدر الوحيد الذي حفظها لنا.

والمادة الشعرية في كتاب ياقوت لا تنفصل في معظمها عن المكان، إذ تشير إليه بشكل أو بآخر، ولهذا نلمس فيها بروز شعر الأطلال والغزل، وذم ومدح الأماكن، وشعر الفتوح الإسلامية وشعر الرثاء، وشعر الحنين إلى الأوطان والوصف.

ب-وضوح أسلوب ياقوت وسهولته:

رغم أن كتاب معجم البلدان يعرض مادة علمية تتسم بالجفاف إلا أن ياقوتًا استطاع بفضل ما يمتلكه من مهارة أدبية، أن يجعل نصوص كتابه مادة تتميز بسهولة ألفاظها ووضوح عباراتها، حتى كأننا في كثير من مواضع الكتاب نقرأ نصا أدبيا، لذا لا يمل القارئ من قراءة كتاب معجم البلدان بعكس الكتب الجغرافية الأخرى . ومن ذلك ما تطالعك به السطور الأولى من مقدمته إذ يقول:

"الحمد لله الذي جعل الأرض مهادًا، والجبال أوتادًا، وبثّ من ذلك نشوزًا ووهادًا، وصحارى وبلادا، ثم فجر خلال ذلك أنهارًا، وأسال أودية وبحارًا، وهدى عباده إلى اتخاذ المساكن، وإحكام الأبنية والمواطن، فشيدوا البنيان، وعمروا البلدان، ونحتوا من

الجبال بيوتًا، واستنبطوا آبارًا وقلوتًا، وجعل حرصهم على تشييد ما شيدوا، وإحكام ما بنوا وعمدوا، عبرة للغافلين، وتبصرة للغابرين . فقال وهو أصدق القائلين :'أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ'. أحمده على ما أعطى وأنعم، وهدى إلى الرشد وألهم، وبين من السداد وأفهم، وصلى الله على خيرته من أنبيائه والمرسلين، وصفوته من أصفيائه والصالحين، محمد المبعوث بالهدى والدين المبين، المنعوت بـ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ وعلى آله الكرام البررة، والصحابة المنتجبين الخيرة، وسلم تسليمًا".

وهذا ما توصل إليه الدكتور السيد محمد ديب في دراسته عن ياقوت حيث يقول" : الذي يتصفح كتابا كمعجم البلدان لسوف يبهر بروعة الأسلوب وجمال العرض .... التي جعلت من الكتاب دائرة معارف وخزانة أدب"، إلى أن يقول" : وهو على سعته يحمل أسلوبًا سهلا وعبارة رشيقة".

ج-ذكر الرسائل والخطب.

د-ذكر الملح والنوادر:

وذلك رغبةٌ في دفع السأم وملل عن القارئ.

ه-ذكر الأمثال:

فقد اهتم بذكر الأمثال عندما تأتي مناسبة لها.

و-إيراد الحكايات:

سرد ياقوت حكايات كثيرة تتنوع بين التاريخية والأدبية وربما هدف من ذلك إلى جذب القارئ.

9-اهتمامه بالانتماء الديني للمجتمعات:

يلاحظ أن ياقوتًا يشير عند حديثه عن الأماكن إلى الانتماء الديني لأهل ذلك المكان فيذكر ديانتهم مع تحديد

مذهبهم الديني، مسلمين، سنة، شيعة، خوارج، إسماعيلية، أو نصارى أو يهود أو مجوس.

كما يذكر المذهب الفقهي الغالب على فقهاء كل بلد 'مالكية، أحناف، شافعية حنابلة' وبذلك قدم لنا ياقوت

خريطة جغرافية واضحة عن وجود الطوائف الدينية أو أماكن الفرق الإسلامية وانتشار المذاهب الفقهية عبر ستة قرون.

من أمثلة ذلك قوله عن أهل عُمان" : وأكثر أهلها في أيامنا خوارج إباضية ليس بها من غير هذا المذهب إلا طارئ غريب وهم لا يخفون ذلك وأهل البحرين بضدهم كلهم روافض سبئيون لا يكتمونه ولا يتحاشونه وليس عندهم من يخالف هذا المذهب إلا أن يكون غريبا" .

جبل السماق : من أعمال حلب أهله إسماعيلية ملاحدة .

وعن فاس : وهي أكثر بلاد المغرب يهود .

والخصوص : قرية من أعمال صعيد مصر شرقي النيل كل من فيها نصارى .

وقم : وأهلها كلهم شيعة إمامية .

10- تحلية الكتاب بتراجم بعض المشاهير من العلماء عندما يعرف ببلدانهم:

اعتنى ياقوت عند الحديث عن كثير من البلدان بالإشارة إلى بعض المشاهير من علمائها من المحدثين والفقهاء والأدباء والشعراء والنحاة والمؤرخين والقراء وغيرهم، وذلك بذكر تراجم موجزة لهم من حيث تاريخ مولدهم وذكر أسماء شيوخهم وتلامذتهم ومؤلفاتهم وسنة وفاتهم . كما يذكر أحيانًا العلوم التي تفوقوا بها . مما ألزمه الرجوع إلى كتب الرجال والطبقات التي تهتم بهذا الجانب . وهذا الصنيع يبين لنا تطور الحركة العلمية في مختلف المدن والأمصار الإسلامية.

11 – الاعتماد على مصادر أصيلة وموثوق بها

اعتمد ياقوت في استقاء مادته التاريخية والجغرافية على مصادر أصيلة وموثوق بها مثل السيرة النبوية لابن إسحاق، وفتوح البلدان للبلاذري، وكتاب خطط مصر للقضاعي، وكتاب فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم، وكتاب الأنساب للسمعاني، وكتاب تاريخ دمشق لابن عساكر، وكتاب ما ائتلف واختلف من أسماء البقاع لنصر بن عبد الرحمن الإسكندري، بالإضافة إلى العديد من كتب المسالك والممالك والبلدان التي ألفها ابن خرداذبه، والجيهاني، وابن الفقيه والمهلبي، وغيرهم كثير. وهذا ما يؤكد الشخصية العلمية لياقوت، إذ يحرص على انتقاء مادته من أهم مصادرها وأكثرها توثيقا.

12-اهتمامه بالجوانب الاقتصادية:

شكل الجانب الاقتصادي حيزاً في حديث ياقوت عن بعض البلدان والأماكن، إذ تناول جانبا مما فيها من الثروات الزراعية والحيوانية والمعدنية، كما أشار إلى بعض الصناعات التي تميز بها كل بلد، وإليك أمثلة من ذلك:

أ-الزراعة:

يذكر ما تشتهر به بعض المدن من إنتاج زراعي فذكر أن الطائف تشتهر بالعنب، وتبريز بالمشمش، وأثنة بأذربيجان بالكمثرى، والمحمدية أكثر زرعها الأرز، وتاهرت بالسفرجل، وتشتهر مدن الأندلس بالموز وقصب السكر والجوز والبندق والتفاح، وتشتهر بلدة شوش بالموصل وخسر وسابور قرب واسط بالرمان، وفي حديثه عن بعض المدن يشير إلى ما تتمتع به من كثرة الفواكه مثل تونس بها اللوز والرمان والأترج والتين والسفرجل والزيتون وشهرستان بفارس بها الأترج والقصب والزيتون وأسعارها رخيصة .

ب-الثروة الحيوانية

فعند إشارته إلى كورة البشمور قرب دمياط بمصر يقول ياقوت : فيها خرفان لا يوجد من الضأن في موضع آخر من الدنيا" .

ج-المعادن:

تميزت بعض البلدان بوجود بعض المعادن بها مما دعا ياقوت إلى الإشارة إليها فذكر أن بلاد ما وراء النهر بها معدن الذهب والفضة والزيبق الذي لا يقاربه في الغزارة والكثرة معدن في سائر البلدان".

وأما أسبرة : ناحية بأقصى بلاد الشاش بما وراء النهر فيها": النفط والفيروز والحديد والصفر والذهب والآنك"، وأما خربة فيها معدن الزمرد اللها، وجبل البشر بالشام فيه معدن القار.

د-الصناعة:

كانت بعض البلدان تعرف بأنواع من الصناعات التي انتشر صيتها بين الناس فبليدة شطا بمصر ينسب إليها الثياب الشطوية، وتشتهر مدينة دمياط بصناعة الثياب والفرش ومناشف الأبدان والأرجل، ومدينة جهرم بفاس تشتهر بالبسط الفاخرة، وتشتهر شاطبة بالأندلس بصناعة الكاغد 'الورق' ويحمل منها إلى سائر بلاد الأندلس.

13- بيانه لمناخ البلدان والمدن الإسلامية

لم يغفل ياقوت في كتابه الحديث عن طبيعة أجواء بعض البلدان مما دفعه إلى الإشارة السريعة إلى مناخها، ومن الأقاليم التي ذكر مناخها خوارزم حيث قال : والشتاء عندهم شديد جدا بحيث إني رأيت جيحون نهرهم وعرضه ميل وهو جامد، والقوافل والعجل الموقرة ذاهبة وآتية عليه

وصف تجمد نهر جيحون بقوله" : وقد شاهدته وركبت فيه ورأيته جامدا، وكيفية جموده أنه إذا اشتد البرد وقوي كليه جمد أولا قطعا ثم تسري تلك القطع على وجه الماء فكلما ماشت واحدة الأخرى التصقت بها ولا تزال تعظم حتى يعود جيحون كله قطعة واحدة، ولا يزال ذلك الجامد يثخن حتى يصير يثخن نحو خمسة أشبار وباقي الماء تحته جار، فيحفر أهل خوارزم فيه أبارًا بالمعاول حتى يخرقوه إلى الماء الجاري ثم يستقوا منه الماء لشربهم ويحملوه في الجرار إلى منازلهم فلا يصل إلى المنزل إلا وقد جمد نصفه في بواطن الجرة، فإذا استحكم جمود هذا النهر عبرت عليه القوافل والعجل والبقر، ولا يبقى بينه وبين الأرض فرق حتى رأيت الغبار يتطاير عليه كما يكون في البوادي، ويبقى على ذلك نحو شهرين فإذا انكسرت سورة البرد تقطع قطعا كما بدأ في أول مرة إلى أن يعود إلى حالته الأولى، وتظل السفن في مدة جماد ناشبة فيه لا حيلة لهم في اقتلاعها منه إلى أن يذوب، وأكثر الناس يبادرون برفعها إلى البر قبل الجماد".

قال عن مناخ العراق" : أعدل أرض الله هواء وأصحها مزاجا وماء" ووصف مناخ الموصل بشدة الحر صيفا

وشدة بردها شتاء.

منهج ياقوت في معجم البلدان:

قدم ياقوت لكتابه بمقدمة جعلها في خمسة أبواب واعتبرها مدخلا للمعجم، وكلها تتحدث عن مسائل جغرافية ومصطلحات علمية وأحكام الأرض المفتتحة في الإسلام.

بيان أبواب المقدمة كما يلي:

الباب الأول: في ذكر صورة الأرض وحكاية ما قاله المتقدمون في هيئتها، ورواياته عن المتأخرين في صورتها.

الباب الثاني: في وصف اختلاف الجغرافيين في الاصطلاح على معنى الإقليم وكيفيته واشتقاقه ودلائل القبلة في كل ناحية مع بيان الأقاليم السبعة وهي : الحجاز، والهند، ومصر، وبابل، والصين، ويأجوج، والروم.

الباب الثالث: يتناول تفسير المصطلحات الجغرافية التي يرد ذكرها في الكتاب كالبريد والفرسخ والميل، وأيضا النواحي كالإقليم والكورة والمخلاف والأستان والرستاق والطسوج

والجند وآباد والسكة والمصر، ثم المصطلحات الخاصة بالخراج وغلة الأرض كالصلح والسلم والعنوة والخراج والفيء والغنيمة والصدقة والخمس والقطيعة.

الباب الرابع: في بيان حكم الأرضين والبلاد المفتتحة في الإسلام وحكم قسمة الفيء والخراج فيما فتح صلحا أو عنوة.

الباب الخامس: في جمل من أخبار البلدان التي لا يختص ذكرها بموضع دون موضع لتكمل فوائد هذا الكتاب ويستغنى به من غيره في هذا الباب.

وقد قسم ياقوت مواد معجمه إلى ثمانية وعشرين كتاباً على عدد حروف الهجاء، ثم قسم كل كتاب إلى ثمانية وعشرين بابا بالنظر إلى الحرف الثاني للأول والتزم ترتيب كل كلمة منه على أول الحرف وثانيه وثالثه ورابعه وإلى أي غاية بلغ فيقدم ما يجب تقديمه بحكم ترتيب أ ب ت ث ... على صورته الموضوعة له من غير نظر إلى أصول الكلمة وزوائدها لأن ما يرد إنما هي أعلام المسميات مفردة وأكثرها عجمية ومرتجلة لا مساغ للاشتقاق فيها.

والغرض من هذا الترتيب تسهيل طريقة الفائدة من غير مشقة.

وإذا أردنا الكشف عن منهج ياقوت في تقديم المادة العلمية في كتابه نجد أنه يسير في أغلب كتابه على الطريقة التالية:

1 - تحليل المادة لغويا:

إذ يذكر أولا طريقة نطقها بالألفاظ ثم يشير إلى الاشتقاق اللغوي لاسم المكان وهل هو عربي أو أعجمي مستعرضًا للآراء المختلفة حول ذلك – إن وجدت – وقد يرجح أحدها ثم يتناول تصريفات الكلمات وما يصح منها مع تعليل ذلك.

2 - تفسير تسمية الموقع:

حيث يورد لتحقيق ذلك قصة أو حكاية أدبية أو بيتا من الشعر.

3 - ضبط الموضع جغرافيًّا:

إذ يأخذ في الحديث عن تحديد مكانه جغرافيا ومن بناه وذكر البلدان المجاورة له وكم المسافة بينه وبين ما يقاربه وقد يستشهد لتحديد موضع المكان بالشعر العربي القديم . وينهي ذلك بالإشارة إلى الموضع الفلكي للمكان لتحديد درجة طوله وعرضه وموقعه من الأقاليم وبرجه.

4 - ذكر الجانب التاريخي والحضاري للمكان:

يشير ياقوت بادىء ذي بدء إلى صفة المكان إن كان مدينة أو قرية أو حصنا أو قلعة أو سورا أو مسجدًا أو قصرا أو ديرا من الديارات ويذكر ما فيه من بناء ومن الذي قام بذلك والسنة التي بني فيها - غالبا - ثم يتعرض إلى الفتح الإسلامي للمكان حيث يذكر اسم الفاتح والسنة التي تم الفتح فيها مسهبا أحيانًا وموجزا في أحيان أخرى كما يوضح طريقة الفتح هل كان عنوة أو صلحًا؟.

ولا يقتصر ياقوت على ذكر الفتح فقط إنما يتجاوز ذلك إلى ما كان للمكان من دور تاريخي إضافة إلى ذكر بعض الأحداث التاريخية التي مرت بها على ذلك المكان وخاصة الأماكن التي ذكرت في القرآن الكريم مثل سد يأجوج ومأجوج الرقيم - مصر، وسد مارب الجودي مكة المدينة، بابل مع ذكر الآيات والأحاديث النبوية الواردة في ذلك.

وذكر الوقائع والحروب والأيام المتعلقة بالمكان، ذكره بعض غزوات وسرايا الرسول ع كما ذكر الأحداث الداخلية في الدولة الإسلامية مثل حركات الخوارج والشيعة وحركات العصيان والتمرد.

ويشير ياقوت أحيانا إلى من يمتلك المكان في أيامه كما يصف أخلاق أهلها وعاداتهم وأديانهم ومذاهبهم ومحاصيلها الزراعية من الثمار والحبوب والمعادن والحيوانات وغيرها.

ويتوقف عند بعض الخرافات والأساطير التي تتعلق بذلك المكان.

5 - نلاحظ أن ياقوتا يفصح عن موارده التي استمد منها مادته العلمية، فقد نص في مقدمته على موارده في الجغرافيا وهم:

ابن خرداذبه، وأحمد بن واضح، والجيهاني، وابن الفقيه، وأبو زيد البلخي، وأبو إسحاق الإصطخري، وابن حوقل وأبو عبدالله البشاري، والحسن بن محمد المهلبي، وابن أبي عون البغدادي، وأبو عبيد البكري.

كما ذكر الذين قصدوا ذكر الأماكن العربية والمنازل البدوية وهم طبقة أهل الأدب، فذكر منهم: أبو سعيد الأصمعي وأبو عبيد السكوني، والحسن بن أحمد الهمداني، له كتاب جزيرة العرب، وأبو الأشعث الكندي، في جبال تهامة وأبو محمد الأسود الغندجاني، له كتاب في مياه العرب، وأبو زياد الكلابي في نوادره، ومحمد بن إدريس بن أبي حفصة، له كتاب مناهل العرب، وهشام بن محمد الكلبي، له كتاب اشتقاق البلدان، وأبو القاسم الزمخشري له كتاب لطيف في ذلك، وأبو الحسن العمراني تلميذ الزمخشري، كما أنه يذكر مصادر أخرى في ثنايا صفحات الكتاب، وهذا يدل على حرص ياقوت على هذا الجانب.

طريقة الإحالة على الموارد:

وقد سلك ياقوت طرقًا متعددة عند نقله من الموارد على النحو ا و التالي:

أ- الإسناد إلى المورد، مصرحًا بعنوان الكتاب واسم مؤلفه، مثل قوله:

1- وقرأت في كتاب بغداد تصنيف هلال بن المحسن الصابيء

2- قال محمد بن إسحاق الفاكهي في كتاب مكة.

3- قال أبو يحيى زكريا الساجي في تاريخ البصرة

4- قال البلاذري في كتاب الفتوح

5- وفي كتاب الفتوح لأبي حذيفة إسحاق بن بشر

ب- الإسناد إلى المورد مصرحًا بعنوان الكتاب دون اسم مؤلفه:

1- وفي كتاب دمشق عن يزيد بن سمرة.

2- وفي كتاب الوزراء

3- وفي المغازي

4- وقرأت في كتاب الابستاق: وهو كتاب ملة المجوس.

ج- الإسناد إلى المورد مصرحًا باسم المؤلف دون عنوان الكتاب:

1- قال ابن إسحاق.

2- قال عوانة بن الحكم.

3- وقال الحسن بن إبراهيم المصري 'ابن زولاق'.

4- وقال أحمد بن أبي خيثمة.

د- الإسناد إلى جماعة دون تحديد:

1- قال أهل السير.

2- ذكر الاخباريون.

3- وذكر أصحاب الفتوح

ه- الإسناد إلى الرواة الذين التقى بهم فيذكر الاسم أو قد يذكر الصفة، أو يسند إلى جماعة:

1- حدثني ابن قاضي تفليس.

2- وحدثني الشيخ وليد البصري وكان ممن جال البلدان أن البربر طائفة من السودان.

3- وقال بعض من جال البلدان.

4- وحدثني بعض التجار.

5- حدثني بذلك غير واحد من أهل حلب.

6- وحدثني العباس بن يحيى التكريتي وهو معروف بالعلم والفضل في الموصل.

أما بالنسبة لطريقة اقتباسات ياقوت من مورده فإنه يمكن لنا أن نسجل النقاط التالية:

1- اقتباس النص كما جاء في المورد الذي أخذ عنه ياقوت.

2- الاكتفاء بالإشارة إلى المعنى الذي يحمله المورد دون الاقتباس المباشر.

3- يعمد أحيانًا إلى تحديد بداية النص ونهايته مثل: وفي كتاب أحمد بن يحيى بن جابر ثم يعقب بعد إيراده النص فيقول: آخر قول البلاذري، ومثل ذكر سيف بن عمر، ثم يعقب بعد نقله الخبر هذا قول سيف، ومثل قال: أحمد بن الطيب السرخسي، ثم يعقب بعد نقله الخبر انتهى قول السرخسي.

4- عدم الإشارة أحيانًا إلى مواضع النقل.

5- اختصار بعض النصوص مع تعديل في مفرداتها.

6- الجمع بين أكثر من مورد في نفس الخبر.

ولعل مما ينبغي أن نشير إليه هو اعتناء ياقوت بالعودة إلى نسخة المؤلف أحيانًا لأخذ المادة العلمية عنها وهذا دليل حرصه على صحة ما ينقله.

6- طريقة تعامله مع الموارد:

كانت استفادة ياقوت من موارده متفاوتة، بحسب الأحوال، فبعض الموارد شكلت عنده مصدرا أساسيا ففي السيرة مثلا اعتمد اعتمادًا كبيرا على ما ورد عند ابن إسحاق، أما في الفتوح فقد كان كتاب فتوح البلدان للبلاذري المورد الأكثر بروزاً في هذا الجانب. وهذا يعني أن ياقوتا يستقي مادته التاريخية من المصادر المهمة والأصيلة في موضوعها ويقدمها على غيرها. كما أنه يعتمد في الخبر الواحد على مصدر واحد، وفي أحيان أخرى لا يكتفي بذلك فنجده يعمد إلى أكثر من مورد فيستقي منها مادته أو يكمل به جوانب أخرى من الخبر التاريخي.

كما نلاحظ أنه يرجع إلى موارد ثانوية لا تتعلق بالجانب التاريخي مباشرة مثل كتب البلدان والرحلات، واللغة والأدب، ولكنها تحمل في ثناياها بعض الأخيار التاريخية.

7- يقوم ياقوت أحيانًا بسرد بعض الروايات والأقوال حول مكان ما، ثم يوازن بينها ويختار ما يراه منها بناءً على بعض المرجحات مثل:

أ – الاستناد إلى دليل أو حقيقة تاريخية من نص موثوق به، إذ إن ذلك يجعله يرجح رواية ويضعف أخرى فنجده يورد الخبر ثم يصححه . مثال ذلك ما ذكره عن الأحقاف فقال: "واد بين عُمان وأرض مهرة، عن ابن عباس. قال ابن إسحاق: الأحقاف رمل فيما بين عُمان إلى حضرموت، وقال قتادة : الأحقاف رمال مشرفة على البحر بالشحر من أرض اليمن، وهذه ثلاثة أقوال غير مختلفة في المعنى، وقال الضحاك: الأحقاف جبل بالشام. وفي كتاب العين: الأحقاف جبل محيط بالدنيا، من زبرجدة خضراء تلهب يوم القيامة، فيحشر الناس عليه من كل أفق".

ثم علق ياقوت على ذلك بقوله: "والصحيح ما رويناه عن ابن عباس وابن إسحاق وقتادة، أنها رمال بأرض اليمن"

ثم يدلل على صحة ترجيحه بمصدر آخر فيقول: "ويشهد بصحة ذلك ما رواه أبو المنذر هشام بن محمد"...

كذلك عند حديثه عن خبر فدك يقول: "وفي فدك اختلاف كثير في أمره بعد النبي ﷺ وأبي بكر وآل رسول الله ع ومن رواة خبرها من رواه بحسب الأهواء وشدة المراء، وأصح ما ورد عندي في ذلك ما ذكره أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري في كتاب الفتوح له".

ب – ميله إلى ترجيح ما يعتقد صحته دون أن يكون لديه دليل نصي أو تفسير لذلك إلا ما يسميه باطمئنان نفسه، ففي حديثه عن سبب تسمية قريش بهذا الاسم يورد الروايات المختلفة في هذا الشأن ثم يقول: "والذي تركن إليه نفسي أنه إما أن يكون من التجمع، أو تكون القبيلة سميت باسم رجل يقال له قريش بن الحارث بن يخلد بن النضر بن كنانة".

كذلك عند تناوله الحديث عن قصر الخورنق في الحيرة، حيث يشير إلى اختلاف المؤرخين في تحديد بانيه فيذكر أنه اطمأن إلى قول الهيثم بن عدي وأن الذي أمر ببنائه هو النعمان بن امرىء القيس بن عمرو بن عدي والذي بناه له رجل من الروم يقال له سنّمار.([1])

[1]) يوسف بن عبد العزيز الحميدي: ياقوت الحموي مؤرخا من خلال كتابه معجم البلدان، جامعة أم القرى، السعودية، 1998، 101-129.

المصادر والمراجع:

[1]_ ابن أبي دينار، **المؤنس في أخبار إفريقيا و المغرب**، تونس ، 1967.

2_ ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، دار الكتاب العربي، 1387هـ.

3_ ابن خلكان، **وفيات الاعبان وأبناء الزمان**، القاهرة، 1948.

4_ البكرى، **كتاب المغرب في ذكر بلاد افريقية و المغرب**، باريس 1965.

5_ ابن أبي زرع الفاسي، **كتاب الأنيس المغرب بروض القرطاس**، فاس، 1973.

6_ ابن خلدون ، **كتاب العبر**، دار الكتاب اللبناني، 1939.

7_ ابن عذارى، **البيان المغرب في أخبار المغرب**، مكتبة صادر، بيروت 1950.

8–**تاريخ الجزائر العام:** عبد الرحمان بن محمد الجيلاني ، ديوان المطبوعات لجامعية ، بن عكنون، ج :1

[9]– **قيام دولة المرابطين** : محمد حسن أحمد ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، 1957 .

0[1]– **المعجم لتلخيص اخبار المغرب** : عبد الواحد المراكشي ، تقديم : ممدوح حقي ، طبعة دار الكتاب (د.ت) المغرب.

1[1] **-نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب** : أحمد بن محمد المقري ، تحقيق : إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، لبنان 1968 ج:3 .

2[1]–**عصر المرابطين و الموحدين بالمغرب و الأندلس** : محمد عبد الله عنان ، القاهرة 1964 ،ج :01.

13-**تاريخ ابن خلدون** : عبد الرحمان ابن خلدون ، نشر مؤسسة الإعلى للمطبوعات ، بيروت لبنان ، 1959 ج: 6 .

4[1]–**تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين** :ابن صاحب الصلاة ،تحقيق :عبد الهادي التازي، دار الأندلس للطباعة و النشر ، بيروت الطبعة الأولى 1964.

5[1] –**تاريخ الأندلس في عهد المرابطين و الموحدين** : أشياخ يوسف ، ترجمة : محمد عبد الله عنان ، مؤسسة الخانجي ، القاهرة ، الطبعة الثانية 1958.

6[1] –**الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي** : عبد الله علي علام ، دار المعارف ، مصر ،1971.

7[1]–**النبوغ المغربي لعبد الله كنون** ، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني للطباعة و النشر، بيروت ،1961 :ج :1 .

8[1]- **ديوان ابن سهل الإسرائيلي** : تحقيق : إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت، لبنان ، 1967.

19_ العربي دحو، **ديوان أبي الربيع عفيف الدين التلمساني الصوفي** (610هـ/1213م) (690هـ/ 1291م)، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، ط2، 1994.

20_ أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر**، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1998.

21_ ناصر الدين سعيدوني، **صور من الهجرة الأندلسية إلى الجزائر**، المجلة العربية للثقافة، السنة الرابعة عشرة، العدد السابع والعشرون، عدد خاص بالتاريخ العربي في الأندلس، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، 1994.

22_ابن أبي دينار، **المؤنس في أخبار إفريقيا و المغرب**، تونس ، 1967

23- ابن أبي زرع الفاسي، **كتاب الأنيس المغرب بروض القرطاس**، فاس، 1973

24- ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، دار الكتاب العربي، 1387/ 1909

25- ابن حماد، **أخبار ملوك بني عبيد وسرتيهم** ، الجزائر 1927

26- ابن حوقل، **كتاب صورة الأرض**، ترجمة..... باريس 1965

27- ابن خلدون ، **كتاب العبر**، دار الكتاب اللبناني، 1939

28- ابن خلكان،**وفيات الاعبان وأبناء الزمان**، القاهرة، 1948

29- ابن عذارى، **البيان المغرب في أخبار المغرب**، مكتبة صادر، بيروت 1950

30- البكرى، **كتاب المغرب في ذكر بلاد افريقية و المغرب**، باريس 1965

31- القاضي نعمان، **كتاب افتتاح الدعوة**، تونس 1975

32 – **أبو حمو موسى الزياني:حياته وآثاره**،عبد الحميد حاجيات،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،الجزائر1982.

33 – امرؤ القيس، **الديوان**، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ط4، 1984.

34_ ابن منظور، **لسان العرب**، دار صادر – بيروت -، الكبعة الثالثة، 1414هـ، الجزء 4.

35_ خير الدين الزركلي، **الأعلام**، دار العلم للملايين، الطبعة 15، 2002م، الجزء 5.

36_ ابن طباطب، **عيار الشّعر**، شرح وتحقيق عباش عبد السّاتر، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، الطبعة 1، 1402 هـ.
37_ ابن قتيبة، **الشعر والشعراء**، دار الحديث – القاهرة، الجزء 1.
38- محمد الطمار، تاريخ الأدب الجزائري، ديوان المطبوعات الجامعية، ط2، 2010، ص 71.
39-عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج1، دار الأمة، الجزائر، ط 2010،
40_عمار عمورة-نبيل دادوة، الجزائر بوابة ما قبل التاريخ 1962 الجزائر عامة، ج1، دار المعرفة
41- مبارك بن محمد الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج2، دار الكتاب العربي،الجزائر، ط 2010
42- محمد علي دبوز، تاريخ المغرب الكبير، ج3، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، ط1، الجزائر، 2013
43- عبد المالك مرتاض، الأدب الجزائري القديم، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ط 2005
44- يحي بوعزيز، الموجز في تاريخ الجزائر، ج1، ديوان المطبوعات الجامعية، ط2، 2009
45- عثمان سعدي، الجزائر في التاريخ، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع ،ط 1، الجزائر، 2011
46- عمر عروة، النثر الفني القديم أبرز فنونه وأعلامه، دار القصبة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2012
47- عبد الرحمن عبد الحميد علي، تاريخ الأدب في العصر الجاهلي، دار الكتاب الحديث، القاهرة، الكويت، الجزائر، 2008
48- ابن الصغير، أخبار الأئمة الرستميين، تح محمد ناصر-ابراهيم بحاز، دار الغرب الإسلامي، ط1 ، بيروت، لبنان، 1986
49_ بوبا مجاني:من قضايا التاريخ الفاطمي في دوره المغربي، دار بهاء الدين، الجزائر ،2007م
50_أيمن فؤاد السيد:الدولة الفاطمية في مصر (تفسير جديد)، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط1 ،1992م.

51_ منير البعلبكي:معجم أعلام الأمور، دار العلم للملايين، لبنان، ط1، ص 184.

52_عبد الله محمد جمال الدين:الدولة الفاطمية نهاية القرن الرابع الهجري، دار الثقافة، القاهرة،1991م.

53_علي حسن الخريوطي،أبو عبد الله الشيعي:مؤسس الدولة الفاطمية، المطبعة الفنية الحديثة، البصرة، 1972م.

54_النويري نهاية الإرب، تج:مصطفى أبو غيث أحمد نشره بعنوان:تاريخ المغرب الإسلامي في العصر الوسيط، دار النشر المغربية، الدار البيضاء،ج28، 1985م.

55_ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، إعتنى به أبو صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية

56_بوزياني الدراجي: القبائل الامازيغية دورها ومواطنها وأعيانها، دار الكتاب العربي، الجزائر،ج2007،1م

57_ حسين أمين، صلاح الدين الأيوبي: العباسيين والفاطميين والعلويين،دار الجديد، لبنان، ط1، 1995م.

58_ الحميري: الروض المعطار في أخبار الاقطار، تر: حسان العباس مؤسسة ناصر للثقافة بيروت، 1980م.

59_القاضي النعمان: افتتاح الدعوة ،تحقيق فرحات الدشراوي، الشركة التونسية للتوزيع،تونس، 1986م

ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار الصادر، بيروت، مج 6، 1988م.

61_عمرو رضا:معجم قبائل العرب القديمة و الحديثة، مؤسسة الرسالة، لبنان، ج1، ط8، 1997م

62_ الشهرستاني:الملل و النحل، تر:محمد السيد كيلاني، دار المعرفة، لبنان،ج1، ط2، 1995

63_عبد الله محمد جمال الدين:الدولة الفاطمية قيامتها ببلاد المغرب وانتقالها إلى مصر إلى نهاية القرن الرابع الهجري مع عناية خاصة بالجيش، دار الثقافة للنشر و التوزيع، القاهرة، 1991م، .

64_ ابن حماد الصنهاجي: أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، دار الصحوة، القاهرةابن أبي دينار المؤنس: في أخبار إفريقية و تونس، مطبعة الدولة التونسية، 1286م

65_ الدكتور محمد زغلول سلام:" الأدب في العصر الفاطمي، الكتابة والكتاب"، منشأة العارف بالاسكندرية، مصر، دون سنة نشر

66_ عبد الرحمان الجيلالي:تاريخ الجزائر العام،ج1، دار مكتبة الحياة،بيروت، 1965

67_ صالح فركوس، تاريخ الجزائر ماقبل التاريخ إلى غاية الاستقلال،دار العلوم، الجزائر، دت،.

68_ مبارك بن محمد الميلي، تاريخ الجزائر القديم والحديث،ج2،المؤسسة الوطنية .للكتاب،الجزائر، دت،

69_ ينظر: ياسر لباراجي الخزاعله، الدولة الفاطمية في المغرب، زمزم ناشرون وموزعون، الأردن، ط1، 2015

70_ مبارك بن محمد الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، دار الكتاب العربي، الجزائر، د.ط، 2010

71_ محمد سهيل طقوس، تاريخ الفاطميين في شمالي إفريقية ومصر وبلاد الشام، دار النفائس، لبنان، ط2، 2007

72_ عبد المنعم عبد الحميد سلطان، الحياة الاجتماعية في العصر الفاطمي، دار الثقافة العلمية، الإسكندرية، د.ط، 1999

73_ رفيق بوراس، الأوضاع الاجتماعية بالمغرب في عصر الخلافة الفاطمية، جامعة منتوي، قسنطينة، 2008

74_ محمد سلام زغلول، الأدب في العصر الفاطمي، منشأة المعارف، الإسكندرية، د.ط،

75_يوسف بن أحمد حواله، الحياة العلمية في إفريقية، مكتبة الملك فهد الوطنية، ط1، 2000

76_ محمد كمال حسين، الحياة الفكرية والأدبية بمصر من الفتح العربي حتى آخر الدولة الفاطمية، مؤسسة هنداوي، د.ط

77_ محمد زغلول سلام، الأدب في العصر الفاطمي، منشأة المعارف، الإسكندرية، د.ط،

78_ أحمد محمد شاكر أسامة بن منقذ محمود محمد شاكر: لباب الآداب، منشورات مكتبة السنة، القاهرة، مصر

79_ابن خلدون: المقدمة ،مراجعة سهيل بكار، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت،1431 هـ،2001م

80_ عبد الحكيم العفيفي: موسوعة 1000 مدينة إسلامية، الأوراق الشرقية للطباعة و النشر، بيروت، ط1، 1421هـ، 2000م

81_ يوسف بن أحمد حوالة: الحياة العلمية في إفريقية منذ الفتح وحتى منتصف القرن الخامس الهجري 90_450 هـ، مركز بحوث الدراسات الإسلامية، مكة المكرمة، ج1، 1421هـ، 2000م

82_ رافعي نشيدة: الحياة الفكرية و الثقافية في المغرب في العصر الفاطمي 296–362هـ، رسالة،

83_ البكري أبي عبيد الله: المغرب في ذكر بلاد إفريقية كامل حسين ومحمد عبد الهادي شعيرة، دار الفكر العربي، 1487هـ، 1994م

84_ياقوت الحموي شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي البغدادي: معجم البلدان ، دار صادر، بيروت، ج3، 1397هـ–1977م

85_ابن حوقل أبي القاسم النصيبي: صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1996م،

86_ شيد مسجد القيروان من طرف عقبة بن نافع الفهري ولقي هذا الجامع شهرة واسعة في المغرب، محمد بن زيتون: القيروان، ودورها في الحضارة الإسلامية، دار المنار، القاهرة، ط1 ، 1408هـ، 1988م

87_ سمي بمسجد الناقة المحملة ذهبا التي أهداها الخليفة الفاطمي المعز لدين الله لأهل طرابلس، أنظر أحمد مختار عمر: النشاط الثقافي في ليبيا، منشورات كلية التربية، طرابلس، ط1

88_ جمع كتاب: وهو مشتق من لفظ التكتيب و تعليم الكتابة، وقد يقال له المكتب و هو موضع التعليم كمقعد ،أنظر: الفيروز أبادي: القاموس المحيط، دار الريان، بيروت، ج1، 1407ه، 1978م

89_ حسن بن حسن وطه أحمد شرف، المعز لدين الله: منشورات مكتبة النهضة المصري،القاهرة، مصر، 1963م

90_رابح بونار: المغرب العربي تاريخه و ثقافته، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، ط2، 246ه، 878

91_ حسن حسني عبد الوهاب: ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية، منشورات مكتبة المنار، تونس، ج1972،1م،

92_محمود عبد العزيز الزغبي الجزء الثاني:المحكم في تاريخ الطب، أمواج التراث للطباعة والنشر والتوزيع، عمان، الأردن

93_ شوكت شطي: مختصر في تاريخ الطب و طبقات الأطباء عند العرب، جامعة دمشق، 1379ه،1959 م

94_ يوسف حوالة: الحياة العلمية في إفريقيا منذ الفتح حتى منتصف القرن الخامس للهجري، مركز بحوث الدراسات الإسلامية، مكة المكرمة

95_ حسين حسن عبد الوهاب: ورقات عن الحضارة العربية بإفريقيا التونسية، منشورات مكتبة المنار، تونس، 1972م،

96_ايناس محمد البهيجي: تاريخ الدولة الفاطمية، نشر مركز الكتاب الاكاديمية، ط01

97_محمد كامل حسين: الحياة الأدبية و الفكرية بمصر من الفتح العربي إلى آخر الدولة الفاطمية، البندقية للنشر و التوزيع، شارع النيل القاهرة، مصر، ط1، 2016م

98_ ابن حماد، أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، تح: التهامي نقرة وعبد الحليم عويس، دار الصحوة، القاهرة، د.ط

99_ أبو بكر المالكي، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية، تح: بشير البكوش، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط2، 1994

100_ محمد سلام زغلول، الأدب في العصر الفاطمي، منشأة المعارف، الإسكندرية، د.ط،

101_محمد كمال حسين، الحياة الفكرية والأدبية بمصر من الفتح العربي حتى آخر الدولة الفاطمية، مؤسسة هنداوي، ط1، 2017

102_محمد كامل حسين، في أدب مصر الفاطمية، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ط1

103_محمد سلام زغلول، الأدب في العصر الفاطمي، منشأة المعارف، الإسكندرية، د.ط،

104_ سمير عبد الوهاب عبد ربه الحساسفة الحباشنة، ديون الإنشاء الفاطمي بمصر وجهوده الكتابية، جامعة مؤتة، 2007

105_ علي فيصل النبي العامري، السياسة الخارجية للدولة الفاطمية، جامعة الكوفة، 2007